

**اصطفاء المرابطين وكشف المنقلبين وفضح الزائغة قلوبهم**

**(دلالات تربوية حول مفهوم الدنيا والدين في سورة آل عمران)**

لا شك أن طريق الهدى محفوفٌ بالتكاليف الربَّانية، التي يهتدي بها العبد إلى الجنة، بَيْدَ أن الطريق طويلٌ ويحتاج لهمة عالية، فهل من مشمر لها؟

ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مَشِيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نَضِيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، في مقامٍ آبدٍ، في رَحْبةٍ ونضرة، في دُور عالية، سليمة بهية، فكان أول المُشمِّرين للجنة هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يفصل بينهم وبينها إلا الموت في سبيل الله، قال الصحابة: ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم (الجهاد وحض عليه)[[1]](#footnote-1)، ويعضد متن هذه الرواية - أي معناها وإن لم تثبت سندًا - ما رُوِي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يا أبا سعيد، مَن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وجبت له الجنة))، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال صلى الله عليه وسلم: ((وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض))، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل الله))[[2]](#footnote-2).

فسورةُ آل عمران من السبع الطوال، وعدد آياتها بلغ المائتين، وتناولت في معظم آياتِها الحديثَ عن أمور عدة، قد يصعب لأول وهلة الربطُ بينها، وبخاصة بين نصفها الأول ونصفها الثاني، بَيْدَ أنه عند التدبُّر يتبين أن جميعَها مترابطة، وتتناسب مع الظرف الذي تنَزَّلت فيه آياتها، وذلك بعد هزيمة المسلمين في غزوة أُحُد، ومن ثَمَّ تجرُّؤ أهل الكتاب عليهم وتحزُّبهم بعد أحد على النبي صلى الله عليه وسلم، بل إن من أظهرِ أسباب الهزيمة هو العَلاقة الباطنية بين المنافقين وأهل الكتاب، وتزلُّفهم لهم، وموالاتهم من دون المؤمنين، وقد ظهر ذلك في أول اختبار وابتلاء لهم، ذلك أنه لم يكن ببدرٍ منافقٌ؛ لأنها كانت أول غزوة للمسلمين، فلم يَغْزُ فيها مع النبي صلى الله عليه وسلم غير الصادقين من أصحابه، بينما في أُحُدٍ سارع كثيرٌ من المنافقين للمَغْنَم، بل ورجع عبدالله بن أُبَي بن سلول وانخزل بثلث الجيش[[3]](#footnote-3).

ومن هنا بدا أول ظهورٍ للعَلاقة السياسية والعسكرية - أو المخابراتية - بين المنافقين وأهل الكتاب من جهة، والمنافقين والمشركين من جهة أخرى، والرسول صلى الله عليه وسلم يُربِّي المسلمين، ويُعِيد ترتيب البيت من الداخل، ويُهيِّئ الأجواء والنفوس لاستقبال مرحلة صعبةٍ من أصعب مراحل الدعوة؛ حيث يتعرَّض المسلمين لغزوٍ فكريٍّ من أهل الكتاب، وتثبيطٍ للهمم من المنافقين، ومبارزاتٍ عسكرية من القبائل المجاورة، ومؤامرات من الداخل والخارج، وليس أدلَّ على ذلك من غدر بني لحيان بسبعين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غداةٍ واحدة، وكانوا يُعلِّمون الناس القرآن وسُمُّوا لأجل ذلك بالقرَّاء.

فعن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القراء - قال أنس: كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويُصلُّون بالليل[[4]](#footnote-4) - فعرض لهم حيَّانِ من بني سليم رِعْل وذكوان عند بئرٍ يقال لها بئر مَعُونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم فقتلوهم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شهرًا في صلاة الغداة[[5]](#footnote-5).

كما غُدِر بالصحابة مرة أخرى بعد أحدٍ في الرَّجيع، يقول ابن كثير: (قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُدٍ رهطٌ من عَضَل والقارَة، فقالوا يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يُفقِّهُوننا في الدين، ويُقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نفرًا ستة من أصحابه[[6]](#footnote-6)، قال البخاري: (بعث النبي صلى الله عليه وسلم سريَّة عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسْفان ومكة ذُكِروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لِحْيَان فتبِعوهم بقريبٍ من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم)[[7]](#footnote-7)، وقتلوهم، وقتلوا عاصم بن ثابت.

ومن الجدير أن نذكر كلمات قالها خُبَيب بن عَدِي لَمَّا حانت ساعة الغدر به ومقتله:

ولستُ أبالي حين أُقتَل مسلمًا = على أي شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذاتِ الإله وإن يشأ = يُبارِكْ على أوصالِ شلوٍّ مُمَزَّعِ[[8]](#footnote-8)

حيث يصعب وصف هذه الفترة إلا القول بأنها من أحلك الفترات وأشدها خطرًا على الدعوة الإسلامية، وليس أدلَّ على ذلك من استطاعة الكفار أن يحشدوا بعد أُحُدٍ كلَّ ما استطاعوا من الأحزاب لاستئصال شأفةِ النبي صلى الله عليه وسلم في العام الخامس من الهجرة، وإذ كانت (أُحدٌ) في العام الثالث من الهجرة، فإنه يفصِلُها عن الأحزاب عامان تقريبًا، خلالهما كان لا بد من ثبات المسلمين وتجرُّدهم من الدنيا، وتأهيلهم معنويُّا ليُجابِهوا المشركين، بل وأهل الكتاب في جولات وصولات، منها فكرية وأخرى جسدية.

**وتجدر الإشارة إلى أن** سورة آل عمران هي المتمِّمة لسورة البقرة، كاكتمال المنهج بالتطبيق، ولذلك سُمِّيَتا بالزهراوين؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ((اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوينِ البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ تُحاجَّانِ عن أصحابهما))[[9]](#footnote-9)؛ إذ عُنِيَت بما عُنِيَت به سورة البقرة، وكأن محاورهما واحدة، بَيْدَ أنها تطرَّقت لما تطرقت إليه سورة البقرة بأسلوبٍ جديد، ومن زوايا مختلفة، وهذه السورة لا تتحدث عن واقعة بعينها - وإن نزلت بعد أُحُدٍ لتهوِّنَ على المسلمين ما هم فيه - ولكنها تتحدَّث عن واقع حدث ويحدث وسوف يحدث، ولذلك حكت عن مجادلة أهل الكتاب من النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأيًّا كان مسمى هذا الوفد أو ساعة مقدمِه للنبي صلى الله عليه وسلم - سواء أكان وفد نجران أو غيره - فإن مجادلات أهل الكتاب لا تنحصرُ في وفدٍ دون غيره، فلا يُنكِر أحدٌ كثرةَ الوفودِ على النبي صلى الله عليه وسلم من القبائل المجاورة، سيما من الأنصار، أو من المشركين، أو من النصارى واليهود، ومن ثَمَّ عُنِيَت السورة بما حصل في شأن مجادلتهم، أو سوف يحصل.

يقول ابن كثير: (قدِم وفد نجران منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم، ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة، وعيسى، ومريم، على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوَّره في الرحم، كما صوَّر غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أبٍ، كما خلق آدم من غير أب ولا أمٍّ، وقال له: كن، فكان، سبحانه وتعالى، وبيَّن أصل ميلاد أمه مريم، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى)[[10]](#footnote-10).

وكما أن سورة البقرة تناولت ذكر المغضوب عليهم من اليهود لكتمانِهم، الحق رغم علمهم به مثلما يعلمون أبناءهم، فإن سورة آل عمران تحدثت عن الضالين من عبَّاد المسيح، وإن أردنا أن نكون أكثر إنصافًا نقول: الظالمين من رهبانهم وقساوستهم، الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولأنهم يعملون بخبث ودهاء شديدينِ، ويشهد لذلك قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 71]، فقد غفل الكثير من الكتاب والمفكِّرين والمؤرِّخين عن اعتبارهم إحدى القوى المضادَّة للإسلام، حتى إن الدكتور راغب السرجاني يقول: (بعد غزوة أُحد، وهذه الهزيمة القاسية أمام قريش، فقد أُصِيب المسلمون بالضعفِ، وتجرَّأ الأعداء عليهم، وأحاطت بهم بعض النكبات، التي راح ضحيَّتها بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُرِيقت دماؤهم الزكية؛ نتيجة تجرُّؤ بعض القبائل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتعالَوا ننظر إلى أعداء الأمة الإسلامية بعد موقعة أُحد، فسوف نرى أنهم أربع قوى:

الأولى قريش، الثانية المنافقون، الثالثة اليهود، الرابعة القبائل العربية حول المدينة)[[11]](#footnote-11).

والحقيقة أن كلامه ينقصُه بعض الدقة؛ لأنهم كانوا قوة لا يُستهان بها، ولكنها كانت قوَّة منظَّمة تمثَّلت في إمبراطورية الروم العظمى وقتها، وكذا في الحبشة، ولم يتفرَّغ لهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينتبِهوا لتهديدِه صلى الله عليه وسلم عرشَهم إلا في أواخرِ حياته وسيرته العطرة، وذلك لما تقابلا في مؤتةَ في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة، وتبوك بشهر رجب العام التاسع من الهجرة، ولم يُوادِعهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا في آخر عهده لما وادع وفد نجران، وأرسل معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح، بعدما تركوا ملاعنته أو مباهلته.

يقول الدكتور جابر قميحة:

(كان انتشارُ النصرانية في الشام أوقع وأوسع، بحكم قرب هذه المناطق من الإمبراطورية الرومية التي كانت النصرانيةُ دينَها الرسمي، فتنصَّر الغساسنة، وأصبحوا قوة عسكرية يعتمد عليها الروم، ويشتركون معهم في القتال، وكذلك قبائل أخرى مثل كلب، وقُضاعة، وجُذام، وعاملة، وتنصَّرت قبائل إياد، ومنهم مَن سكن السواد والجزيرة، ومنهم مَن سكن الشام، وتنصر عدد كبير من قبيلة طيِّئ، منهم عدي بن حاتم الطائي، وتسرَّبت النصرانية إلى الحِيرة، منطقة المناذرة، على الرغم من تبعيَّتِها للفُرس المجوس، ومن الحِيرة والشام تسرَّبت النصرانية إلى كثير من المدن والمحلات، منها دومة الجندل، وأيلة، وتَيْماء، واليمامة، وغيرها)[[12]](#footnote-12).

فالنصارى كطوائفَ انقسموا إزاءَ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى فريقين، ولم يؤمن بدعوته إلا قليل، وعلى رأس مَن آمن منهم صُهَيبٌ الرومي، وتَميمٌ الداري، والنَّجاشي الحبشي رضي الله تعالى عنهم.

أما الفرقتان الأخريان:

ففرقة صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتركهم وشأنهم مقابل الجزية، والتي بأدائها يُصبِحون من أهل الذمة، فيُأمَنون في أوطانِهم وأموالِهم وديارهم وأهلهم؛ مثل نصارى نجران، ونصارى دومة الجندل.

وفريق رفضوا مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم وجاهروا بمحاربته، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن أرسل السرايا لقتالهم، فكانت أول مواجهة قتالية بين المسلمين والنصارى في مؤتة، ثم عزم النبي صلى الله عليه وسلم على مواجهتِهم في تبوك، لكن الله تعالى لم يُقدِّر قتالاً، ثم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سارت الجيوشُ الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ففتحت كثيرًا من بلاد النصارى، وأخضعتها لسلطان الإسلام، ورفعت عن أهلها تعسُّف الرهبان، وتسلُّط القياصرة، واعترف كثير من المؤرِّخين النصارى بأن المسلمين كانوا أرحم بهم من ساستهم ورهبانهم[[13]](#footnote-13).

وبالرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مشغولاً بردِّ عدوان المشركين - وبخاصة مشركي مكة - على المسلمين، وقد بلغ عداؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم أَوْجَهُ وأشُدَّه بعدما حدث لهم في بدرٍ، وفي الوقت الذي استشعر الكثير ممَّن لم يدخُلوا الإسلام في المدينة المنورة أنه قد فاتَهم كثير من المغنم؛ إذ لم يلحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في بدر، ومن ثَمَّ بادر كثير منهم للخروج في أُحُدٍ، وبالرغم مما وقع للمسلمين في أحد - ولا شك أن (أُحدًا) كانت درسًا عظيمًا للمؤمنين؛ حيث كشفت عن كثير من عيوب الصف المسلم، وكشفت المنافقين، وأظهرتهم للمسلمين - فقد استفاد المسلمون من كل هذه الأحداث لتمتد دعوة الإسلام إلى أطراف أخرى، وقد ظهر تجرُّؤ أهل الكتاب على المسلمين - بعد أُحُدٍ حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - إلى أن وصل بهم الحال أن سبُّوا الله جهارًا نهارًا، وقالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64]، ولذلك تنَزَّلت آيات القرآن لتحاجَّ أهل الكتاب، والنصارى منهم على وجه الخصوص؛ حيث كشفت غزوة أحد عن أول ظهور لهم - وإن كانوا لا يُبْدُون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، ويُضمِرون ما في صدورِهم - ليدخلوا طرفًا في الصراع بين الحق والباطل، فبعد أن كادَتِ المعركةُ تنحَسِرُ بين المسلمين واليهود في أول الأمر داخل المدينة، وبين النبي والمشركين خارجها، بدا أول ظهور لزعماء النصارى وأربابِهم في الصراع - ومن قبلهم اليهود في قُرَيظة وبني قَيْنُقاع وبني النَّضير وخيبرَ، ليظلَّ صراعًا فكريًّا، وإن اتخذ صورا تبعد في أغلبها عن أي احتكاك جسدي اللهم إلا في مؤتة وتبوك، حتى وَادَع كثير منهم النبي صلى الله عليه وسلم وهادنهم، فكان منهم بنو نجران أقبلوا عليه في وفد العام التاسع من الهجرة، وقد بعث معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح.

فعن جابر: أن وفد نجران أتَوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال: ((هو روح الله وكلمته، وعبدالله ورسوله))، قالوا له: هل لك أن نلاعنك أنه ليس كذلك؟ قال: ((وذاك أحب إليكم؟))، قالوا: نعم قال: ((فإذا شئتم))، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وجمع ولده والحسن والحسين، فقال رئيسهم: لا تلاعنوا هذا الرجل، فو الله لئن لاعنتموه ليخسفن أحد الفريقين، فجاؤوا فقالوا: يا أبا القاسم، إنما أراد أن يلاعنك سفهاؤنا، وإنا نحب أن تعفينا قال: قد أعفيتكم، ثم قال: ((إن العذاب قد أظل نجران))[[14]](#footnote-14).

وفي روايةٍ عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يُلاعِناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعَل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنَّا لا نُفلِح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعَث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: ((لأبعثنَّ معكم رجلاً أمينًا حق أمين))، فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ((قم يا أبا عبيدة بن الجراح))، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هذا أمين هذه الأمة))[[15]](#footnote-15).

قال ابن كثير: (إن الأسقفَ أبا الحارث أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه، فأقاموا عنده يسمعون ما ينزل الله عليه، وكتب للأسقف هذا الكتاب ولأساقفة نجران بعده:

((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، للأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوارُ الله ورسوله، لا يُغيَّر أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغيَّر حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبدًا ما أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين)[[16]](#footnote-16).

وبالرغم من هزيمة المسلمين في أُحُدٍ إلا أن النشاط الدعوي للنبي صلى الله عليه وسلم تجلَّى بعد أُحُدٍ، وكذا ازداد حذرُ المسلمين وكثرت استخباراتُهم، وبالرغم من ذلك أُصِيبوا في فاجعتينِ؛ بئر معونة والرَّجيع، من هنا كان دائمًا ولا بد أن يسير النشاطُ الدعوي بالتوازي مع التنظيم العسكري والاستخباراتي للمسلمين؛ بحيث لا ينشغل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالسياسة والعسكرية بما يضر بتليغ الرسالة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في المقام الأول صاحبُ دعوة، قبل أن يكون رئيسَ دولة، ومن ثُمَّ كثرت رسائلُه لملوك الإمبراطوريات وزعماء القبائل المجاورة، وإن كان ذلك بعد أُحُدٍ بفترةٍ ليست بالهيِّنة، بل بعد صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة[[17]](#footnote-17)؛ أي بعد أُحُدٍ بثلاث سنوات، فكان من شأن تقصِّي النبي صلى الله عليه وسلم لأخبار القوم وأهل الكتاب من حوله، ومناقشة أمرهم مع الصحابة، ومدارسته صلى الله عليه وسلم لسورة آل عمران معهم، كل ذلك كان بمثابةِ تمهيدٍ لمخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام، وهو الأمر الذي أسهَم في الوصول إلى ذلك، وكان منهم مَن أجابه دون قتال، فأرسل إليه ثانيةً يُخبِره ماذا عليه أن يفعل كما فعل مع المنذر بن ساوى - وكان قد أقبل في وفد إياس بن عبدالقيس من النصارى[[18]](#footnote-18) - كتب إليه وقال: ((مَن صلَّى صلاتنا، واستقبل قِبْلَتنا، وأكل ذبيحتَنا، فذاكم المسلم، له ذمة الله وذمة الرسول صلى الله عليه وسلم))[[19]](#footnote-19).

كما أرسل برسائله وخطاباته إلي النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وكسرى ملك فارس، والمنذر بن ساوَى حاكم البحرين، وهوذة بن علي صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمر الغسَّاني صاحب دمشق، وجَيْفَر وأخيه عبد ابنَي الجُلَنْدَى ملك عُمَان، شُرَحبيل بن عمرو ملك البصرة[[20]](#footnote-20).

وهكذا كان في نزول سورة آل عمران وحكايتها لأمر عيسى ابن مريم استثارةٌ للقبائل المجاورة من النصارى، ليَفِدُوا على النبي صلى الله عليه وسلم يسألوه ويناقشوه فيما أنزل عليه من أمر عيسى ابن مريم، فكانت السورة بمثابة توجيهِ النشاط الدعوي إليهم لعلهم يهتدون للإسلام، خاصة وقد طال العهد بقريش ولم تزل على حربِها مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى فتحها في آخر عهده المدني وقبيل وفاته.

بَيْدَ أن طائفةً أخرى من أهل الكتاب ظلَّت على حالها من العداوة للمسلمين ولم يسلم المسلمون من أذاهم - بالقول تارة، وبالفعل تارة أخرى - فبالرغم من مُوادعة النبي صلى الله عليه وسلم لهم، وإجابتِه لطلبهم بأن أرسل أبا عُبَيدة بن الجراح إليهم أمينًا.

فعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ابعث لنا رجلاً أمينًا فقال: ((لأبعثن إليكم رجلاً أمينًا حق أمين))، فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجراح[[21]](#footnote-21).

فإنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم شرَّهم، يقول صلى الله عليه وسلم: ((شر قبيلتين في العرب نجران وبنو تغلب))[[22]](#footnote-22).

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: ((أخرِجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب))[[23]](#footnote-23)؛ حيث لم يكفُّوا عن تأليب المنافقين على النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أعدائه عليه، كما لم يكفَّ المنافقون بدورهم عن تأليبهم على المسلمين.

فعن أبي عبيدة قال: آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم: ((أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب))[[24]](#footnote-24).

وقد علم المُلهَم عمر بن الخطاب ذلك، واستشعر غدر بعضهم أو قرب خيانتهم، ومحاولاتهم المضللة لمنع الجزية، بالرغم من أنهم لا يشاركون في الجهاد مع المسلمين، فضاعف عليهم الجزية لأجل ذلك، وليس أدلَّ على ذلك مما أخرجه أبو عُبَيد في كتاب الأموال من طريق السفاح عن النعمان بن زرعة أنه سأل عمر بن الخطاب وكلمه في نصارى بني تغلب، قال: وكان عمر رضي الله عنه قد همَّ أن يأخذ منهم الجزية، فتفرَّقوا في البلاد، فقال النعمان بن زرعة لعمر: يا أمير المؤمنين، إن بني تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية، وليست لهم أموال، إنما هم أصحاب حروث ومواشٍ، قال: فصالحهم عمر رضي الله عنه على أن تضعف عليهم الصدقة واشترط عليهم ألا يُنصِّروا أولادهم[[25]](#footnote-25).

ولَمَّا كان المسلمون يجهلون عقائدهم الفاسدة، ولا يأبَهون بهم ولا لهم اكتفاءً بما نزل عليهم من الكتاب وما معهم من الحكمة يتلقونها من شفاه النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم لَمَّا كانوا أصحابًا لهذه الدعوة، فقد منحهم الله تعالى دورة تثقيفية مكثَّفة لأجل أن يفتحوا أبوابًا للحوار مع أهل الكتاب، وهم على بينة من أمرهم، وكان فضول الصحابة أسبق من أن تنزل آيات القرآن لتحكي لهم عن عقائد النصارى وشريعتهم، بقدر ما يحتاجون لأجل مخاطبتهم وإصلاح ما فسد من أمرهم، فعن جابر بن عبدالله أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضِب، فقال: ((أمُتَهوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيدِه لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتُصدِّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيًّا ما وسِعه إلا أن يتَّبِعني))[[26]](#footnote-26).

الأمر الذي لأجله تنزلت آيات هذه السورة لتُبيِّن للمسلمين ضلال أهل الكتاب في الاعتقاد، وشبهاتهم حول أمر هذا الدين، من خلال حكاية قصة آل عمران وعيسى ابن مريم وأمه، الأمر الذي يجعل الداعية على بينة من أمرهم ليتمكن من هدم حججهم، فضلاً عن أن يكون المسلمون أنفسهم بمنأى عن شبهاتهم وضلالاتهم.

والأمر الثاني بيان كَيْد أهل الكتاب ونفاقهم للذين آمنوا، وتلبيسهم الحق بالباطل، ومكرهم وخداعهم للمسلمين، وموالاتهم لليهود والمنافقين، وذلك حتى لا ينخدع المسلمون فيهم باعتبارهم أهل كتاب، وهم لا يعرفون من كتبهم إلا اسمها بعد أن طالها التحريف والتبديل.

والجدير بالذكر أنه وإن اهتمَّت سورة البقرة بعرض قصص بني إسرائيل وسوء تأدُّبِهم مع أنبيائهم، فإن سورة آل عمران عرَضت لقصص النصارى من أهل الكتاب وضلالهم في عقائدِهم، ولَمَّا كان اليهود معاصرين للنصارى، وهم أكبر يدٍ عون لهم، ومن ثَمَّ عرضت كذلك لهم من باب وحدة المعسكر المضاد للإسلام، ولذلك جاء الخطاب القرآني شاملاً الفريقين بوصفهما (أهل الكتاب)، فأكثرت من ندائهم وذكرهم بهذا الوصف (أهل الكتاب) في اثنَي عشر موضعًا، وهو أدب قرآني في خطاب الذين كفروا حال دعوتهم للإسلام؛ حيث يصفهم بأفضل ما معهم، ولا يصفهم بأقبح ما هم عليه، فتوجهت في خطابها لأهل الكتاب بالرفق واللين المصاحب بالعتاب والتوبيخ.

يتجلى ذلك في قوله سبحانه:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [آل عمران: 70].

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 71].

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 98].

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 99].

في حين أن المشرِكين لَمَّا كانوا محارِبين للنبي صلى الله عليه وسلم، وسلُّوا عليه السيف لم يخاطبهم القرآن في هذه السورة إلا بأسلوب التهديد المباشر كما في قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...} [آل عمران: 12].

من هنا يظهرُ الفارق في الخطاب القرآني للكافر المحارب والذمِّيين، أو المستأمنين من أهل الكتاب، فحتى لو كان أهل الكتاب يُضمِرون عداوةً للذين آمنوا، فإنه لا شك التمييز في المعاملة بينهم على أساس الاستئمان أو الحرب واجب؛ ذلك لاختلاف عداوة أهل الكتاب عن عداوة قريش والقبائل العربية للنبي صلى الله عليه وسلم من المشركين، من ثَمَّ تغير أسلوب الخطاب ليترأف بهم، أملاً في أن يسرع أهل الكتاب إلى مغفرة ربهم وجنته، ولعل ما معهم من كتاب يجعلهم أقرب الناس إلى ذلك من الذين كفروا من عبدة الأوثان، ولذلك فرقت السورة بين نوعين من أهل الكتاب في قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: 113]، فكما أنصفت البقرة بني إسرائيل، ولم تلعنهم على أساس النسب، وإنما أكثرت من ذمهم لفساد اعتقاد أسلافهم، ولأجل تبعية الخلف منهم لأسلافهم دون تعقل، وإنما لعنتهم لقتلهم أنبياءهم وتحريف كتابهم، فإنها كذلك أنصفت أهل الكتاب من النصارى، وبينت أنهم ليسوا جميعًا سواءً، {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: 113].

**قال الطبري:**

(وإنما قيل:"ليسوا سواءً"؛ لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذين ذكرهما الله في قوله: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 110])[[27]](#footnote-27).

بل وذكرت أمانة بعضهم دون بعض، كما في قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران: 75]، ولذلك كان الخطاب لهم هينًا لينًا، لعل الله تعالى يُظهر منهم الإسلام، فينضمُّوا إلى صفوف المرابطين في سبيل الله، مثلما كان الأمر فيما مضى من أنصار عيسى ابن مريم الذين سُمُّوا بالحواريين: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ \* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 52 - 53].

كما ذكَّرتهم والمؤمنين بما كان من أسلافهم الصالحين: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

ولم تقطع الأمل فيهم، وإنما بشرت المؤمنين بأن منهم مَن يبادر للإسلام، ولذلك اختتمت السورة ببيان إيمان الكثير منهم، قال سبحانه: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ...} [آل عمران: 199].

قال الطبري:

(عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أخاكم النجاشي قد مات فصلُّوا عليه))، قالوا: يُصلَّى على رجل ليس بمسلم! قال: فنزلت: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} [آل عمران: 199]"[[28]](#footnote-28).

ولَمَّا كان مجتمع المدينة فيه من المنافقين ما لا يخفى على النبي صلى الله عليه وسلم أمرُهم، ولكنه كان يتستَّر عليهم لأجل ألا تقع فتنة بين المسلمين، ويقولوا إن محمدًا يقتل أصحابه، فإن الله تعالى فضحهم في أكثر من مناسبة، ولعل أكثر المناسبات فضحًا لهم حال الجهاد في سبيل الله، يقول سبحانه: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ...} [آل عمران: 167].

ولم يكن الأمر قاصرًا على المنافقين داخل المدينة المنورة، بل كان كثيرٌ من القبائل يهادن النبي صلى الله عليه وسلم ويكتمُ في قلبه النفاق له، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدِم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعتُه، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: ((لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما رأيت))، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارينِ من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوَّلتهما كذَّابينِ يخرجان بعدي، فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة))[[29]](#footnote-29).

ومن جهة أخرى، فإن سورة البقرة، وإذ تعرَّضت لقصة إبراهيم عليه السلام كقدوة ونموذجا للمسلمين، فإن سورة آل عمران عرضت لقصة آل عمران كنموذج للأسرة المسلمة المرابطة في سبيل الله تعالى، والتي تحمَّلت مسؤولية الخلافة في الأرض، كما تحملها نبي الله إبراهيم وأوصى بها ذريته، وليس أدل على ذلك من نية امرأة عمران أن تَهَبَ ما في بطنها لله تعالى ليكون مجاهدًا في سبيله، في إشارة إلى توريث هذا الدين، وتحمل مسؤولية الخلافة، مثلما دلت على ذلك سورة البقرة في حكايتها لقصة (آدم) عليه السلام، والغاية من خلقه؛ حيث أبت امرأة عمران إلا أن تطبق هذا المنهج على نفسها، وتنذر ما في بطنها ليكون حملها خالصًا لله تعالى بما يحقق معنى الاستخلاف في الأرض، {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: 35، 36].

فلم تلبث الأيام حتى ولدت مريمُ عيسى عليهما السلام، فصار مجاهدًا في سبيل الله، وسوف ينزل آخر الزمان ليجاهد في سبيل الله تعالى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد))[[30]](#footnote-30)، وفي رواية بلفظ: ((لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم...)) الحديث[[31]](#footnote-31).

ويظل المسلمون مرابطين في سبيل الله تعالى ينتظرون نزول المسيح ابن مريم ليتم الله على يدَيْه النصر إن شاء الله، ويظهره على الدين كله بإذن الله، وذات النية كانت مصاحبة لنبي الله تعالى زكريا؛ إذ قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ \* فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 38، 39].

قال الشوكاني: (والسيد: الذي يسود قومه)[[32]](#footnote-32)، ليكون أول المرابطين من قومه وأول المصدِّقين بعيسى ابن مريم، وكان نبيًّا، لكن لم يكن معه من المعجزات مثلما كان مع المسيح عيسى عليه السلام، فلم يسلم من أذى اليهود حتى قتلوه كسائر النبيين من قبله.

ولَمَّا كانت قد عُرضت شبهة لدى بني إسرائيل في أحقيَّتهم في اتباع نبي الله إبراهيم، ورد عليهم القرآن بما يزيل هذه الشبهة عن الأفهام، فإن ذات الشبهة عرَضت كذلك للنصارى، ومن ثَمَّ استطردت آيات من سورة آل عمران في الرد عليهم.

قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67]، فكان القرآن قاطعًا لحُجَّتهم كما قطع حجَّة بني إسرائيل، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في سورة البقرة مخاطبًا أهل الكتاب من بني إسرائيل: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 136]، فهو نظير قوله تعالى في سورة آل عمران مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم ليحاج بها أهل الكتاب من النصارى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 84]؛ ليتضح الفارقُ في توجيه الخطاب الدعوي لكلا الفريقين، فهؤلاء اليهود يعلمون الحق ويكتمونه، ولذلك جاء الأمر لهم لكي يُقرُّوا به على ألسنتهم، بينما النصارى ضلُّوا عن الطريق، فكان على النبي صلى الله عليه وسلم أن يُخبِرهم عن الطريق، وأن الدين واحد، وهو دين الأنبياء من قبله، فكان في إقراره لهم بذلك ما يزيل عنهم شبهة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مبتدعًا لدين يخالف ما كان عليه الأنبياء من قبله.

والمتأمِّل في سورة آل عمران يجدُ أنها لم تذكر أحكامًا منهجية كما فعلت سورة البقرة؛ إذ عالجت إشكاليةَ تأسيس المنهج، وإنما عُنِيَت بتطبيق المنهج وبيان أسباب هزيمةِ المسلمين في أُحُدٍ، وما يستتبع ذلك، وما ترتب عليه من آثار، وعلاج هذه الآثار بما يعيد ترتيب الصف المسلم، وتهيئة الأجواء لعهد جديد بذات الصف الذي هُزِم في أُحُدٍ، لكن بعد أن يستبصر موطن الزلل، ويستغفر الله على ما فات، ولذلك نزل الأمر من الله تعالى بالعفو عنهم وتجديد الثقة فيهم، يقول سبحانه: {وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

فيظل هذا الصف مرابطًا في سبيل الله تعالى؛ حيث لا تزال دماؤهم لم تجفَّ من غزوة (أُحُدٍ)، فيأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد مرة أخرى في حمراء الأسد، {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 172]؛ لتكون التربية عمليةً وسريعة تتناسب مع سرعة الحدث وسخونته.

كما أنه ولئن تميَّزت سورة البقرة بالأسلوب المنهجي في بناء الدولة المسلمة الأولى، فإن سورة آل عمران تميَّزت بالأسلوب العاطفي والتربوي في بناء ذات الدولة المسلمة، ذلك أن المنهج هو الأصل الذي يُقاس عليه، والتطبيق قد يتماشى مع المنهج وقد يختلف عنه، وبالتالي فإن سورة البقرة وإن كانت قد صوَّبت المنهج، فإن سورة آل عمران صوَّبت التطبيق، وكان في غزوة أحد خيرُ شاهدٍ لحاجة المسلمين على تصويب حركتهم وفهمهم، وحاجتهم لإعادة تنظيم صفوفهم وتجديد الثقة فيهم، وتأهيلهم نفسيًّا لأنْ يُجابِهوا الكافرين مرَّات ومرَّات قادمة، فعمِلت السورة على ذلك من خلال تبصير المؤمنين زينة الدنيا، وأسباب هزيمتهم في أحد، ونَهَتْهم عن الربا حتى يتخلصوا من سيطرة أهل الكتاب اقتصاديًّا، وعالجت الآثار النفسية التي ترتبت على هذه المعركة، بقوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: 140]، وعالجت الآثار الاجتماعية والسياسية التي نجمت من هزيمة المسلمين، ومن ثَمَّ تجرؤ الكفار والمنافقين على الله وعليهم، وقولهم (إن الله فقير)، ومن ثَمَّ حديث أنفسهم بمنع دفع الجزية، وانطلاقهم بعد أحد في تحزيب القبائل والأحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى وصل بهم الأمر أن انطلقت القبائل والأحزاب لمحاربته عام 5 هـ في عام الخندق، ولكن الله تعالى منعه منهم، وهو الأمر الذي دعا بعض المنافقين إلى أن يظهروا شيئًا من ولايتهم ومحبتهم لأهل الكتاب والمشركين، ومن ثَمَّ ازداد تزلفهم لهم، وفي المسلمين سمَّاعون لهم، فحذَّرت السورة هؤلاء السمَّاعين من أن يضعف الصف المسلم داخليًّا بموالاتهم للذين كفروا، فنهَتْهم عن ذلك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران: 118].

كذلك ولئن شرعت سورة البقرة في الاستطراد في الأحكام المنهجية لبناء دستور المدينة المنورة والتشريعات الضرورية لحفظ مقاصد الدين الضرورية، فإن سورة آل عمران شرعت في بيان الأحكام التربوية والأصول الاعتقادية لبناء الأمة المسلمة والصف المسلم على حبل الله المتين، وخصَّت بالتربية أهل المعروف وإنكار المنكر، فأسهبت في نصيحتهم ودعوتهم لأن يتميزوا عن الذين كفروا والمنافقين، وأن يعتزوا بإيمانهم، يقول سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: 100].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران: 118].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [آل عمران: 130].

وتتابع وتوالَى أسلوب الحضِّ على الإيمان، في قوله:

{وَاتَّقُوا النَّارَ...}.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...}.

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...}.

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139].

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 142].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [آل عمران: 149].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: 156].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200].

**محاور السورة**

تنقسم إلى ستة محاور، ومقدمة، وخاتمة، وليس ذلك بشرط، وإنما هو ما نلتمسه لمعالجة الموضوع الذي نتناوله من خلال دراسة السورة الكريمة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

**المقدمة: تأصيل مفهوم التوحيد، الآيات من (1 - 6):**

وتناولت ثلاثة أمور رئيسية؛ وهي:

أولاً: تأصيل مفهوم التوحيد بإثبات صفات الكمال للإله (2).

ثانيًا: وحدة المنهج في جميع الرسالات (3 - 4).

ثالثًا: تنزيه الله عن صفات النقص (5 - 6).

**المحور الأول: مفهوم الرباط في سبيل الله وتعدُّد صوره (7 - 32).**

ونتحدث في هذا الأمر عن ثلاثة مطالب:

**المطلب الأول: صور الرباط في سبيل الله (7 - 13):**

أولاً: الرباط على العلم والرسوخ فيه لحفظ الشريعة من أصحاب الأهواء والزائغة قلوبهم (7).

ثانيًا: الرباط في العبادة على بصيرة (8 - 9).

ثالثًا: الرباط على نية الجهاد في سبيل الله و(تهديد الذين كفروا) (10 - 13).

**المطلب الثاني: معوقات الرباط في سبيل الله تعالى، وكيفية علاجها (14 - 17).**

أولاً: متاع الحياة الدنيا يعوق عن الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: المحفزات على الرباط في سبيل الله.

ثالثًا: دوام الصلة بالله.

**المطلب الثالث: منهج المرابطين على كلمة (لا إله إلا الله) (18 - 32).**

أولاً: الشهادة بأن لا إله إلا الله.

ثانيًا: إعلان الإسلام عند المحاجاة.

ثالثًا: الإلحاح في الدعوة حتى دخول الإسلام.

رابعًا: البلاغ عند التولي.

خامسًا: الثبات على الدعوة بالرغم من انقلاب الزائغة قلوبهم على أنبيائهم ومَن تبعهم من الدعاة والمصلحين.

لماذا انقلب أهل الكتاب على أعقابهم رغم دعوات المرابطين؟

سادسًا: الملك والعزة ليسا معيارًا لحسم الصراع أو شرطًا لإقامة الدين، وإن كان لازمًا للتمكين.

سابعًا: الفصل بين المرابطين والزائغة قلوبهم يَحُول دون الانقلاب عليهم.

ثامنًا: اتباع منهج الإسلام عن حب لله هو العاصم من الانقلاب على الأعقاب.

**المحور الثاني: مدارسة لقصة آل عمران كنموذج للمرابطين في سبيل الله من عباد الله المصطفين (33 - 60):**

**المطلب الأول: الاصطفاء شرط لحمل أمانة الدين (33 - 41):**

أولاً: الاصطفاء منهج الحق في التكليف بالأمانة العظمى.

ثانيًا: لتوريث الدين لا بد من التربية والمحاكاة.

ثالثًا: التجرد من حظوظ النفس لأجل نصرة الدين (تجديد نية المرابطين).

رابعًا: الاعتذار لله تعالى.

خامسًا: الاستعاذة بالله من الشيطان.

سادسًا: كفالة المرابطين.

سابعًا: رزق المرابطين.

ثامنًا: ثقة المرابطين بنصر الله

تاسعًا: بشرى المرابطين بحفظ الدين إذا ما استيئسوا بانقطاع الأسباب.

عاشرًا: الذكر أية المرابطين.

**المطلب الثاني: الاصطفاء على الاصطفاء (43 - 44):**

أولاً: الرباط في محراب العبادة أية للاصطفاء والتطهير.

ثانيًا: رباط المجتمع على أعمال الخير والتكافل الاجتماعي.

**المطلب الثالث: أثر المعجزات في تثبيت المؤمنين وكشف أصحاب الأهواء (45 - 60):**

أولاً: معجزة خلق عيسى أمرٌ عقَله الراسخون في العلم وزاغ معه أصحاب الأهواء.

ثانيًا: آيات عيسى تثبت الذين آمنوا ويزيغ معها الذي كفروا.

ثالثًا: تمييز المرابطين على نصرة عيسى ابن مريم من الكافرين.

رابعًا: مكر الكافرين لن يحول دون نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان ليستكمل مسيرة المرابطين والمجاهدين في سبيل الله.

خامسًا: المحكم من خلق عيسى وآدم.

**المحور الثالث: وسائل المرابطين في دعوة أهل الكتاب للإسلام (61 - 99):**

**المطلب الأول: فتح سبل للحوار مع أهل الكتاب (61 - 68):**

أولاً: المباهلة أول سبل الحوار الجدلي مع أهل الكتاب.

ثانيًا: الدعوة لكلمة سواء.

ثالثًا: المحاجاة في إبراهيم.

**المطلب الثاني: فضح محاولات الظالمين من أهل الكتاب الملتوية لإضلال المسلمين (69 - 80):**

أولاً: الانقلاب على الأعقاب.

ثانيًا: سرقة أموال الأميين.

ثالثًا: لَي الألسنة.

رابعًا: تنظيم الربوبية لغير الله.

**المطلب الثالث: التركيز على مفهوم أن الإسلام عقيدة راسخة لم تتبدل (81 - 91):**

أولاً: ميثاق النصرة.

ثانيًا: الإسلام دين جميع الأنبياء.

ثالثًا: الكفر بعد الإيمان.

**المطلب الرابع: التأكيد على أن الإسلام شريعة ناسخة لما سبقها من شرائع (92 - 97):**

أولاً: مرتبة البر تحتاج لتجرد القلب من حب الدنيا.

ثانيًا: حل الطعام.

ثالثًا: اتِّباع ملة إبراهيم.

رابعًا: حج البيت الحرام.

**المطلب الخامس: عتاب أهل الكتاب،و تحذير الذين آمنوا (98 - 99):**

**المحور الرابع: صفات المرابطين وتميزهم عن أصحاب الأهواء والمنقلبين على أعقابهم (100 - 120):**

**المطلب الأول: صفات المرابطين في سبيل الله (100 - 120):**

أولاً: إعلان استقلال إرادة الأمة المسلمة في شؤونها الداخلية.

ثانيًا: الاعتصام الجماعي بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السبيل للنجاة من النار.

ثالثًا: سر وحدة الأمة وقوتها ارتباطها بعاطفة الأخوة في الله.

رابعًا: انتداب هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخرى للتخصص في نشر الدعوة الإسلامية وأعمال الخير.

خامسًا: محاربة أهل الفرقة والاختلاف.

سادسًا: التوسع في أمر الدعوة الإسلامية خارج أقطار الدولة الإسلامية.

سابعًا: الصبر على أذى الفاسقين من أهل الكتاب والاستيقان النصر بمنهج الله

ثامنًا: العلو على الكافرين.

**المطلب الثاني: تميز المرابطين من أهل الكتاب عن الكافرين أصحاب الأهواء (113 - 120):**

أولاً: المرابطون من أهل الكتاب على الإسلام سرًّا (النجاشي).

ثانيًا: فشل الكفار في حشد أموالهم وأولادهم.

ثالثًا: تمييز المرابطين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن المنقلبين على أعقابهم الموالين للكافرين (118 - 120).

**المحور الخامس: التربية العملية للمرابطين في أحد (121 - 188):**

**المطلب الأول: التمهيد للمعركة (121 - 122):**

التجهيز للمعركة.

التحرك للمعركة.

**المطلب الثاني: التوطئة لمدارسة غزوة أحد بالتذكير بالنصر في بدر بالرغم من عدم توافر أسبابه الكونية (121 - 129):**

أول المعركة: الذلة في العدد والعدة.

وسط المعركة: اطمئنان القلب.

الغرض الآني من المعركة: (قطع طرفًا من الذين كفروا).

مقارنة النتيجة في أحد (أثر الهزيمة على النبي صلى الله عليه وسلم وعتاب الله له).

**المطلب الثالث: الأسباب العامة للهزيمة (130 - 138):**

أولاً: شيوع التعامل بالربا بين المسلمين بما يقتل روح الأخوة بين المؤمنين.

ثانيًا: التكاسل عن الطاعات.

ثالثًا: كثرة الذنوب دون محوِها بالتوبة والاستغفار.

**المطلب الرابع: الاستفادة من الهزيمة تربويًّا (139 - 148):**

تداول الأيام سنة كونية.

مرتبة الشهادة اصطفاء واختيار.

مرحلة الابتلاء والتمحيص تسبقان الانتصار.

الحرص على الدنيا تخور معه عزيمة الموت في سبيل الله.

ينكشف المنقلبون عندما يصيب المسلمين مصيبة.

لا يعدم زمان إلا ويثبت المرابطون مع أنبيائهم في أحلك الظروف

**المطلب الخامس: أحداث الغزوة وانقلاب النصر إلى هزيمة (149 - 153):**

أولاً: موالاة المنافقين للكافرين والانقلاب على أعقابهم في أول الغزوة.

ثانيًا: رفع الروح المعنوية (بإرعاب الكافرين).

ثالثًا: الفشل والتنازع في الأمر يقلب النصر إلى هزيمة.

رابعًا: حب الدنيا يصرف القلوب عن الجهاد في سبيل الله.

خامسًا: الفرار من الزحف.

**المطلب السادس: ترتيب الصف الداخلي بعد أحد (154 - 175):**

أولاً: تغيير الحالة النفسية من الهم والغم إلى الأمن والنعاس

ثانيًا: حديث طائفة المنافقين لا يفتُّ في عضد المؤمنين.

ثالثًا: توبة الله على الفارِّين من أُحُد.

رابعًا: التحذير من تبكيت عمل المجاهدين.

خامسًا: ذكر فضل الشهادة في سبيل الله.

سادسًا: اللين مع المخطئين والعفو عنهم والمغفرة لهم وتجديد الثقة فيهم.

سابعًا: التوكل وطلب النصر من الله أهم أسباب النصر.

ثامنًا: درء المفسدة بالنهي عن الغلول.

تاسعًا: اتباع رضوان الله تأهيل معنوي لجماعة المؤمنين.

عاشرًا: دورة فيفقه المصائب.

الحادي عشر: كشف المنافقين.

الثاني عشر: بشرى لمن يقتل في سبيل الله.

الثالث عشر: المرابطون بعد أُحُد في حمراء الأسد.

**المطلب السابع: تماسك الدولة الإسلامية بعد أحد (176 - 183):**

مناقشة موضوع الردة والانقلاب على الإسلام بعد أحد.

تقاعس المنافقين عن أداء الزكاة.

تقاعس أهل الذمة عن أداء الجزية وتجرؤهم على الله.

الفهم بأن دماء الشهداء خير قربان تُقدِّمه الأمة الإسلامية لله وعلامة على أنها تسير على المنهج الحق.

**المطلب الثامن: كلمات ختامية لكل فئة أو طائفة على حِدَةٍ (184 - 188):**

النبي: تكذيب الرسل سنة مطردة، فلا تعجب.

المجاهدون: الموت مرحلة انتقالية للجزاء الأخروي.

المرابطون: الصبر على الابتلاء.

أهل الكتاب: بيِّنوا الكتاب ولا تكتموه.

المنافقون المتخلفون عن الغزو: لا تفرحوا كثيرًا.

**المحور السادس: عبادة المرابطين (189 - 195):**

**المطلب الأول: أحوال المرابطين مع الله تعالى**:

النظر في ملكوت السموات والأرض.

التفكر في خلق السموات والأرض.

ذكر الله على كل حال.

التفكر في الملكوت وفي الآخرة.

الدعاء بخيري الدنيا والآخرة.

**المطلب الثاني: استجابة الله للمرابطين:**

**الخاتمة (196 - 200):**

وفيها تفصيل لمصير ثلاثة أصناف من الناس، وموعظة للمتقين:

أولاً: مصير الكافرين المتقلبين في البلاد.

ثانيًا: مصير الذين اتقوا.

ثالثًا: مصير بعض أهل الكتاب.

رابعًا: موعظة خاتمة للذين آمنوا.

**مقدمة سورة آل عمران:**

ابتدأت السورة بمقدمة من ست آيات، تناولت فيها التوحيد بإجمال، يسبقها الحروف المقطعة (ألف)، (لام)، (ميم)، للتأكيد على أن هذه السورة من السور الإعجازية في القرآن الكريم، وآيات القرآن كلها معجزة، بَيْد أن إعجاز هذه السورة لأجل اسم الله تعالى الأعظم فيها، ليعطيها ميزة خاصة، وذلك على النحو التالي:

**أولاً: تأصيل مفهوم التوحيد بإثبات صفات الكمال للإله:**

تصدرت السورة بكلمة التوحيد (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن: في سورة البقرة، وآل عمران، وطه، فالتمستُها، فوجدت:

في سورة البقرة آية الكرسي {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: 255].

وفي سورة آل عمران: {الم \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 1، 2].

وفي سورة طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: 111][[33]](#footnote-33).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:

{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 163].

وفاتحة آل عمران: {الم \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 1، 2][[34]](#footnote-34).

وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟))، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم))، قال: قلت: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[[35]](#footnote-35).

قال ابن القيم: "وقال لي شيخنا يومًا لهذين الاسمين - وهما الحي القيوم - تأثيرٌ عظيم في حياة القلب، وكان يُشِير إلى أنهما الاسم الأعظم[[36]](#footnote-36)، فإثبات صفة الحياة لله تعالى ينفي ما يزعمه أهل الكتاب من أن الله قد صلب في صورة المسيح عيسى ابن مريم، وإثبات أن له صفةَ القيام يستتبع أن له إرادة نافذة، وهو ما ينفي أن يُصِيبه الضر من هذا الوجه.

قال ابن تيمية: "الحي مستلزم لصفاته وأفعاله، وهو من أعظم البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال، والمصحح لها، والمستلزم ثبوتها ونفي نقيضها"[[37]](#footnote-37).

**ثانيًا: وحدة المنهج في جميع الرسالات:**

قوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [آل عمران: 3، 4].

فالإسلام عقيدةٌ وشريعةٌ، وهو باعتباره عقيدةَ التوحيد أساسَه، وباعتباره شريعةَ الإسلام منهجَه، ومن ثَمَّ عُنِيَت سورة آل عمران في هذا الشأن بتوكيد وحدة الدين، رغم تعدد الرسالات والكتب المنَزَّلة، ويتَّضِح ذلك بتأصيل المفهوم الإيجابي للتوحيد بشقَّيْه:

العقائدي، بإثبات صفات الكمال لله تعالى في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

والتشريعي بالتأكيد على وحدة أصول المنهج في جميع الرسالات، في قوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} [آل عمران: 3، 4].

فبعد أن شرعت السورةُ في وصف القرآن الكريم بالفرقان، باعتباره الذي يفرق بين المتَّبِعين للمنهج الحق والزائغين عنه، وبعد أن كثُر الزائغون عن الحق والمُحرِّفون لِمَا في التوراة والإنجيل من أحكام - أكَّدت أنه سبحانه قد أذِن بنسخ القرآن للكتب السابقة، التي يكاد لم يبقَ منها إلا اسمها، بعد أن طالها التحريف والتبديل، رغم تصديقه لها على سبيل الإجمال لا التفصيل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا})) الآية [[38]](#footnote-38)، الأمر الذي أثار حفيظة الذين كفروا، حاسدين أمر المتَّبِعين لهذا الدين، ومحاولين صدَّهم عن سبيل الله.

وجديرٌ بالتنويهِ أن نعلم أن الكتب السماوية اشتركت في كلمةٍ سواء، دعا الإسلام إليها أهل الكتاب، ألا وهي (لا إله إلا الله)، ومُؤدَّاها أن أصحاب هذه الدعوة هم الذين سيَرثُون الجنة، ولن يدخلوها إلا إذا قدَّموا أرواحهم وأموالهم ثمنًا للجنة، بدليل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 111]، فمَن يبخل بشيء من ذلك، فسوف يطوق به يوم القيامة.

هذا هو مفهوم كلمة (لا إله إلا الله) بإيجاز شديد، وهذا هو مفهوم وصف القرآن بأنه فرقان.

قال ابن تيمية: (لفظ الفرقان يتناول ما يفرق بين الحق والباطل مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء؛ كالحية، واليد البيضاء، وانفلاق البحر، والقرآن فرقان بين هذا الوجه من جهة أنه آية عظيمة لنبوة محمد، وعلم عظيم، وهو أيضًا فرقان باعتبار أنه فرق ببيانه بين الحق والباطل، ولفظ (الفرقان) أيضًا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين، وإهلاك أعدائهم، فإنه فرق به بين أوليائه وأعدائه، وهو أيضًا من الأعلام، قال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال: 41]، والآيات التي يجعلها الله دلالة على صدق الأنبياء هي مما ينزله) [[39]](#footnote-39).

ولَمَّا كان ذلك كذلك، كان من المناسب بعد ذكر الفرقان أن يتهدَّد الله تعالى الذين كفروا بالعذاب الشديد والانتقام، وأن تتصدَّر السورةُ بهذا التهديد للذين كفروا، وهذا يتناسبُ مع الملابسات التي تنَزَّلت في حينها السورة؛ حيث كان الكافرون يعيشون لحظاتٍ من الفرح والزهو، بسبب ما حصل لهم يوم أُحُدٍ، وقد قتَلوا حمزة عمَّ النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن أبا سفيان - وكان يومَها على الشرك - قال: (اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل)، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا تجيبوا له؟))، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: ((قولوا: الله أعلى وأجلُّ))، قال: (إن لنا العزى، ولا عُزَّى لكم)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا تجيبوا له؟))، قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: ((قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم))[[40]](#footnote-40).

فمن اللافت للنظر أن المولى سبحانه فصل بين المفهوم الإيجابي والسلبي للتوحيد بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [آل عمران: 4]، للتأكيد على المنهج الحركي للدعوة الإسلامية، وأنك لن تصل إلى توحيد الله تعالى الكامل إلا بعد الصراع مع الذين كفروا الذين توعدهم القرآن بالعذاب الشديد والانتقام.

**ثالثًا: تنزيه الله عن أي صفات نقص:**

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 5، 6].

يقتضي توحيد الاعتقاد إثبات العلم المطلق لله، والإقرار له بالقدرة المطلقة، ففي قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}، إقرارٌ بالعلم المطلق لله، وليس ذلك فحسب، بل إنه كذلك الذي يصور ما في الأرحام كيف يشاء، إذًا فهو صاحب القدرة المطلقة كذلك.

يقول ابن تيمية: (ومن أعظم الأصول معرفةُ الإنسان بما نعت الله به نفسه منه الصفات الفعلية)، الأمر الذي يدحض شبهةَ أهل الكتاب في شأن عيسى ابن مريم، دون حاجة للاستطراد بعد ذلك في سائر شبهاتهم؛ إذ كيف كان عيسى عليه السلام لا يعلم شيئًا وهو محبوس في بطن أمه في الظلمات الثلاث التي حالت بينه وبين الاتصال بالعالَم الخارجي، ثم بعد ذلك يُدَّعَى له الألوهية من دون الله، فإذا خفِي عليه ذلك، فلا يسوغ أن يكون مستحقًّا لأن يُعبَد، وقد مضت عليه فترةٌ من الزمن لا يعلم فيها شيئًا.

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آل عمران: 6].

قال ابن الجوزي:

(فيه ردٌّ على النصارى؛ لأن عيسى لا يقدِرُ على التصوير، بل كان مصوَّرًا كسائر بني آدم)[[41]](#footnote-41).

وعن سعيد بن جبير قال: (هذا حِجاجٌ على مَن زعم أن عيسى كان ربًّا، كأنه نبَّه بكونه مصوَّرًا في الرحم، على أنه عبدٌ كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله)[[42]](#footnote-42).

من هنا عرضت المقدِّمة بأسلوب بليغ وسريع، وردَّت على أكبر شبهات النصارى في أصول الاعتقاد، لذلك جاء في ختام الآية قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 6].

**المحور الأول**

**مفهوم الرباط في سبيل الله وتعدد صوره**

**الآيات من (7 - 32):**

سطرت الآياتُ السابقة تلاوتها الأصولَ الثلاث التي ينبني عليها الإسلام:

التوحيد في الاعتقاد.

واتباع (الشريعة) كمنهج.

والرباط على ذلك لدفع الباطل ومصارعة الكافرين والزائغين عن الحق.

وهو الأمر الذي يستتبعُ الشروعَ في بيان المحور الأول لهذه السورة، بعد أن أجملت المقدِّمة التوحيد، وأشارت للصراع بين المرابطين عليه والزائغين عنه، ليكون عُنوانُ المحورِ الأول "الرباط على المنهج من حيث مفهومه وتعدد صوره"، سواء تمثَّلت في الرسوخ في العلم لحفظ الشريعة من أصحاب الأهواء الزائغة قلوبُهم عن الحق، أو في الرباط على العبادة، ويتقدمهم الراسخون في العلم، ويشترك معهم الضعفاء وأصحاب الأعذار الذين قصرت طاقتهم عن الجهاد؛ كالمرأة، والطفل، والشيخ الكبير، أو في استصحاب نية الجهاد في سبيل الله، والأصل أن يجمع هؤلاء بين كل صور الرباط في سبيل الله، فضلاً عن ضرورة بيان المُعوِّقات التي تعترض المرابطين وتؤخرهم عن الجهاد في سبيل الله.

الأمر الذي كان لا بد معه من صرف أنظار المرابطين إلى ما يحفزهم للجهاد، فتشرئِبُّ له قلوبُهم، فينصرفون عما يُثبِّطهم - من متاع الدنيا - عن الجهاد في سبيل الله، ويجعلهم يثَّاقلون إلى الأرض، وإنما حملهم إلى ما يُقبِلون به على ما يُقرِّبهم من رضوان الله تعالى يوم القيامة.

ولا يقتصر الأمر على تحفيزهم دون إرشادهم إلى ما يستعينون به على ذلك من دوام الصلة بالله تعالى، ليكونَ حالُهم بين الصبر على البلاء، والصدق في العبادة، والتجرد من متاع الدنيا بالإنفاق في سبيل الله، والتغلب على الراحة والدعة والكسل بالقنوت في الدعاء والاستغفار في الأسحار.

وعليه ترسم السورةُ منهجَ المرابطين على كلمة التوحيد، ليتقدَّمهم قول (لا إله إلا الله)، فتكون شهادتُهم بها وعدمُ كتمانِها هو أولَ صدع بالإسلام وشعائره عند محاجَّة أهل الكتاب لهم، ويظل حالهم الثبات على البلاغ، بالرغم تولي وإعراض الذين كفروا عنهم، وحتى وإن اشتدَّ عليهم الكافرون بالقتل والاضطهاد والانقلاب، فإن دعوتَهم إلى الاحتكام لكتاب الله تعالى تظل قائمة ومستمرة، وإن واجهوها بالرُّعونة في أمر الدين والاستهانة بعذاب الله.

وعليه لا بد وأن يفهم الجميع - وبخاصة في أحلك اللحظات التي يشتد فيها البلاءُ على المؤمنين وينقلب عليهم الكافرون - أن المُلْك والعزة ليسا شرطًا للرباط في سبيل الله، وأن المرابطين يُرابِطون في كل الظروف وأحلكها، وليس منهم مَن يلين أو يَهِيـن أو يضعف، أو أن يخضع للذين كفروا ليوادَّهم أو يواليَهم من دون المؤمنين، وإنما هم أول الناس مسارعةً لحب الله وطاعة الله، وأشدهم متابعةً لرسول الله، ولا ينقلبون على أعقابهم أبدًا، وإنما يُبغِضون مَن يُبغِضه الله ورسوله، وذلك هو عاصمُهم بإذن الله.

**المطلب الأول**

**مفهوم الرباط في سبيل الله من خلال تعدد صوره الثلاث**

الآيات من (7- 13):

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}.

**الصورة الأولى: الرباط على العلم والرسوخ فيه لحفظ الشريعة من أصحاب الأهواء الزائغة قلوبهم:**

فقد أنزل الله تعالى آياتِه المُحكَمات التي ذكر فيها القتال في سبيل الله، تلك التي يُسلِّم بها المؤمنون تسليمًا، ويتقدمهم في ذلك الراسخون في العلم، في حين يبتغي المنافقون تأويلَها ليصرفوها عن مضمونِها، كأن يبتروا الجهاد عن الإسلام ابتغاءَ الفتنة، ودون دليل من كتاب الله تعالى، أو قول لأحد من أهل العلم الراسخين فيه، قال سبحانه: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} [محمد: 20].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...}، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فإذا رأيت الذين يتَّبِعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَّى الله، فاحذروهم))[[43]](#footnote-43).

قال الطبري: قيل: إن هذه الآية نزلت في الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى، وقيل في أمر مدة هذه الأمة، والثاني أولى[[44]](#footnote-44).

وعندي أن دلالة الآية من الوسع بحيث تستوعب المعنيِّينِ.

قال ابن القيم:

(على المفتي ألا يتأوَّل النصوص تأويلاً فاسدًا إذا سئل عن تفسيرِ آيةٍ من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس له أن يُخرِجَها عن ظاهرِها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه، ومَن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه، وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرَّح به أئمة الإسلام قديمًا وحديثًا)[[45]](#footnote-45).

قال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية:

"ذهب أئمة السلف إلى الانكفافِ عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأيًا، وندين الله به، اتباعُ سلف الأمة، وقد درج صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرُّض بمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، وكانوا لا يألون جهدًا في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغًا أو محبوبًا لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعًا بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنَزُّه الباري عن صفات المُحدَثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب تعالى[[46]](#footnote-46).

قال ابن القيم الجوزية:

(إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبهة بعددِ أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًّا؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة)[[47]](#footnote-47).

وقال الصلابي:

(لا بد من التفريق بين العلماء والمفكِّرين والمثقفين، إن مفكري الأمة لهم مكانتهم، وبعضهم قد نفع الله عز وجل بهم نفعًا كبيرًا، ولكنهم مع ذلك لن يُغْنوا عن العلماء شيئًا إلا في حدود علمهم وقدراتهم، كما أن المثقفين، وهم فئةٌ من الأخيار الصالحين ذوي تخصصات علمية برزوا فيها، سواء في العلوم التجريبية مثل الطب والهندسة والكيمياء، أو في العلوم المسماة بالعلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع، فهؤلاء وإن حُمِد لهم تخصصهم في مثل هذه العلوم فصاروا مرجعًا فيها، فإنهم غير مختصين في العلوم الشرعية، وهم في الاصطلاح العلمي الشرعي جمهور المسلمين وعوامُّهم الذين يجب أن يكونوا وراء العلماء، ويجب أن يرجعوا العلماء في أمور الشريعة، ويكونوا عونًا لهم في شرح واقع تخصصاتهم، فالطبيب يشرح الأمور الطبِّية، والاقتصادي يشرح الجوانب الاقتصادية، وهكذا.

إن كلام هؤلاء المفكرين والمثقفين يجب أن يكون محكومًا بالشرع، أما إذا بنى هؤلاء المثقَّفون والمفكرون كلامهم في أمور الشريعة، وأحوال الأمة العامة، على أساس من العقول والأهواء، وإطلاق القول بالمصالح دون نظر في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء الراسخين، فإنهم بذلك يكونون أشبه بأهل الكلام)[[48]](#footnote-48).

وقد أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار (أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، وإنما العلماء أهل الأثر والفقه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والفهم)[[49]](#footnote-49).

قال ابن كثير:

(إن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا، حين قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حُنَين، فكأنهم رأَوا في عقولهم الفاسدةِ أنه لم يعدِل في القسمة، ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الخُوَيْصِرة -: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل، أيأمنُني على أهل الأرض ولا تأمنوني))[[50]](#footnote-50).

ثم أدبر الرجل فاستأذن رجل من القوم في قتله - يرون أنه خالد بن الوليد - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن من ضئضئ هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان، يمرُقون من الإسلام كما يمرُقُ السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد))[[51]](#footnote-51).

قال العلماء:

(وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت، فأزاغه القلب إمالته، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال)[[52]](#footnote-52).

قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: 5].

قال ابن حجر:

"في ختم الآية {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7] تعريضٌ بالزائغين، ومدح للراسخين؛ يعني من لم يتذكر ويتَّعِظ ويخالف هواه، فليس من أولي العقول، ومن ثَمَّ قال الراسخون: ربنا لا تزغ قلوبنا إلى آخر الآية، فخضعوا لباريهم لاشتراك العلم اللدني بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني"[[53]](#footnote-53).

**الصورة الثانية: الرباط في العبادة على بصيرة (8 - 9):**

تؤكِّد السورة أن منهج الدعوة الذي اتَّبعه الرسل لا يتغير ولا يتبدل، ويقوم على ثلاث ركائز أساسية:

\* فلا بد فيه - أولاً - من الرسوخ في العلم بالكتاب والرباط على طلب العلم في سبيل الله، لغلق كل منفذ لأصحاب الأهواء ومتَّبِعي الشبهات، ولحفظ هذا الدين من أي تحريفٍ أو تبديل أو تأويل بغير علم.

\* ولا بد فيه - كذلك - من الرباط على الدعاء في المحراب، باعتبار أن العبادة والعلم يتعاضدان لتكوين شخصية المسلم الذي يحمل أمانة هذا الدين، وقد أكثر القرآن من وصف العلماء بما هو عليه حالهم من العبادة، كما في قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: 79]، فالعالم الرباني هو الدائم الصلة بالله تعالى مع اجتهاده في طلب العلم ودراسته، فإذا كان هذا هو منهجَ النبي صلى الله عليه وسلم، فأولى بأن يكون منهجنا، فعن شَهْر بن حَوْشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قالت: فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك ((يا مقلب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك))، قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ))، فتلا معاذٌ: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: 8][[54]](#footnote-54).

وعن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثِر أن يقول: ((اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك))[[55]](#footnote-55).

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك - لا إله إلا أنت - أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون))[[56]](#footnote-56).

قال الرازي: "واعلم أن هذا الدعاء من بقية كلام الراسخين في العلم؛ وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصَّهم بالهداية والرحمة، فكأنهم قالوا: ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا، فإنها منقضية منقرضة، وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة، فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامعُ الناسِ للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أن وعدَك لا يكون خلفًا، وكلامك لا يكون كذبًا، فمَن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومَن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة، وجعلته من المؤمنين بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد، فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة"[[57]](#footnote-57).

**الصورة الثالثة: الرباط على نية الجهاد في سبيل الله، و(تهديد الذين كفروا) (10 - 13):**

فضلاً عما تقدَّم لا بد - كذلك - من الإعداد للجهاد، وتهديد الكافرين الصادين عن سبيل الله، وبث الرعب في قلوبهم للذود عن هذا الدين، وإحباط محاولاتهم الفاشلة في حشد أهلهم وأموالهم ضد المسلمين، فكان من المناسب أن تشير السورةُ إلى أن الصراع الذي ظهر بين أهل الحق والباطل، وإن ظهر اليوم في غزوة أُحُد، فإنه كذلك قد ظهر في الماضي في عهد فرعون ومَن قبله، وسوف يظهر غدًا وبعد غد، وإن دأبوا جميعًا على حشد أموالهم وأولادهم لمحاربة المسلمين والصد عن سبيل الله.

فالذين كفروا يجمعون أموالهم وأولادهم ليؤذوا الذين آمنوا، والله تعالى يُبشِّر الذين آمنوا بأن ما يجمعه الذين كفروا لن ينفعَهم، ولن يغنيهم، سواء في الدنيا ولا في الآخرة، ففي الآخرة أمره معروف.

وهو ما قاله الرازي؛ إذ قال:

(المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور التي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبيَّن الله تعالى أن صفةَ ذلك اليوم مخالفةٌ لصفة الدنيا؛ لأن أقرب الطرق إلى دفع المضارِّ إذا لم يتأتَّ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذر أولى)[[58]](#footnote-58).

وأما في الدنيا، فالتاريخ خير شاهد على ذلك، فلم يجمع أحد من البشر جندًا وأموالاً وسلطانًا كما جمع فرعون وآله، وكان من قبلهم قوم عاد وثمود ومَن على شاكلتهم، فقد أتعبوا أنفسهم في الحشد لموسى والمستضعفين معه من المؤمنين، ودأبوا على العمل في محاربة الإسلام والمسلمين، وكانوا يواصلون الليل والنهار للقضاء على موسى وأتباعه، فلما كذَّبوا بآيات الله أخذهم الله بذنوبهم، إذًا المسألة بسيطة وواضحة، فإذا اجتمع الكفر وحشدوا ضد الإسلام، فإن النتيجة المحتمة هي الهزيمة الساحقة، وسوف يكونون آية لمن خلفهم وعبرة لمن يعتبر.

ولذلك تُؤكِّد السورة على أنه رغم هزيمة المسلمين في أُحُد، فإن الكافرين سوف يُغلَبون بعد ذلك، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12]، لا لشيء إلا لأن المسلمين مرابطون في سبيل الله، فالرباط في سبيل الله تعالى هو أحد صور الجهاد والاستعداد له وقت السلم؛ بحيث يظل المرابط متأهبًا للجهاد في سبيل الله، متخففًا من الدنيا، غير منشغل بها، ويتحين الفرصة لأن ينادي المنادي: حي على الجهاد، وليس المرابط هو المثقل بالديون، أو المشغول بالتجارات - وإن كانت من فضل الله تعالى، وأحلَّها الله للمؤمنين، وجعلها من الطيبات - ولا المتعسر بالنساء والزوجات والأولاد، فكل ذلك يثقل حركة المجاهد، فلا يقدر إلا أن يأتي أهله، أو يعمر داره، ويستطيب ثمار زرعه، تاركًا وراءه ثوابًا عظيمًا خصَّه الله تعالى لعباده المرابطين.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها))[[59]](#footnote-59).

فالرباط هو مراقبة العدو في الثغور المتاخِمة لبلاده؛ أي: ملازمة المحل الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين[[60]](#footnote-60).

قال القرطبي: هو الإقامة في ثغر من ثغور الإسلام حارسًا له من العدو، وإن مات[[61]](#footnote-61).

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث به نفسه مات على شعبة من نفاق))[[62]](#footnote-62).

والمراد أن مَن فعل هذا، فقد أشبه المنافقين المتخلِّفين عن الجهاد في هذا الوصف وإن لم يكن كافرًا[[63]](#footnote-63)، فكان من الواجب أن يستصحب المسلم نية الجهاد، وذلك ظاهر في قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ}، فالنبي صلى الله عليه وسلم ومَن تبِعه مُطالَبون بأن يُظهِروا نيَّتهم للذين كفروا، ويُعلِنوا لهم أنهم سوف يقاتلونهم ويغلبونهم بإذن الله، وهي نية مُعلَنة لا لكل الكافرين، وإنما لمن زاغت أبصارهم عن العهد مع المسلمين، ولمن انقلبوا على أعقابهم فودُّوا الكافرين من دون المؤمنين.

قال الشعراوي:

"إنه بلاغ إلى كفار قريش، والغلب سيكون في الدنيا، والحشر يكون في الآخرة، فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآني {سَتُغْلَبُونَ}، فمتى قالها رسول الله؟

لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم، ولا يقدرون على شيء، كل مؤمن يحيا في كنف آخر، أو يهاجر إلى مكان بعيد، فهل يمكن أن يأتي هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب؟

لقد قالها الرسول مبلغًا عن الله، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة، وما دام قد قالها، فهي حجَّة عليه؛ لأن مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها {قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ}"[[64]](#footnote-64).

وفي قوله تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} [آل عمران: 13]، تذكير لكفار أُحُد ببدرٍ، وتذكير للمؤمنين الخارجين من أُحُد بالهزيمة بفضل الله عليهم في بدر، وما أجمل الاحتباك في الآية[[65]](#footnote-65)، حينما تذكر صفة الفئة المؤمنة بأنها تقاتل في سبيل الله، ولكن يحذف وصفها بأنها مؤمنة اكتفاءً بذكر أنها تقاتل في سبيل الله؛ أي: يحذف وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله بأنها مؤمنة، ثم - كذلك - تحذف صفة الفئة الكافرة بأنها تقاتل في سبيل الشيطان، ويثبت وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الشيطان بأنها كافرة، للدلالة على أن علامة الفئة المؤمنة أنها تُقاتِل في سبيل الله، فتلك هي علامتها ورايتها، وكذلك يكون الكفرُ هو علامة الفئة التي تقاتل في سبيل الشيطان، فلا تزيغ الأفئدة المؤمنة عن أي فئة ينصرون أو إلى أي جهة يميلون ويتحزبون.

ولا شك أن الصراع القائم بين أهل الحق والباطل، وإن كان سببه عند المسلمين عقائدي؛ حيث يستشعر المسلمون خطر الكافرين على الإسلام، فيرونهم وكأنهم مِثْلاهم وكأنهم قد أوشكوا أن يغلقوا عليهم أفواههم من نَهم الافتراس، فيشتد حذرهم وتزيد طاقتهم ويتضاعف جهدهم - إلا أنه في حقيقته عند الكافرين ليس كذلك، فهم لا يهتمون إلا بالدنيا التي زينها الله لهم، فكل ما يصرفهم عن الدنيا يضعف عزمهم، ويوهن قواهم، فلا ينشغلون بالقتال إلا إذا رأَوْا مغنمًا، أما إذا رأوا مأثمًا خافوا على أنفسهم وأموالهم.

قال الطبري: "قال أبو جعفر: اختلفت القراءةُ في قراءة ذلك، فقرأته قرأةُ أهل المدينة: {تَرَوْنَهُمْ} بالتاء، بمعنى: قد كان لكم - أيها اليهود - آيةٌ في فئتين التقتا؛ فئة تقاتل في سبيل الله، والأخرى كافرةٌ، ترونَ المشركين مِثْلي المسلمين رأىَ العين، يريد بذلك عِظَتهم، يقول: إن لكم عبرةً، أيها اليهود، فيما رأيتم من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين، وظفر هؤلاء مع قلة عددهم، بهؤلاء مع كثرة عددهم)[[66]](#footnote-66).

ولا شك أن الشؤون المعنوية للجند لا بد وأن تعلوَ حتى يتم اللهُ تعالى النصر على أيديهم، وقد مهَّد الله عز وجل لهذه المعركة بتهوين عدد المعسكرين لكلاهما، بحيث يرى الكفَّارُ المسلمين قلة، ويرى المسلمون الكافرين قلة، لقوله تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الأنفال: 44]، وذلك في أول التقاء للفريقين، وذلك حتى يتقاربا ويوشكا على القتال، فلما قضى الله أمره وتراءيا وأوشكا على القتال، هنا لا بد للمسلمين لكي يُقدِموا على قتال الكفار أن يستعينوا بالله تعالى، ويأخذوا بالأسباب الشرعية، ويطرحوا أرضًا كلَّ سبب غير شرعي وإن كان منطقيًّا، والمعنى أن الله تعالى خفف عنهم نصاب القتال إلى الضعف، لقوله تعالى: {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 66]، فإذا تحقَّق ذلك فلا يجوز للمسلمين أن ينسَحبوا ويتركوا القتال، وإنما يجب عليهم أن يقدموا على عدوهم أخذًا بالأسباب الشرعية مع التوكل على الله.

والنصاب الشرعي للقتال عزيمةً هو عشرة أضعاف، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الأنفال: 65]، والمعنى أنه لا يجوز للمسلمين أن يبدؤوا الكفار بالقتال - إلا اضطرارًا - إذا كانوا يفوقونهم أكثر من عشرة أضعاف؛ لأن في ذلك تعريضًا للصف المسلم إلى المهلكة، وقد بيَّن الشارع سبحانه حدودَ التكاليف الشرعية في أمر القتال، فإذا لم يتعدَّوا هذا النصاب، فإن قتال المسلمين للكافرين المحاربين جائز عزيمة، وإن لم يزد على الضعف فهو واجب، وعليه، فإن رؤية المسلمين الكافرين مثلَيْهم؛ تعني تحقق الاستطاعة الشرعية للبَدْء بقتالهم، وهو ما يتماشى مع تقليلِ الله تعالى أعداد الكافرين في أعين المسلمين، فكما أخبرتِ الرواياتُ أن أعداد الكافرين كانت تفوق المسلمين لأكثر من الضعف إلى ثلاث أو أربع أضعاف، فعن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر، وبدر بئر، فسبقنا المشركون إليها فوجدنا فيها رجلين منهم؛ رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي مُعَيْط، فأما القرشي، فانفلت، وأما مولى عقبة، فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذ قال ذلك ضربوه حتى انتهَوْا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: ((كم القوم؟))، قال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبره كم هم، فأبى، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم سأله كم ينحرون من الجزر فقال عشرًا كل يوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((القوم ألف، كل جزورٍ لمائة))[[67]](#footnote-67).

لكن تقليلها ليصل إلى الضعف يزيد من همة المسلمين، وإن قلَّت عن ذلك فالهمة تعلو أكثر وأكثر، والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للكافرين حينما يرون المسلمين أضعافهم، حينئذٍ تهن عزيمتهم وتخور قواهم، وذلك حينما يؤيد الله تعالى المؤمنين بالملائكة، يقول سبحانه: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 48]، وعليه كان على العلماء أولي الأبصار عبءُ اتخاذ القرار:

متى يقدمون على مواجهة عدوِّ الله؟

ومتى يفتون بعدم جواز ذلك؟

ومتى يجب عليهم الثبات؟

وهكذا يكون أولو الأبصار - الذين وصفهم الله من قبلُ بالراسخين في العلم - أصحاب القرار في الأمور العسكرية بعدما يبيِّن لهم الجند الأمور وكأنهم يرونها رأي العين؛ حيث يقتصر دور الجند على كشف الحقائق، ويتخذ أولو الأبصار القرارات المصيرية في ضوء ما تقدم.

**المطلب الثاني**

**مُعوِّقات الرباط في سبيل الله تعالى، وكيفية علاجها**

الآيات من (14- 17): {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ... وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}.

الإنسان مجبول على حب أصناف ستة، بمقتضى الطبع والفطرة، ولا أثر لإيمان الفرد في هذا الحب، إلا أن يتمكن الحب منه فيُنْسِيَه أو يشغلَه عن عبادة ربه، أو أن يتغلب على حبه لهذه الأصناف فيطوِّعها لما يرضاه الله تعالى.

يقول الشيخ الشعراوي: "الموضع الذي تأتي فيه هذه الآية الكريمة هو موقع ذكر المعركة الإسلامية التي جعلها الله آية مستمرة دائمة، لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع، والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحي بكثير من ماله في تسليح نفسه، وتسليح غيره أيضًا" [[68]](#footnote-68).

والمولى سبحانه وتعالى يعالج هذه القضية بلفت الانتباه، وشغل الذهن، وشحذ الهمم بما هو أهم من الانشغال بهذه الأعراض الستة، فيقول: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ} [آل عمران: 15]، فالإنسان ينشغل بهذه الشهوات عندما لا يجد لنفسه منشغلاً بغيرها، فإذا انشغل بغيرها عنها نجح في الإفلات من هذه المصيدة، وأصحاب الدعوات ليسوا كسائر البشر في التمتُّع بمتاع الحياة الدنيا، فهؤلاء يرابطون النية - ليلَ نهارَ - في سبيل الله تعالى، ليتحوَّل تمتعهم بهذه الأصناف الستة إلى تمتع لأجل طاعة الله، لا لأجل إشباع الشهوات ولا لأجل التلذُّذ وحسب، وهذا هو مفرق الطريق بين المرابطين والمنقلبين والزائغة قلوبهم، ولتوضيح ذلك لا بد من الحديث عن كل قسم منها باستقلال.

**الفتنة الأولى: النساء:** فهن أفضل ما يأنس به الرجال من متاع الدنيا فيحظون بهن، وهن لهم سكن، يقول سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم: 21]، ورغم أن العَلاقة التمتعية متبادلة بين الرجل والأنثى، وقد أشار القرآن لذلك بقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: 187]، ورغم أن الودَّ موصول بينهما، وهو ظاهر في قوله تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: 21]، فإن الآية التي نحن بصددِها أشارت إلى النساء دون الرجال، الأمر الذي يعني أن النساء فتنة للرجال، والأمر بعكس ذلك بالنسبة للنساء، فليس الرجال لهن بفتنة، فهل يعزى ذلك؛ لأن المرأة هي الطرف الأضعف فتُشتَهى وتُراوَد عن نفسها باعتبارها محلاًّ للاشتهاء؟

أما الرجل، فهو الطرف الأقوى، فلا يُشتهى لذاته، وإنما يشتهى لما معه من مال أو سلطان أو قوة؟

ربما فهذا محتمل، وهو ما قاله ابن عاشور: (ولم يذكر الرجال؛ لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، وإنما تحصل المحبة منهن للرجال بالإلف والإحسان)، بَيْد أنه بالرجوع للسياق يتبيَّن أن هذه الأصناف الستة ذكرت في معرض القتال في سبيل الله، في إشارة قرآنية إلى أن النساء أحد المُعوِّقات عن الرباط في سبيل الله، فكان في عدم ذكر الرجال تحديدًا للمقصود وعناية بالغرض الأصلي من السورة، نظير ذلك قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

كما يجدر التنويه إلى أن نية الجهاد تتداخل مع نية نكاح النساء كثيرًا، وليس آكدَ على ذلك من قولِه صلى الله عليه وسلم: ((فمن كانت هجرته لِدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

ولذلك فإن المرابط بنيته في سبيل الله يحتاج دائمًا إلى تذكير، لا ليترك الجهاد خوفًا من فتنة بني الأصفر كالمنافقين، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: 49]، ولا أن يقبل على الجهاد بنية نكاحِهن أو التمتع بهن إذا ما غنم إحداهن.

ومن التذكرة تذكيره بأن الله تعالى أباح التمتع بالنساء بالزواج الشرعي لأجل تذكر نعمة الآخرة من جهة، ومن جهة أخرى لأجل بناء الأسرة المسلمة، فمن غفل عن هاتين النيَّتينِ سقط في فتنة النساء وانشغل بهن عن الجهاد في سبيل الله، ولا غبار عليه أن يضيف إلى ذلك نية ثالثة ألا وهي العفة، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((وفي بُضْع أحدكم صدقة))، قيل: في شهوته صدقة؟ قال: ((لو وضعها في الحرام أليس كان عليه وزر، فكذلك إن وضعها في الحلال كان له أجر))[[69]](#footnote-69).

إذًا فالاشتهاء في ذاته مباح، لكن إذا خرج عن دائرة مقصده، وشغل المرء بالنكاح عن طاعة ربه، وبخاصة عن مدافعة الباطل والانتصار لأهل الحق، هنا ينقلب المباح إلى حرام، يقول المولى سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: 14].

**ثانيا: البنين:** حُبِّب للناس البنون؛ لأنهم سبب للعزوة والنصرة، ولذلك فُضِّل البنون عن النساء في الإنجاب، وإن كان في إنجاب البنات مصالح شرعية ترتجى، بَيْدَ أن في إنجاب البنين زيادة في قوة العشرة والعشيرة، ودعم لنصرة الرجل، وبخاصة عند الهرم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: 9]، وقد أشار القرآن إلى عدم المماثلة بين الذكر والأنثى، فقال سبحانه: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} [آل عمران: 36]، تعليقًا على قولها: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} [آل عمران: 36]، وإن كانت المفاضلة بينهما نسبية[[70]](#footnote-70)؛ لأن للبنين ميزةً عن النساء في تحمل أعباء الدعوة والجهاد، وللبنات ميزة عن الرجال في تربية أبنائهن على الإسلام وتكثير النسل، بَيْدَ أنه في مجال العوائق يكون الشغل بالبنين عن البنات أكثر لكثرة خلطة البنين بالمجاهدين، سواء داخل البيت أو خارجه.

**ثالثًا: المال:** وهو ما نسميه في علم الاقتصاد بالسيولة (Liquidity)، وهو المقصود بالآية؛ لأن الذهب والفضة نقدان، وهما وسيطان للتبادل بين السلع والمنافع، فبالذهب والفضة يمكن الشراء مباشرة، بخلاف سائر الأموال كالعقارات، فلا تصلح نقدًا لصعوبة تداولها كما يتداول النقد بين الناس، وإنما لا بد من تصييرِها نقدًا ثم الشراء بالنقد لا بها، وما يحدث من توريقٍ للعقارات عن طريق ما يسمى بالرهن العقاري، وهو ما يحتاج إلى ضمان على الضمان حتى لا تتعدَّى قيمة الديون المرهونة قيمة الأصول العقارية التي ترتفع وتنخفض وَفْقًا للظروف الاقتصادية والسياسية بالبلاد، ومن ثَمَّ كان الذهب والفِضة أفضل الأموال عند الناس لأجل سرعة تداولهما وثباتهما النسبي في القيمة عند الناس، والناس يحبون ويشتهون الذهب والفضة لأجل ضمان توفير قوة شرائية للمرء في الوقت الذي يريد، وكذا لأجل الاكتناز طويل الأمد، فهما يحقِّقان للمرء قدرة على الامتلاك في حدود ما يكتَنِزه من نقد.

والسؤال الذي يطرح نفسه:

**هل عدمت الفاعلية الشرائية للذهب والفضة عما كانا عليه في الماضي؟**

حيث ارتبط النقد بالذهب عبر الأزمان وعلى مدار التاريخ، وذلك بصرف النظر عن النظام النقدي الذي تتبعه الدولة[[71]](#footnote-71)؛ ذلك أن العملة الورقية أو النقدية ليست لها قيمة بذاتها، ولا تصلح كوسيط للتبادل دون النظر إلى ما تُمثِّله تلك العملة من أدوات لها قيمة ذاتية لدى الأفراد، لذا دأبت الدول على وضع ما يسمى بالغطاء النقدي باعتبار أن قيمة العملة تتمثل في قيمة الغطاء النقدي الذي ترتبط به[[72]](#footnote-72).

ولا شك أن قابلية صرف تلك العملة بهذا الغطاء في أي وقت، ومهما تقلبت الأسعار يؤكد ويجدد الثقة فيها، لذا فإنه بتكرار انهيار النظم النقدية على مستوى العالم، وتصدير أزمة النقود إلى مختلف بقاع العالم، أضحى على الدولة عبء الربط بين عملتها الوطنية وقوة نظامها الاقتصادي[[73]](#footnote-73).

ويُعزَى أهمية الذهب كغطاء للنقد في الفكر الإسلامي [[74]](#footnote-74)إلى أنه كان وما زال مخزونًا للقيمة على مر العصور، فالنظام الإسلامي يقر بأن الذهب هو آلة الاكتناز في الأرض، لذا يقول الحق سبحانه: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} [التوبة: 34]، وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((زُوِيَت لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأُعطِيت الكنزين الأصفر (أو الأحمر) والأبيض))؛ يعني الذهب والفضة[[75]](#footnote-75).

وهذه وإن كانت هي الحقيقة في الماضي، فإنها كذلك الحقيقة في الحاضر والمستقبل؛ حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يوشك الفرات أن يحسر عن كنزٍ من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا))[[76]](#footnote-76).

ففي الحديث إشارة إلى الغيبيات المستقبلية التي يعتقدها كل مسلم ويتفق أهل السنة على الإيمان بها لصحة النقل من الدليل، فالحديث يشير إلى أن الذهب سيظل مخزنًا للقيمة لمحاولة الناس اكتنازه.

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو)) [[77]](#footnote-77).

ويعتمد النظام النقدي الحالي على تنويع سلة العملات الأجنبية التي تُكوِّن غطاء العملة الوطنية، الذي لم يعد قاصرًا على الدولار والذهب، غير أن الذهب لا يزال بمثابة الغطاء الآمن لتلك العملات جميعها، ذلك أن الذهب معدنٌ نفيس يكتسب قوَّته من نفسه، أما سائر العملات الأخرى فتكتسب قوتها من قوة الدولة، وما لها من حضور اقتصادي... إلخ.

ولاشك أن ما يكتسب قوته بنفسه أعظم متانة وأكثر أمنًا من عملة ورقية تكتسب قوتها بواسطة غيرها، ولهذه الأهمية رأى (Alan Greenspan) - مدير البنك المركزي الأمريكي الأسبق - أنه لا يمكن حماية الأوراق النقدية إلا بربطها بالذهب؛ حيث قال: "لا توجد طريقة لحماية المدَّخرات من المصادرة عن طريق التضخم في ظل غياب نظام الربط بالذهب SYSTEM LINK GOLD VALUE[[78]](#footnote-78)؛ إذ لا يوجد مستودع أمين للثورة غيره[[79]](#footnote-79).

والسعي وراء اكتناز الذهب والفضة، سواء في صورته الحقيقة كزينة المرأة ولأجل نكاحها، أو في صورة العملات النقدية التي يمثل الذهب غطاءها الآمن - هو غرضٌ مشروع متى كان لأجل تحقيق أهداف مشروعة، فإذا خرج عن هذه الأهداف المشروعة فليس بمستحبٍّ، بل وقد يدخل دائرة التحريم، فعن عبدالرحمن بن عوف أنه جاء وعليه أثر صفرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تزوجت؟))، قال: نعم، قال: ((ومن؟))، قال: امرأة من الأنصار، قال: ((كم سقت؟))، قال: زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَوْلِم ولو بشاة))[[80]](#footnote-80).

قال الخطابي: النواة اسم لقدر معروف عندهم فسَّروها بخمسة دراهم من ذهب قال القاضي كذا فسرها أكثر العلماء.

وقال أحمد بن حنبل: هي ثلاثة دراهم وثلث[[81]](#footnote-81).

قال العلماء: (والمقصود بالنواة مقدار قليل من الذهب، إشارة إلى قلة المه،ر وأنه قليل وليس بكثير، وهو ما يستفاد منه أن المغالاة في المهور غير سائغة، لما يترتب عليها من العراقيل التي تؤخر الزواج وتُعرِّض الشباب والشابات للفتن بسبب عدم حصول الزواج، والتيسير في الزواج وتسهيل أموره، وعدم المغالاة، وتزويج الكفء إذا جاء ولو لم يكن عنده مهر كبير هو المطلوب وهو الذي ينبغي، ولا حد لأقل المهر ولا حد لأكثره، ولكن المغالاة والإتيان بالأشياء التي تكون سببًا في تأخير الزواج لا تنبغي ولا تصلح)[[82]](#footnote-82).

وعن أم حبيبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وهي بأرض الحبشة زوجها النجاشي وأمهرها أربعة آلاف وجهزها من عنده وبعث بها مع شرحبيل ابن حسنة ولم يبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وكان مهر نسائه أربع مائة درهم [[83]](#footnote-83)، وسبق أن مر بنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ما أصدق أحداً من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من خمسمائة درهم، وسبق - أيضًا - أن النجاشي أصدق أم حبيبة أربعة آلاف درهم، وعرفنا فيما مضى أن هذا إنما هو من النجاشي إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم [[84]](#footnote-84).

**رابعًا: النقل السريع** وهو ما يرمز إليه بـ(الخيل المسومة): وذلك من متاع الحياة الدنيا، فالمركب من أهم وسائل الانتقال، وسهولة الانتقال كناية عن رفاهية المسكن، ذلك أن المسكن أولى من المركب، فإذا كان المركب هانئًا، ففي ذلك إشارة إلى وسع المسكن، وهذا المتاع من الدنيا من أسباب السعادة الظاهرة فيها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق))[[85]](#footnote-85).

ووصفِها بالمسومة صادف وصف الملائكة المقاتلة مع المسلمين في بدر بالمسوَّمة كذلك، وذلك في قوله تعالى: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: 125].

الأمر الذي يفهم منه أن زينة الخيل لا تتمثل في كونها وسيلة للتنقل السريع فحسب، وإنما هي آلة للحرب - كذلك - ولا شك أن الحروب تحتاج من سرعات فائقة للتغلب على العدو، فيشمل ذلك كل ما من جنسها مثل المراكب الحديثة والمدرعات المقاتلة والطائرات... إلخ، فهي كناية عن الآلة العسكرية وقوة العدَّة، وكان ذكر الخيل باعتبارها أقل الآلات العسكرية وأسهلها حيازة، وذلك كله من متاع الحياة الدنيا، بل إن تجارة المقاتلات المسلحة كالطائرات العسكرية، هي من أكبر أسباب تضخم ثروات الدول الكبرى وقوتها الاقتصادية.

**خامسًا: (الأنعام) كناية عن الغذاء:** فالأنعام مصدر للأمن الغذائي ومخزون إستراتيجي متوسط الأمد لاستمرار حياة البشر، ومن يملِكْ هذا المُقوِّم من مقومات الحياة يتحكَّمْ بمنظومة الأمن الجماعي، ويسيطر على مدخرات الدول وقوتها الاقتصادية، ولذلك تنافس الناس على مشروعات التسمين للبهائم والأنعام باختلاف أنواعها، وهو ما يرتبط بالاستزراع كذلك؛ لأن البهائم بحاجة إلى رعي، ومن ثم عدها القرآن من مصادر الثروة والغنى، ومن متاع الحياة الدنيا.

**سادسًا: (الحرث)** كناية عن العقارات والأراضي، ويشمل ذلك الزراعة والتنقيب عن المعادن واستخراجها والبترول، وما يستتبع ذلك من صناعات، وكل ذلك أساسه الأرض، وإن كان المعنى ينبسط على الزراعة بدلالة العبارة لقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ \* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون} [الواقعة: 63، 64]، فإنه ينبسط على ما سواها من أعمال تتطلب تقليب الأرض وحراثتها بدلالة الاقتضاء، والأرضُ عند الاقتصاديين أحد عناصر الإنتاج الأربعة: (الطبيعة أو الأرض - رأس المال - العمل - الإدارة والتنظيم)[[86]](#footnote-86).

وهو الأمر الذي يعني أن الاستثمار هو القيمة المضافة لإحدى تلك العناصر الأربعة[[87]](#footnote-87)، لكن يهتم علم الاقتصاد بالعنصرين الأوَّلين فحسب (الأرض ورأسمال)، وذلك باعتبار أنهما العنصران الاقتصاديان وما عداهما يدخل في العناية به علم آخر من العلوم الاجتماعية كعنصر العمل وعلم الإدارة والتنظيم، ولَمَّا كان العائد الذي تعطيه الأرض يسمى ريعًا Rent، ولا يمكن التحكم به، وإنما يتوقف على جودة الأرض، كما هو الشأن في ناتج الثروة النفطية[[88]](#footnote-88)، فإن الذي يعنينا في هذا الصدد هو رأس المال (Capital) فحسب، باعتباره العنصر الوحيد الذي يمكن إنماؤه والتدخل في معدل نموه اقتصاديًّا[[89]](#footnote-89).

وعليه كان اللفظ القرآني دقيقًا حينما ذكر كلمة (الحرث)، وهو ما يؤكد المعنى الاقتصادي للأرض كعنصر إنتاجي؛ حيث قرن معها عنصر العمل، سواء أكان بقصد الزراعة بحسب الأصل أو التعدين أو التنقيب بحسب الأحوال.

كل ذلك متاع الحياة الدنيا، ولا شك أن الله تعالى أمر عباده بأن يأخذوا نصيبهم من الدنيا، كما في قوله تعالى: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 77].

وفي ذات الوقت ينبِّئهم بخير من ذلكم، ويشير إلى أن هذه الخيرية لا ينالها إلا الذين اتَّقوا ربهم، أولئك المرابطون على قضية الإيمان، فهي معهم، وهي صاحبتهم، وهم يستمتعون بمتاع الحياة الدنيا، ولا يتركونها أبدًا.

**كيف ذلك؟**

فهم يرابطون في نيتهم لإكثار ذرية المسلمين حال استمتاعهم بالنساء، وفي أنهم لا يتمنَّون البنين والذرية إلا لكي يرثوا منهم الدين، كما هو حال زكريا عليه السلام: {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا \* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: 5، 6]، فيعُدُّونهم للجهاد في سبيل الله، ولا يكتَنِزون الذهب والفِضة إلا لينفقوها في سبيل الله تعالى، وكذلك يتحركون في الأرض بدعوة الإسلام فيطلبون المركب لأجل ذلك، ويطعمون الطعام في سبيل الله، ويجمعون لذلك الأنعام، كما أن حرثهم في الأرض هو ضربٌ من نية الخير الذي ينويها المرابط في سبيل الله تعالى ليحقق الخير والنماء لمجتمعه، فعندئذٍ - وعندئذٍ فحسب - يصير تمتُّعهم بالدنيا، هو في الحقيقة، سعيًا لطلب الآخرة، وسعيًا إلي ما فيه خير من الوقوف عند لحظة التمتع الدنيوي ليمتد إلى الخلد في النعيم المقيم في الدار الآخرة.

فالسورة تصرف المؤمنين عن طلب الدنيا، وتحثهم على طلب ما هو خير منها، تلك الجنة التي أعدها الله لهم إذا ما حصَّلوا شرائطَها من الإيمان المقترن بالجهاد في سبيل الله تعالى، باعتبار أن الدنيا من أكبر المعوِّقات في طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله تعالى.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسلِم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تُهاجِر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مَثَل المهاجر كمَثَل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد، فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتُنكح المرأة، ويُقسم المال، فعصاه فجاهد))، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فمَن فعل ذلك كان حقًّا على الله عز وجل أن يُدخِله الجنة، ومَن قتل كان حقًّا على الله عز وجل أن يُدخِله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابَّته كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة))[[90]](#footnote-90).

والقرآن أشار إلى هذا النعيم المقيم في ثلاثة أمور من جنس متاع الحياة الدنيا؛ الجنات، والأزواج، والرضوان من الله تعالى.

قال الشعراوي:

"هذه الجنات، وهي تقابلٍ في الدنيا الحرث والزرع...، والحق حين تكلَّم عن الزرع تكلم واصفًا له بالحرث، لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملاً، أما ما في الآخرة، فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعبًا، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل إن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار، فأغنت هذه الجنات عن البنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسمومة، والأنعام، والحرث، ولذلك أردفها القرآن الكريم بذكر الأزواج المطهرة حتى تقابل النساء من متاع الدنيا، ووصفها مطهرة، واختتم الخيرية بذكر رضوان الله تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ}، وهو خير من ذلك كله، لقوله تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 72].

ولأن الخروج في سبيل الله لطلب الجهاد من الأمور التي تتطلب صدقًا وتوكلاً على الله تعالى، ومن الأعمال القلبية التي لا يعلمها إلا الله تعالى، قال تعالى: {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخرِجه إلا الجهادُ في سبيله وتصديق كلماته، بأن يُدخِله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة))[[91]](#footnote-91).

إذًا لا بد من تطويع الدنيا - لا التجرد منها بالكلية - وذلك بتذكر الآخرة كمحفز للزهد عنها، مع دوام الصلة بالله تعالى، ليكون حال المرابطين مع ربهم بين الصبر على البلاء، والدوام على الطاعات، والصدق في البلاغ والبيان، والإنفاق في سبيل الله، والقنوت في الدعاء والتهجد، والاستغفار بالأسحار.

نخرج من ذلك بمفهومٍ أوسع عن الرباط في سبيل الله، وأنه ليس قاصرًا على إعداد العُدَّة للجهاد دون إعداد المجاهد لذلك تربويًّا، وإنما يمتدُّ مفهوم الرباط كذلك ليشمل مَن احتفظ بنية الجهاد في سبيل الله في صدره، وظل مثابرًا على ثغور الإسلام، ولو لم يَحِنْ بعدُ وقت الجهاد، وهو الأمر الذي يربط العبادات بالجهاد، فكأن المرابطة بالحفاظ على أوقات الصلوات والانتظام في صفوف المصلين، هو نوع من الرباط في سبيل الله تعالى في أوقات السلم والاستعداد للجهاد، باعتبار أن الصلاة من أظهر الأمور التي يجتمع فيها المسلمون، وينتظمون وينضبطون فيها تمامًا مثل انضباط الجند في الميدان، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟))، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط))[[92]](#footnote-92).

وحتى يتضح المعنى لا بد من الأخذ في الاعتبار أن هذا المفهوم عن الرباط - وقت السلم - يُؤكِّده ويدلل عليه ما يضمره المؤمن في قلبه من نية الجهاد في سبيل الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((مَن مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث به نفسه مات على شعبة من نفاق))[[93]](#footnote-93)، فكأن حديث النفس بالغزو - وقت السلم - المقترن بالثبات على الصلوات في المساجد، هو ما يحقق في العبد صفة المرابط في سبيل الله تعالى، الأمر الذي يقويه حتى يلبي النداء ويكون أسرع في الاستجابة لله ورسوله وقت الجهاد بالمال والنفس، ويتحقق فيه عين الجهاد في سبيل الله.

**المطلب الثالث**

**منهج المرابطين على كلمة (لا إله إلا الله)**

الآيات من (18) إلى (32): قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}.

فإذا علمنا أن طريق الرسل في الدعوة إلى الله تعالى شاقٌّ، فعلينا أن نعلم أن أول مَن يقطع هذا الطريق مع الرسل هم أولو العلم، الذين يأمرون الناس بالقسط، وأن هؤلاء لا بد وأن يثبتوا على منهجية (لا إله إلا اله) قولاً وعملاً ودعوةً؛ لأن الكافرين سوف يحاجُّونهم، وعندئذٍ لا بد وأن يعلنوا إسلامهم لهم بوضوح، فيكون في هذا الإعلان والظهور لشعائر الله أمامهم خيرَ وسيلة لدعوتهم إلى الإسلام، وسوف يتولون عنهم، وعندئذٍ لا بد وأن يتموا لهم البلاغ لهذا الدين بالرغم من هذا التولي والإعراض، فالبلاغ هو الحد الأدنى للتكليف الدعوي، ولا بد فيه من بيان، ولا بد فيه - كذلك - من حركة وسعي حتى يصل الدعاة إلى مَن يبلغونهم عن ربهم هذا الدين، وعندئذٍ، وحال تحرك الدعاة في سبيل الله، فإنه سوف يواجِههم مَن ينقلبون عليهم من أصحاب الأهواء والقلوب الزائغة، ليصدوهم عن سبيل الله، بل ولسوف يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء من قبلهم ومَن تبِعهم من الدعاة والمصلحين، لا لشيء إلا لرغبة جامحة في المُلْك والعزة، بالرغم من علمِهم أن النار سوف تمسُّهم، ولكن ما هم فيه من الرعونة في أمر الدين هو الذي حملهم على فعل ذلك؛ إذ يجدر التنويه إلى أن بني إسرائيل كانت تسوسهم أنبياؤهم، فكلما هلك نبي خلفه نبي بعده، فلا يمكن لأصحاب القلوب الزائغة الخلاص من هذا النبي إلا بالانقلاب عليه دون الاكتفاء بتكذيبه؛ حيث يسلبون منه السياسة بقتله وقتل مَن معه من مناصريه، ولذلك يقر الله حقيقةً قرآنية، ألا وهي أن المُلْك بيد الله يؤتيه مَن يشاء من عباده وينزعه عمَّن يشاء من عباده، فالملك والعزة ليسا معيارًا لحسم الصراع بين الحق أو الباطل، وليسا شرطًا لاستمرار هذا الدين ولتتوارثه الأجيال، وإن كان شرطًا لازمًا للتمكين وإقامة حدود الله تعالى، ومن ثَمَّ لا بد وأن يكون ثَمَّة فصل بين المرابطين في سبيل الله والزائغة قلوبهم، الأمر الذي يَحُول دون انقلاب المنافقين عليهم والمفسدين، وأن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين هو أول علامات أن يكون هذا الانقلاب وشيكًا، والله وحده هو الذي يعلم ما في الصدور، والعاصم من كل ذلك هو اتباع منهج الإسلام عن حب لله تعالى، بكمال السمع والطاعة لله تعالى ورسوله، وكمال البغض للكافرين وأفعال الكافرين.

**أولاً: الشهادة بأن لا إله إلا الله من أهل الشهادة بها:**

قصر الله تعالى فهمَ التوحيد على مَن شهِد بوحدانيته، وأقره الله تعالى على هذه الشهادة، فبدأ بنفسه، فما ينزله الله تعالى من وحي عن طريق ملائكته من قرآن أو سنة - سواء كان حديثًا قدسيًّا أو نبويًّا - فهو من الوحي.

قال العلماء: (وإذا ثبت أنَّ وحي اللهِ إنَّما يصلُ إلى البشر بواسطة الملائكة، فلهذا السَّبب ذكر الملائكة في المرتبة الثانية)[[94]](#footnote-94).

وهو حجة في تفسير لا إله إلا الله، وكذلك ما فهمه أولو العلم، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143].

قال القرطبي: (لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء)[[95]](#footnote-95).

أولئك الذين رابطوا على فهم الصحابة والسلف الصالح لهذه الأمة، ولم يحيدوا عن فهمهم ولا عن منهجهم، هم الراسخون في العلم، وهم بوصلة هذه الأمة لترشدها إلى الدين الصحيح.

قال ابن القيم (إن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء، فيدخلون هم وأتباعهم...، فالحجة قامت بالرسل على الخلق، وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد)[[96]](#footnote-96).

قال الألوسي:

(والشهداء لهم نور العلم مساوق لنور الرسول، من حيث هو شاهد لله تعالى بتوحيده لا من حيث هو رسول)[[97]](#footnote-97).

قال الشيخ ابن عثيمين: (فكل إنسان يكتم علمًا فقد كتم شهادة عنده من الله)[[98]](#footnote-98).

قوله تعالى {قَائِمًا}؛ أي: {بِالْقِسْطِ}، اسم فاعل حال منصوب بالفتحة، فهو حال للقائم بهذه الشهادة.

يقول العلماء: (القيام بالقسط من الصفات الخاصة به تعالى)، ويتعدى ذلك حال كل مَن شهد أنه لا إله إلا الله أن يقوم على منهج الله تعالى بين الناس بالقسط، وهو من الرباط في سبيل الله تعالى؛ حيث تخرج هذه الكلمة من الفم ليصدقَها حال القائم بها، فهم يرابطون على العلم والدعوة في سبيل الله حتى يصلوا إلى الاستشهاد في سبيل الله، وهذا يؤكد أن أولي العلم وأصحاب الدعوة يحملون همَّها، ويقومون بها لدعوة الشارع لهم بذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء: 135]، ولكن حتى لا يكون الله مشهودًا عليه ذكر قيامه وحده سبحانه بالقسط، بلفظ (قائمًا).

أما أولو العلم، فهم يأمرون الناس بالقسط، ولذلك يقول الشيخ الشعراوي: (وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط)[[99]](#footnote-99)، ولذلك وصفهم الله تعالى في قوله: {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}؛ لأن طريق الشهادة بأن لا إله إلا الله هو شهادة أيضًا بالموت في سبيل الله.

قال ابن القيم:

(دلَّ قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} على أنه دينُ جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط - ولا يكون له - دين سواه)[[100]](#footnote-100).

وقال ابن تيمية: "وقوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} لا يختص بمن بُعِث إليه محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو حكم عامٌّ في الأولين والآخرين"[[101]](#footnote-101).

قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [آل عمران: 19]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما تواد اثنان في الله جل وعز أو في الإسلام، فيُفرِّق بينهما أول ذنب يحدثه أحدهما))[[102]](#footnote-102).

من هنا نشأ الخلاف والفُرْقة في صفوف أهل الكتاب، ومن هنا لم ينفعهم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على أنبيائهم؛ إذ تفرقوا واختلفوا بغيًا بينهم.

قال صاحب الظلال:

(الإسلام الذي هو ليس مجرد دعوى، وليس مجرد راية، وليس مجرد كلمة تقال باللسان، ولا حتى تصورًا يشتمل عليه القلب في سكون، ولا شعائر فردية يُؤدِّيها الأفراد في الصلاة والحج والصيام، لا، فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس دينًا سواه، إنما الإسلام الاستسلام، الإسلام الطاعة والاتباع، الإسلام تحكيم كتاب الله في أمور العباد...، والإسلام توحيد الألوهية والقوامة، بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله سبحانه وذات المسيح عليه السلام، كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضًا، ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافًا عنيفًا يصل في أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال، هنا يُبيِّن الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علَّة هذا الاختلاف، إنه ليس اختلافًا عن جهل بحقيقة الأمر، فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله، وتفرد الألوهية، وبطبيعة البشرية، وحقيقة العبودية، ولكنهم إنما اختلفوا {بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، واعتداءً وظلمًا، حينما تخلَّوا عن قسط الله وعدله الذي تتضمَّنه عقيدته وشريعته وكتبه...، كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية، وليس هذا إلا نموذجًا مما تكرَّر وقوعه في حياة اليهودية والمسيحية، وقد رأينا كيف كانت كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الروماني سببًا في رفض المذهب الروماني الرسمي، والتمذهب بمذهب آخر!

كما كان حرص بعض القياصرة على التوفيق بين أجزاء مملكته سببًا في ابتداع مذهب وسط، يظن أنه يوفِّق بين الأغراض جميعًا! كأنما العقيدة لعبةٌ تستخدم في المناورات السياسية والوطنية، وهذا هو البغي أشنع البغي، عن قصد وعن علم!

**ثانيا: إعلان الإسلام عند محاجَّة أهل الكتاب:**

قال تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: 20]، فالمحاجاة أسلوبٌ من أساليب البرهان العقلي، وتقوم على الاتساق بين الحجج المختلفة، والربط بينها منطقيًّا، لتلي الحجةُ الحجةَ، حتى ننتهي إلى البرهان العقلي للمسألة المطلوب إثباتها، وهو أسلوب يعتمد على المنطق العقلي، أو الفكري، أو الثقافي للإنسان؛ حيث تتداخل أحيانًا الثقافات الموروثة لتنتهي بالعقل البشري إلى نتائج غير صحيحة لو اعتمد على الفكر فحسب.

والإسلام يفتح أبواب المحاجَّة والبرهان في إثبات وحدانية الله تعالى بأسلوب أوقع تأثيرًا وأشد صدقًا، فهو يُقِيم الدليل من حيث الواقع العملي للمسلمين، وذلك بإظهار شعائر الإسلام لمن يريد إقامة الحجة على الله تعالى، فيحاجهم الله تعالى برسله، وأتباع الرسل الذين يتمثَّل الإسلام في عقيدتهم الراسخة وعباداتهم الخاشعة وأخلاقهم العالية، في حين أن أهل الكتاب لا يريدون أن يدخلوا في مجادلة حقيقية مع المسلمين؛ لأنهم يُدرِكون أن حججهم واهية، يخبرنا المولى عن مقالتهم: {قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 76]، وإنما هم يجادلون لأجل كسب مزيد من الوقت حتى لا ينتشر الإسلام.

يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [الشورى: 16]، فأنَّى لهم بأن يأتوا بحجة مقنعة، وقد استجيب لله تعالى ورسوله، فعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل))، ثم تلا هذه الآية: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: 58]الآية[[103]](#footnote-103).

ولذلك كان منهج الأنبياء في دعوة أهل الكتاب أن يحاجُّوهم بإظهار شعائر الإسلام لهم، ففي ذلك أبلغ حجة، وقاطع لكل شبهة وقعت بهم، {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} [آل عمران: 73]، فهؤلاء ليس لديهم حجة، فامضوا يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في طريق دعوتكم، وأظهروا شعائر ربكم، فقد أقيمت الحجة عليهم بإعلان إسلامكم واتباعكم لملَّة أبيكم إبراهيم صلى الله عليه وسلم ودين نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع المرسلين.

**ثالثًا: الإلحاح في الدعوة حتى الإسلام:**

قوله سبحانه: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ} [آل عمران: 20].

فيه تصريح بشمول رسالته لأهل الكتاب والعرب الأمِّيين كذلك[[104]](#footnote-104).

وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي))، وذكر منهن: ((وكان النبي يبعث إلى قومه، وبُعِثت إلى الناس عامة)).

وقوله تعالى: {أَأَسْلَمْتُمْ} فيه دلالة على إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم في عرض دعوته لهم؛ أي: (للحض على أن يسلموا وجوههم لله)[[105]](#footnote-105)، فهو سؤال بمعنى الأمر[[106]](#footnote-106) أو الطلب.

قال ابن عاشور: (القصد من ذلك الحرص على اهتدائهم والإعذار إليهم، وإنما هو تكرر للدعوة؛ أي: اترك محاجتهم ولا تترك دعوتهم)[[107]](#footnote-107).

وقوله تعالى: {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا} فيه بشارة للجماعة المؤمنة بأن مجرد دخولهم في الإسلام وإعلانهم الشهادتين هدايةٌ لهم للحق، وهذا هو الهُدى الأول، ليشرع المسلمون بعد ذلك في هدايتهم لتعاليم الإسلام وشرائعه، ولا تقتصر دعوتهم عند حد دخول الإسلام فحسب، بَيْدَ أنه يجب التريث بين هدايتهم للإسلام وهدايتهم لتعاليم الإسلام وشعائره، فقد أفصح الحق سبحانه أنه بمجرد دخولهم الإسلام فقد اهتدوا، من ثم فإن هداهم كافٍ لأن يجتهدوا في الطريق ويحسنوا إسلامهم ويتعلموا تعاليمه وأخلاقه وآدابه، فإن لم يكن لهم جهد في ذلك فيجب التمهل عليهم، لا المسارعة في تعليمهم وإشعارهم بأنهم منذ اللحظة التي دخلوا فيها الإسلام مطالبون بكافة تشريعاته وتكاليفه الشرعية، فينفضُّوا عن الإسلام وينقلبوا عليه لما يتعذر عليهم التخلق بأخلاقه جملة واحدة، وكانوا البارحة على الكفر والفسوق وأخلاق الجاهلية.

قال العلماء: (من اعتبار المصلحة مع المسلم الجديد ألا يُحدَّث بما يصده عن الإسلام، فبعض القائمين بالدعوة قد يصدون عن الإسلام دون أن يشعروا، كأن يبادر بإخباره عن أحكامه مع زوجته، أو التبرؤ من والديه، أو يبدأ معه الحديث عن الختان، أو ربما بدأ معه الحديث عن حكم التدخين ووجوب الإقلاع عنه فور إسلامه، فنطقه بكلمة التوحيد يحصل منه خير كثير حتى ولو صار مسلمًا عاصيًا، فهو خير من أن يبقى على الكفر) [[108]](#footnote-108).

فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، قال: ((يسِّرا ولا تعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا))[[109]](#footnote-109).

قال العلماء: (فلم يكتفِ بالتيسير والتبشير والتطاوع، بل ضم إليها النهي عن ضدِّ ذلك، وهو التعسير والتنفير والاختلاف، فليس من حكمة الداعية أن يضع الدين كله جملة واحدة أمامَ المدعو لئلا يشق عليه، وهذا هو الذي يتَّفق مع التيسير في الدعوة، والتبشير بها، وعدم التنفير عنها، إن تكليف المسلم الجديد بما لا يُطِيق وعدم مراعاة التدرج في دعوته، قد يكون سببًا في رجوعه عن الإسلام أو ضعف تمسكه به، وفيه تنفير له عن قبول واجبات الإسلام)[[110]](#footnote-110).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يُبلِّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقَّن جميع شرائعه ويُؤمَر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يُطقْه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل، فإنه نافع، ومن هنا يتبيَّن سقوط كثير من هذه الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مُسقِط للأمر والنهي، وإن كان واجبًا في الأصل، والله أعلم)[[111]](#footnote-111).

**رابعًا: البلاغ عند التولي:**

قوله سبحانه: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 20]، فيه دلالةٌ على إقامة الحُجَّة عليهم بمجرد البلاغ الذي تتحقق فيه شرائطه من البيان والإيضاح الكافي، كما كان هو شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغ دائمًا.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة - يهودي ولا نصراني - ثم يموت ولم يُؤمِن بالذي أُرسِلت به إلا كان من أصحاب النار))[[112]](#footnote-112).

ولنا في البلاغ آداب نذكر منها ما روي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سلَّم سلَّم ثلاثًا، وإذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثًا[[113]](#footnote-113).

وفي رواية: "إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهَم عنه"[[114]](#footnote-114).

وعن ابن عمر يقول: جاء رجلان من المشرق فخطبا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن من البيان لسحرًا))[[115]](#footnote-115).

قال الحافظ: (فإن أريد بالحديث المدح، فالمعنى أنه يستمال به القلوب ويرضى به الساخط ويستنزل به الصعب)[[116]](#footnote-116).

**خامسًا: انقلاب الزائغة قلوبهم على أنبيائهم ومَن تبعهم من الدعاة والمصلحين لا يَحُول دون دعوتهم لكتاب الله.**

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...} الآيات من [21 - 25].

جاء بفعل (يقتلون) بصيغة المضارع، لبيان أن يهود اليوم كيهود البارحة، يقلدون أسلافهم في طريقة صدهم عن سبيل الله تعالى، ولو تمكنوا لفعلوا مثل ما فعل أسلافهم، وقد تكررت محاولاتهم لقتل النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه [[117]](#footnote-117)؛ ذلك أن النبوة كانت تجمع بين الهداية الدينية والسياسة الدنيوية، فكان النبي يسوس قومه، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون))، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: ((فُوا ببيعةِ الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم))[[118]](#footnote-118).

ولذلك انقلب بنو إسرائيل على أنبيائهم وقتلوهم لأجل أن يتخلصوا من سياستهم لهم، فلم يكن بدٌ لصدهم عن سبيل الله تعالى إلا بالقتل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتل نبيًّا))[[119]](#footnote-119).

ولا شك أنه حينما قُتل الأنبياء انقلبت الريادة والقيادة والسياسة، فأضحت لهؤلاء القتلة دون المؤمنين وأتباع الأنبياء، وهو الأمر الذي يثير الخيال عن حال المؤمنين في تلك اللحظات الصعبة التي يظهر فيها الذين كفروا، وقد نُزِع المُلْك من أنبيائهم، واستحل الظالمون دماءهم ودماء أتباعهم من الذين يأمرون بالقسط من الناس.

فقوله تعالى: {يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}، يدل على أنه بالرغم من ذلك فإن المرابطين في سبيل الله لا يزالون يدعون أهل الكتاب للإيمان بالله تعالى، لتظل الدعوة للإسلام بطرقها المباشرة قائمة ومستمرة حتى في أحلك الظروف وأشدها تضييقا وانقلابا على المؤمنين.

ولم يدفع أهل الكتاب لأن ينقلبوا على أنبيائهم إلا استخفافُهم بعذاب الله، واستهانتهم بأمر هذا الدين، وكأنهم يقولون: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات، وذاك هو سبب انقلابهم على أنبيائهم وعلى المرابطين على كلمة الحق الناصرين لدعوة الأنبياء المرسلين؛ حيث هان عندهم عذاب الله وصَغُر، وعظُمت عندهم الدنيا وكبُرت في أعينهم، وما عدا ذلك من أسباب يتذرَّعون بها فليست كذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا فُتِحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اجمعوا إليَّ مَن كان ها هنا من يهود))، فجمعوا له، فقال: ((إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقي عنه؟))، فقالوا نعم، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن أبوكم؟))، قالوا: فلان، فقال: ((كذبتم، بل أبوكم فلان))، قالوا: صدقتَ، قال: ((فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟))، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرَفتَ كذبنا، كما عرفته في أبينا، فقال لهم: ((مَن أهل النار))، قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا))، ثم قال: ((هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟))، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: ((هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟))، قالوا: نعم، قال: ((ما حملكم على ذلك؟))، قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّك[[120]](#footnote-120).

وللتدليل على استمرار الدعوة حتى في ظل أحلك الظروف أن الدولة الإسلامية لَمَّا هاجمها التتار وقتلوا من المسلمين ما قتلوا، ودمروا ما دمروا، لم يقف ذلك دون بلوغ دعوة الإسلام إلى ملوكهم وإسلامهم وإسلام أتباعهم.

قال ابن كثير:

"ولَمَّا تملك قازان على التتار أسلم وأظهر الإسلام على يد الأمير نوزون رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام، وفي بعض التواريخ: أن إسلام قازان كان على يد الشيخ صدر الدين ابن حمويه الجويني[[121]](#footnote-121)، وكان أول مَن أسلم من ملوك التتار وسلاطينهم أبو المعالي ناصر الدين بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان التتاري الشهير، وهو أول مَن أسلم من أبناء جنكيزخان، وكان إسلامه عند عودته من عاصمة التتار قره قورم[[122]](#footnote-122)، وجلس بركة خان في كرسى المملكة، وبركة خان هذا هو ابن باطوخان بن دوشى خان بن جنكزخان، وهو ابن عم هولاكو، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده[[123]](#footnote-123).

ولَمَّا ملك البلاد أسلم وحسن إسلامه، وأقام منار الدين، وأظهر شعائر المسلمين، وأكرم الفقهاء والعلماء، وأدناهم، وأبرَّهم، ووصلهم، واتخذ المساجد والمدارس بنواحي مملكته، وأخذ بالإسلام جُلَّ عشيرته، ونفذ أمرُه، وامتدَّت أيامهُ، وكان السبب في إسلام بركة خان أن الشيخ نجم الدين الكبراء كان قد ظهر صيتهُ وارتفع ذكرهُ، ففرَّق مُرِيديه إلى المدن العظام، ليظهروا بها شعائر الإسلام، وأرسل سيف الدين الباخرزي إلى بخارى، فلما استقر الباخرزي ببخارى أرسل تلميذًا له كبير المحل عنده إلى بركة خان، فاجتمع به ووعظه، وحبب إليه الإسلام، وأوضح له منهاجه، فأسلم على يده، واستمال بركة خان عامة أصحابه إلى الإسلام[[124]](#footnote-124).

**سادسًا: الملك والعزة ليسا معيارًا لحسم الصراع أو شرطًا لإقامة الدين، وإن كان لازمًا للتمكين:**

ومن هنا يُقرِّر القرآن الكريم قاعدة هامة لا بد للأجيال المتتابعة أن تتعلَّمها وتتدارسها، ألا وهي أن دوام الملك من المحال، وأن الأيام تُتَداول بين الناس، وهذه سنة الله تعالى ولا تتبدل ولا تتغيَّر، فهو سبحانه وتعالى بيده الملك يعطيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، تمامًا مثلما تدور الأيام ويتعاقب الليل والنهار.

وبالرغم من أن الأيام تدور، فإن ثَمَّة قاعدة أخرى ثابتة لا بد وأن تتناقلها الأجيال المتلاحقة {وَلِلَّهِ الْعِزَّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}، فمهما ارتفع شأن الكافرين، وكل ما أصاب المؤمنين لا يغير من هذه القاعدة، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}، فالعزة مسألةٌ نفسية لا عَلاقة لها بالغنَى والفقر، ولا بالصحة والمرض، ولا بالنصر والهزيمة، وإنما هي عزة يجدها المؤمن في قلبه، ويستمدها من الله تعالى، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]، وذلك بصلته بالله تعالى، وحسن إسلامه له سبحانه، فلو أن ملكًا من ملوك الدنيا أرسل رسولاً له في شأنه، فإن هذا الرسول يستصحب معه عزة المَلِك الذي أرسله، فإن وقع في الأسر استشعر العزة بقدر عزة ملكه وسطوته، وعلم أن فكاكه قريب، وإن لم يثق في عزة مَلِكه عاش في ذلة ما لم يلتمس العزة من مالك الملك.

ومن اللطيف أن نذكر ما قاله الفخر الرازي - نقلاً عن كثير من المفسرين - أنه سبحانه يُخرِج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح، آية ذلك قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: 122]، يريد كان كافرًا فهديناه، فجعل الكفر موتًا والإيمان حياة[[125]](#footnote-125).

ولَمَّا كان الإيمان بالله ودخول الإسلام خيرَ رزقٍ يُرزَقه العبد، فإن تحصيل التقوى يعمل على تحصيل الرزق بغير حساب، لقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3]، فكان من خير الرزق الذي يُرزقه العبد بعد دخول الإيمان في قلبه، أن يكون سببًا في إدخال الإيمان في قلوب أظلمت بالشرك والكفر، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب في خيبر: ((ادعُهم إلى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم)[[126]](#footnote-126).

وقد روي أنه لَمَّا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرةٌ، حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْوَل ووضع رداءه ناحية الخندق، وقال: (({وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}))، فندر ثلثُ الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة، ثم ضرب الثانية، وقال: (({وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}))، فندر الثلث الآخر، فبرقت برقة فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة، وقال: (({وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}))، فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس، قال سلمان: يا رسول الله، رأيتُك حين ضربت ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا سلمان، رأيتَ ذلك؟))، فقال: إي والذي بعثك بالحق يا رسول الله، قال: ((فإني حين ضربت الضربة الأولى رُفِعت لي مدائن كسرى وما حولها، ومدائن كثيرة حتى رأيتُها بعيني))، قال له مَن حضره من أصحابه: يا رسول الله، ادعُ الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارَهم ويخرب بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ((ثم ضربت الضربة الثانية فرُفِعت لي مدائن قَيْصَر وما حولها حتى رأيتها بعيني))، قالوا: يا رسول الله، ادعُ الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ((ثم ضربت الثالثة فرُفِعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتُها بعيني))، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: ((دعوا الحبشة ما وَدَعُوكم، واتركوا الترك ما تركوكم)) [[127]](#footnote-127).

**سابعًا: الفصل بين المرابطين والزائغة قلوبهم يَحُولُ دون الانقلاب عليهم:**

ينصح القرآن الكريم جماعة المؤمنين بأن يتخذوا من التدابير الاحترازية ما يحول دون انقلاب المنقلبين عليهم، بألا يتخذوا من دون المسلمين أولياء، وتظل هذه النصيحة حتى لو تم لهم الانقلاب ليضحى المسلمون قوَّة واحدة لا يتخاذل أحدُهم ليوالي غير المسلمين؛ إذ لا شك أنه حين يظهر الذين كفروا ويؤول لهم الملك، وتبدو عليهم علامات الاعتزاز بملكهم، وحين يُمنَى المسلمون بهزيمة مثل (أُحُد)، أو حينما يستشري القتل بالأنبياء وأتباع الأنبياء - يبدو للعيان أن كِفَّة الذين كفروا قد مالت لهم، وأن كِفَّة الذين آمنوا قد مالت عليهم، عندئذٍ - وعندئذٍ فحسب - يستميل الزائغة قلوبهم عن الحق المنقلبين ليستنصروا بهم، والحقيقة ليست كذلك، ولكن الذين في قلوبهم زيغ لا يرونه، فيسارع المنقلبون أو المنافقون في التزلف للذين كفروا ليأمنوا لأنفسهم عندهم مكانًا خوفًا من أن تدور الأيام، ويصدق حدسهم بنصرة الكافرين وهزيمة المؤمنين، الأمر الذي يعني أنهم ينشؤون عَلاقات مخابراتية قد تصل إلى مستوى الاستخبارات العسكرية، الأمر الذي يمهد للانقلاب على المسلمين، ولهم في تبرير مسلكهم هذا علل وأسباب كثيرة؛ منها ما ذكره القرآن في شأنهم: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: 52]،

لذا كان التحذير القرآني لمن يقوم بهذه الأفعال شديد، يقول سبحانه: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران: 28].

ويكفي من تحذير القرآن لهم أن ساوى وصفَهم بمن يوالونهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: 51].

ولَمَّا كانت هذه العَلاقة الباطنية لا يعلمها إلا الله، قال سبحانه: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: 29].

وتُزيَّل الآية بقوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ففيه تهديد شديد.

يقول البيضاوي: (فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه)[[128]](#footnote-128).

وهذه العَلاقة الباطنية يكشفها الله تعالى يوم القيامة لأهلها في صورة سوء، وعندئذٍ يودُّون لو لم تكن بينهم وبين مَن كانوا يوالونهم كل هذه المودة والقرب، يقول سبحانه: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: 30]، ليختتم تزييل الآية بقوله تعالى: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}، أن يأتي تحذيره سبحانه للجماعة المؤمنة من باب الرأفة بهم أن يقَعوا في مثل هذا الظلم الكبير، قال الحسن: ومن رأفتِه بهم أن حذَّرهم نفسه[[129]](#footnote-129).

**ثامنًا: اتباع منهج الإسلام عن حبٍّ لله هو العاصم من الانقلاب على الأعقاب:**

يقول سبحانه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 31، 32].

يجب على أهل الإيمان أن يثبتوا للناس أنهم على الحق من خلال التطبيق العملي بالفهم الصحيح لهذا الدين، وليس اكتفاءً بإطلاق شعار محبتهم لله ولرسوله دون ترجمة عملية لهذا الحب، فإن كانت ألسنتهم تلهجُ بأن لا إله إلا الله، وقلوبهم انشرحت بالإسلام، فأين سائر جوارحهم التي تؤكد ما لهج به اللسان وانشرح به القلب؟ فالحب اتباع، فهو اتباع للمنهج، ولمن ساروا على هذا المنهج، وليس اتباعًا لأشخاص إلا لأجل فهمِهم للمنهج وتطبيقهم له التطبيق الصحيح، قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 95]، فالإسلام لا يحمل أهله على اتباع الأشخاص، ولو كانوا أنبياءً إلا لأجل أنهم يدينون لله تعالى بالإسلام عقيدةً ومنهجًا، ومن ثَمَّ كانوا هم الترجمةَ العملية للإسلام، ومن هنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مُتَّبِعًا ومُتَّبَعًا، ومن ثَمَّ اندمجت في شخصه الكريم النبوة والمنهج، فهو مُتبِع لملة الأنبياء من قبله وملة أبيه إبراهيم، وليس بِدْعًا من الرسل، قال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: 123]، وكلهم يَدينون لله تعالى بدين الإسلام، وهو - كذلك - مُتبَع من أمته؛ لأنه هو التمثيل العملي لمنهج الإسلام، فعن سعد بن هشام قال: سألت عائشة، فقلت: أخبريني عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: (كان خلقُه القرآنَ)[[130]](#footnote-130).

فالمتبِع لمنهج الله هو الذي يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشعراوي:

(وكأنه صلى الله عليه وسلم كان قرآنًا يمشي على الأرض، والمعنى[[131]](#footnote-131): كان تطبيقًا كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى...، وطبيعة الأُسوة تقتضي أن يكون الرسول بشرًا، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتَمِرين، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين)[[132]](#footnote-132).

الأمر الذي يتطلب مدارسة سيرته العطرة للتعرُّف على خُلُقه في تطبيق القرآن، وفهمه للدين، وتحرُّكه به، وهو الأمر الذي يُحِيلنا إلى فهم منهجه في مكة، وصبره على أذى المشركين فيها حتى هاجر منها، وجهاده في المدينة حتى عاد إلى مكة فاتحًا لها، ثم رجوعه للمدينة حتى لقاء ربه وقد استخلف أسامة بن زيد على سريَّة لم تخرج إلا بعد وفاته، لتستكمل الأمة منهجه عملاً، وقد اكتمل المنهج وحيًا ونصًّا بلا تبديل ولا تحريف، وكذلك كان الصحابة على منهجه بلا تحريف أو تبديل.

فإذا كان منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التدين لربه هو التضحية بنفسه وماله وأهله في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله، فإن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي التزام منهجه، والرباط على نية الجهاد في سبيل الله، والذي يتبع النبي صلى الله عليه وسلم، ويقتدي به، ويتأسى بسنته، هو فحسب الذي يحظى بحب الله ومعيَّته سبحانه ومغفرته ورحمته، وهو الذي يتذوق حلاوة الإيمان، التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثٌ مَن كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار))[[133]](#footnote-133)؛ أي: إنه يتعين عليه أن يتحلى بصفتين إيجابيتين، ويتخلى عن صفة سلبية، فيُقدِّم حب الله ورسوله على ما سواهما من أهل، وعشيرة، وزوجة، ومال، وأولاد، ومسكن، وضيعات...، ولا يكون هؤلاء عقبةً في جهاده في سبيل الله، وأن يكون حبُّه لأهل الإيمان لأجل حب الله لهم، بأن يخلي قلبه من حظه في حبهم، فيتجرد حبه لهم من أي غرض دنيوي، فلو كانت زوجته فلا يشتهيها إلا لأجل طاعتها لله، ولظنه حب الله لها...، وقِسْ على ذلك سائر الأمثلة، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

ويتحقق ذلك بكمال الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يتحقق ذلك بموالاة الكافرين وحبهم، ولذلك أردفها المولى سبحانه بقوله: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 32].

إذًا هناك فجوة بين القول بحب الله تعالى اعتقادًا واتباع منهج الإسلام عملاً؛ لأنه حين ينطق اللسان بالشهادتين ويدخل المرء في الإسلام، لا يجب مخاطبته بكل التكاليف الشرعية جملة واحدة، وإلا انصرف عن الإسلام، كأن يخاطب بحرمة الزنا والخمر والقمار...، إلخ، فيستصعب ذلك ويترك الإسلام أو ينقلب عليه.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا"[[134]](#footnote-134).

بَيْدَ أنه لكي يحتسب على الصف المرابط في سبيل الله تعالى، وحتى يحتسب من جنود الإسلام لا بد وأن يهجر الكفر كله، بل وأشخاص الكافرين كذلك، ويمقتهم في سبيل الله تعالى، لأجل أن الله لا يحب الكافرين، فإذا تحقق ذلك احتسب من المؤمنين المرابطين في سبيل الله.

**المحور الثاني**

**مدارسة لقصة آل عمران كنموذج للمرابطين في سبيل الله تعالى من عباد الله المصطفين**

**الآيات من (33 - 60)**

**المطلب الأول**

**الاصطفاء والتوريث علة فاعلة لاستمرار هذا الدين**

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ... قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران: 33 - 41].

علِمنا من سورة البقرة أن الله اصطفى لنا الدين في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ} [البقرة: 132].

قال الألوسي: (أي جعل لكم الدين الذي هو صفوة الأديان، بأن شرعه لكم ووفقكم للأخذ به، والمراد به دين الإسلام الذي به الإخلاص لله تعالى والانقياد له، والدين صفوة في نفسه، وليس عند الله تعالى غيره)، فكان لا بد كذلك أن يصطفي الله تعالى من خلقه أفضل ما يحمل أمانة هذا الدين، قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج: 75]، وكذلك الأنبياء يصطفي الله لهم خير العباد لنصرتهم وتأييدهم، وهم الحواريون، فعن جابر يقول قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: ((مَن يأتينا بخبر القوم؟))، فقال الزبير: أنا، ثم قال: ((مَن يأتينا بخبر القوم؟))، فقال الزبير: أنا، ثم قال: ((مَن يأتينا بخبر القوم؟))، فقال الزبير: أنا، ثم قال: ((إن لكل نبي حواري وإن حواري الزبير))[[135]](#footnote-135).

ولكي تؤكد السورة هذا المعنى، فإنها استطردت في حكاية قصة آل عمران بعد إشارتها إلى اصطفاء آدم ونوح، واصطفاء آل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وقد فصلت سورة البقرة كيفية اصطفاء الله تعالى لنبي الله آدم عليه السلام، واصطفاء الله تعالى لنبي الله إبراهيم عليه السلام وآله على العالمين، ولم يبقَ إلا أن يتناول الحديث عن اصطفاء الله تعالى لنوح وآل عمران، مع الأخذ في الاعتبار أن الأدلة من السنة شاهدةٌ على اصطفاء الله تعالى لغيرهم، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((احتجَّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجَتْك خطيئتُك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قدر عليَّ قبل أن أخلق؟))، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فحج آدم موسى مرتين))[[136]](#footnote-136).

لكن عند التأمل وشيء من التدبر نجدُ أن اصطفاء الله تعالى لآدم ونوحٍ جاء لأجل الاستخلاف في الأرض، فآدم قد خُلق لأجل ذلك، فكان أول المؤمنين في الخليقة، ونوح هو أول المؤمنين بعد الطوفان، وعند التأمل في آل إبراهيم وآل عمران، نجد أن ظروف اصطفائهما تشتركان في شدة الاضطهاد الديني الذي أحاط بهما، فإبراهيم عليه السلام لم يسلَم من قومه حتى ألقَوْه في النار، وآل عمران لم يسلَم زكريا أو يحيى بل قتلا غدرًا، فكانا آخر مَن قتلا من الأنبياء، وأما عيسى ابن مريم، فقد نجا من القتل كما نجا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعودٌ إلى ما نحن فيه، فإن نصيب آل عمران في هذه السورة واضح باعتبار أن جهاد عمران وآله في سبيل الله يضربُ أروع الأمثلة في التدليل على أن توريث هذا الدين لا يقل أهمية عن حفظه بالرسوخ في العلم والجهاد في سبيل الله؛ حيث تستكمل امرأة عمران مسيرةَ زوجها، وتَهَبُ ما في بطنها وتنذره ليدعو ويجاهد في سبيل الله؛ {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [آل عمران: 35]، ولا يقتصر التوريث على مجرد استقراء الكتاب أو مدارسته، ولا الإيمان بالمعجزات فحسب، وإنما لا بد من التربية والمحاكاة حتى يتحقق التوريث دون تحريف أو تبديل، ولا بد وأن تتحقق هذه التربية في إطار المجتمع المؤمن، سواء تمثل في الأسرة الصغيرة أو في المجتمع الكبير، وأول شرط لنجاح توريث هذه الأمانة التجردُ من حظوظ النفس في الولد، ليكون كله لله، وبذلك تتجدد نية المرابطين في أشد المواقف العملية اختبارًا، وأصعب الاختبارات ابتلاءً، فلا يبخل المرابط ولا المرابطة أن يضع نطفته ولا أن تلد رضيعها في سبيل الله، فلا يكون ثَمَّة سبيل إلا سلكه المرابطون في سبيل الله لتوريث هذا الدين، وعندئذٍ يحق لهم الاعتذار لله، {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} [آل عمران: 36]، بَيْدَ أن الاعتذار لا يقف عند مجرد تجديد النية فحسب وتصحيحها لله، وإنما لا بد وأن يتعهَّد المرابطون ذرِّيتَهم بالتربية ويعيذوها بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وليعلموا وليوقنوا أن الله تعالى هو الذي تكفَّل بحفظ المرابطين ورزقهم، فمن يتَّقِ الله يرزُقْه من حيث لا يحتسب؛ حيث كلما استحرَّ القتل بالأنبياء اشتد دعاء الأنبياء لأن يرث عنهم الدينَ أولادُهم، باعتبارهم الأقرب إليهم من غيرهم عندما يشتد البلاء بهم، كما كان ذلك هو حال زكريا عليه السلام: {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا \* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: 5، 6].

وكذلك انضمَّت مريم عليها السلام إلى صفوفِ المرابطين بما يتناسب مع طبيعتها كأنثى، فرابطت في المحراب على الدعاء والعبادة، فإن كان الرجال يجاهدون في ميادين القتال ويرابطون في المساجد، فإن النساء يرابطن في المحراب ويُهيِّئن أولادهن ليصبحوا رجالاً في المستقبل.

فعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على مَن دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم))[[137]](#footnote-137)؛ أي: ليس النصر وإدرار الرزق إلا ببركتهم، فأبرزه في صورة الاستفهام لمزيد التقرير؛ وذلك لأنهم أعظم إخلاصًا في الدعاء، وأكثر خضوعًا في العبادة؛ ولأن عبادة الضعفاء أشد إخلاصًا لخلوِّ قلوبهم عن التعلق بالدنيا، وذلك من أعظم أسباب الرزق والنصر[[138]](#footnote-138)، ولذلك اشتهر عند السلف مقالة: (لولا شيوخ رُكَّع، وشباب خُشَّع، وأطفال رُضَّع، وبهائم رُتَّع، لصُبَّ عليكم العذاب صبًّا)[[139]](#footnote-139).

وفيه تنبيهٌ على أن مَن انقطع إلى الله، واكتفى بتدبيره عن تدبير نفسه، وسكن تحت جَرْي مقاديرِه، كفاه مهماته[[140]](#footnote-140)، ومن ثَمَّ آتاها رزقها من حيث لم تحتسب، فتمنَّى زكريا أن يكون من ذريته ولدٌ يُكمِل مسيرته في نشر هذا الدين وتعليمه للناس، رغم أن الأسباب ضعُفت عن فعلِ ذلك لكبره وامرأته أضحت عاقرًا، لكنه لثقته في نصر الله سأل الله تعالى، وأنه قادر على تفعيل الأسباب، وإن ضعُفت الأسباب الكونية عن تأييد هذا الدين، فإن الله تعالى لا يستعصي عليه شيء، وإنما يفعل ما يشاء فيُفعِّل الأسبابَ الضعيفة لتقوى على نصرةِ الحق وأهله، وعند اقتراب النصر يُبشِّر الله به المؤمنين، حتى يظل ثباتهم على الحق قائمًا لا يتزعزع، وثقتهم في النصر لا تهتز، وهذا من باب تخفيف البلاء على المسلمين، ليظل اليقين ثابتًا، والتوكل بالله وصولاً.

والإنسان شأنه العجلة دائمًا، لم لا وقد خُلِق عجولاً، فليس من المستغرب أن يعجَل آدم عليه السلام ليأكل من الشجرة، أو أن يعجَل موسى عليه السلام بسؤال الخضر وإعادة السؤال عليه، وكذلك أن يعجل زكريا في معرفة أول علامات الحمل بولد يرثُ عنه الدين، وله أن يعجَل وقد انقطع دم الحيض عن امرأته؛ لأنها عاقرٌ لا تلد، وهو في عجلةٍ من أمره أن يُورِّث الدينَ قبل أن يلقى الله تعالى، وقد تنكَّب بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة.

قال العلماء: إنه (لَمَّا استعجل زكريا الأمرَ، وأراد أن يحصل له كمال الطمأنينة، طلب الآية من ربه، فكانت آيتُه ألاَّ يُكلِّم الناس ثلاث ليالٍ من غير سوء إلا رمزًا، فيقدر على الإشارة ولا يقدر على الكلام)[[141]](#footnote-141).

فالله تعالى لا يريد منه أن يكثر من الاندهاش والتعجب، وليكف عن الحديث عن هذه المعجزة، ويشغل نفسه بما هو أولى من الحديث مع الناس في هذه المسألة.

ولا شك أنه لو فتح باب الحديث عن هذه البشرى بمولود جديد لاستغرق مجالس الناس وكثر تداول الخبر بينهم، بل إن البشارة بهذا المولود حال اليأس من المحيض وكبر السن واستيئاس الرسل في الدعوة، لهو أدعى إلى الاستغراق في الحديث والانشغال بذلك الموضوع عن ذكر الله تعالى، والله تعالى يريد أن يعامل أنبياءه بما لا يشغلهم عن ذكره، ولنا في نبي الله سليمان أسوةٌ حسنة لَمَّا عاقب نفسه عندما انشغل بعرض الجِياد عن أذكار المساء، قال تعالى مخبرًا عن قول سليمان: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ \* رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: 32، 33]، ومن ثَمَّ كان تعطيل لسان زكريا عن الكلام ثلاثةَ أيامٍ فيه من الحِكَم ما لا يخفى.

قال السعدي: (فكما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يُوجِدها بدون أسبابها، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره)[[142]](#footnote-142).

فأمر الله تعالى بحبس لسانه عن أمور الدنيا، أما الذكر والتسبيح، فقد كان لسانه جيدًا، وهذا من المعجزات الباهرة[[143]](#footnote-143)، فإذا ضعُفت الأسباب عن تحقيق النصر ولم تضعف الثقة في الله، وظهرت بشريات النصر، فلا بد من التزام الذكر حتى يضحي آيةً للمرابطين: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران: 41]، لِمَ لا وقد شُرِع الذكر في موطن ملاقاة العدو، بل هو من أسباب النصر، ليكون انشغال القلب بالذكر أولى من انشغاله بمدافعة العدو، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45]، ليكون القلب معلقًا بالله، وتكون سائر الجوارح آخذة بالأسباب في طاعة الله، {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46].

ولعل هذه الأحداث وتأييد الله تعالى لزكريا بهذه المعجزة، إنما هو تمهيد للمعجزة الكبرى، وتهيئة الناس لاستقبالها، وقد استقبلت عقولهم أن يولد طفل رضيع من امرأة عاقر وشيخ كبير، فتكون أقرب لقَبول ولادة مريم لعيسى عليه السلام بلا أبٍ، ولتتقبل معجزة أن ينطقَ وهو في المهد، وما بُشِّر به من أنه سوف يكون نبيًّا لهذه الأمة، فيكون ذلك كله داعيًا لأن يستبشر المؤمنون بقرب النصر بعدما استحرَّ القتل بالأنبياء حتى طال زكريا صاحب المعجزة الأولى ويحيى عليهما السلام.

أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريقه عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِي به رأى زكريا في السماء فسلَّم عليه، فقال له: ((يا أبا يحيى، خبرني عن قتلك كيف كان؟ ولِمَ قتلك بنو إسرائيل؟))، قال: يا محمد، إن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجهًا، وكان كما قال الله: {سَيِّدًا وَحَصُورًا}، وكان لا يحتاج إلى النساء، فهويته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغيًّا، فأرسلت إليه، وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها، وأجمعت على قتل يحيى، ولهم عيدٌ يجتمعون في كل عام، وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب، فخرج الملك للعيد فقامت امرأته فشيَّعته، وكان بها معجبًا، ولم تكن تسأله فيما مضى، فلما أن شيعته قال الملك: سليني فما تسأليني شيئًا إلا أعطيتك، قالت: أريد دم يحيى بن زكريا، قال لها: سليني غيره، قالت: هو ذاك، قال: هو لك، فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي، وأنا إلى جانبه أصلي، فذبح في طستٍ، وحمل رأسه ودمه إليها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فما بلغ من صبرك؟))، قال: ما انفتلت من صلاتي، فلما حمل رأسه إليها ووضع بين يديها - فلما أمسوا - خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: لقد غضب إلهُ زكريا لزكريا، فتعالوا حتى نغضبَ لملكنا، فنقتلَ زكريا، فخرجوا في طلبي ليقتلوني، فجاءني النذير، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ، فلما أن تخوفت ألا أُعجِزهم، عرضت لي شجرة فنادتني فقالت: إليَّ إليَّ، وانصدعت لي، فدخلت فيها، وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي، والتأمت الشجرة، وبقي طرف ردائي خارجًا من الشجرة، وجاء بنو إسرائيل، فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة! هذا طرف ردائه دخل به الشجرة، فقالوا: نحرق هذه الشجرة، فقال إبليس: شقوه بالمنشار شقًّا[[144]](#footnote-144).

وعن عبدالله بن الزبير بن العوام قال: لقد ذكر لي إنما قتل يحيى بن زكريا في زانية كانت جارية[[145]](#footnote-145).

وعن هشام بن عروة عن أبيه، قال: ما قُتِل يحيى بن زكريا إلا في امرأة بغيٍّ، قالت لصاحبها: لا أرضى عنك حتى تأتيَني برأسه، قال: فذبحه فأتاها برأسه في طست[[146]](#footnote-146).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله عز وجل: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: 21]، قال: بعث عيسى ابن مريم في اثنَي عشر رجلاً من الحواريِّين، يعلمون الناس، فكان ينهاهم عن نكاح ابنة الأخ، وكان ملك له ابنة أخ تعجبُه، فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة، فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجتك فقولي له: أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال لها الملك: حاجتك؟ فقالت: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا، فقالت: لا أسالك غير هذا، فلما أتى أمر به فذبح في طست، فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصَّر، فدلت عجوز عليه فأُلقِي في نفسه ألا يزال القتلُ حتى يسكن هذا الدم، فقتَل في يوم واحدٍ، من ضربٍ واحدٍ، وبيتٍ واحد، سبعين ألفًا[[147]](#footnote-147).

قال العلامة ابن باز: (وقتل الحسين ليس هو بأعظمَ من قتل الأنبياء، وقد قُدِّم رأس يحيى عليه السلام مهرًا لبغيٍّ، وقتل زكريا عليه السلام)[[148]](#footnote-148)، وبقتل زكريا انتهت سلسلة قتل الأنبياء، ولم يبقَ إلا محاولتهم الفاشلة في قتل المسيح عيسى ابن مريم.

**المطلب الثاني**

**الاصطفاء على الاصطفاء تمهيد لتحقق المعجزات**

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ \* يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ \* ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (مريم /42 - 44)

وهنا يأتي الاصطفاء على الاصطفاء، ويأتي ذلك لَمَّا تكون المهمة الموكلة للمصطفى هي حفظَ الدين وتوريثَه للناس، بل وتأييد رسالة نبي يأتي هو خاتم النبيِّين، يأتي بمعجزة لم تألَفْها العادة ولا تخطر ببال، بأن يكون المنهج ذاته هو معجزة هذا الدين، وقد كانت هذه المهمة موكلةً لعيسى ابن مريم؛ حيث اصطفاه الله تعالى لأن يكون آخر أنبياء بني إسرائيل، واصطفاه كذلك ليكونَ آخر الناصرين لدين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملته.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقوم الساعةُ حتى ينزلَ فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد))[[149]](#footnote-149).

ومن ثَمَّ كان اصطفاء مريم لأن تحمل أمانة هذا المصطفى، تتطلَّب أن تتطهر ويتم اصطفاؤها على نساء العالمين، فإنها سوف تُواجِه الكثير من المصاعب لأن تسيح في الأرض بابنِها الرضيع الذي تحاول الأيدي أن تخطفه منها، والسيوف أن تُهرِق دمه، فطافت به العالَم كله حتى تحفظ هذه الأمانة.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران))[[150]](#footnote-150)؛ أي: الواصلة إلى مراتب الكاملين في الاقتداء بهن، وذكر محاسنهن ومناقبهن وزهدهن في الدنيا وإقبالهن على العقبى[[151]](#footnote-151).

قال السعدي: (الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلِها على سائر نساء العالمين، إما على عالَمِي زمانها أو مطلقًا، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك؛ كخديجة، وعائشة، وفاطمة، لم ينافِ الاصطفاء المذكور))[[152]](#footnote-152).

وكذلك اشتركت مريم الصدِّيقة مع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في التطهير، لقولِه تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]، وكذا عيسى ابن مريم، قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: 55].

قال ابن عجيبة: (لا يصطفي الله العبدَ لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل، وتحليته بأنواع الفضائل، وقطعه عن قلبه الشواغل، والقيام بوظائف العبودية، وبالآداب مع عظمة الربوبية، والخضوع تحت مجاري الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار)[[153]](#footnote-153).

ولعل اصطفاءها بعد التطهير لأجل المهمة التي أُلقِيَت على عاتقها بالحفاظ على رضيعها "عيسى" من أيدي المعتدِين الذين يريدون قتله، حتى إنه سمي المسيح لأجل سياحته في الأرض فرارًا بدينه ودعوته، فلفظ (المسيح) على وزن فعيل، صرف من مفعول إلى فعيل، وإنما هو ممسوح، وكلمة "المسيح" تطلق على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما تطلق على المسيح الدجَّال، ولذلك قيل إنه مسيح لسياحته في الأرض، فقد كان كثير الحركة والتنقل، وذلك لنشر دعوته، ولاضطهاده ومحاولات قتله، ولذلك قيل للمسيح.

أما الدجَّال، فإنما قيل له مسيح لمسحه الأرض وقطعه لها، وقيل غير ذلك، فعن ابن عباس أنه قال: إنما سمي عيسى مسيحًا؛ لأنه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا برأَ، ولا يضيع يده على شيء إلا أُعطِي فيه مُراده.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: سمي المسيح مسيحًا؛ لأنه كان يمسح الأرض؛ أي: يقطعها، ويقال: إنما سمي المسيح مسيحًا لسياحته في الأرض[[154]](#footnote-154).

والظروف التي أحاطت بزكريا ومريم وابنَيْهما يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، وإن كانت لتشهد أن أهل الحق مهدَّدون بالقتل في كل لحظة إلا أنها تشهد كذلك بأن الحق لا يزال قائمًا بالرغم من شدة الباطل في الصد عن سبيل الله تعالى، وذلك من خلال مسارعة المجتمع المحيط بامرأة عمران في كفالة مريم عليها السلام.

قال ابن تيمية: (فهذه مريم احتاجت إلى مَن يكفُلُها ويحضنُها، حتى أسرعوا إلى كفالتها، بل وتنافسوا على ذلك، فكيف غيرها من النساء، وهذا أمر معروف بالتجرِبة، أن المرأة تحتاج من الحفظ والصيانة ما لا يحتاج إليه الصبي، وكل ما كان أستر لها وأصون كان أصلحَ لها، ولهذا كان لباسُها المشروع لباسًا يسترها)[[155]](#footnote-155).

فطالما في المجتمع مَن يُسارِعون في أعمال البر، وكفالة اليتامى، وإطعام المساكين، وطالما يوجد فيه مثال للمرأة المسلمة العفيفة الطاهرة، فلا شك أن النصر لا بد وأن يتحقَّق على أيدي هؤلاء مهما قل عددهم، ولو استُئصِلت شأفتهم، فإن بذرة النصر التي بذروها لا بد وأن تنبت بإذن الله، ولن تقوم الساعة حتى يتحقَّق النصر بفضل تلك البذرة التي بذروها من قبل.

**المطلب الثالث**

**أثر المعجزات في تثبيت المؤمنين وكشف أصحاب الأهواء**

قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ... إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [45 - 60].

كان في تبشير مريم عليها السلام بمعجزةِ خلق عيسى عليه السلام - بالرغم من أنه لم يمسَسْها بشر - تخطٍّ لحدود الأسباب كذلك؛ إذ لم يقتصر الأمر على تفعيل الأسباب فحسب، وإنما تتحقق المعجزات المؤيِّدات للحق وأهله في أحلك لحظات التكذيب وتقتيل الأنبياء، فلما كان بنو إسرائيل لا يتورَّعون عن قتل أنبيائهم بحجة أن ما معهم من معجزات لم يكشف لهم عن رؤية الله، أو لم تتعدَّ حدود ما غاب عن أهل الدنيا مما هو مدَّخَر للآخرة، فإن المولى سبحانه جعل في خلق عيسى بلا أب، وكلامه في المهد لتبرئة أمه من أن يكون مسها بشر بلا زواج، ونفخه في الطين لإحياء الموتى بإذن الله، وشفاء المرضى بإذن الله، وإطلاعهم على ما غاب عنهم مما كتبه الله تعالى فيما يستقبل من رزقهم ومطعمهم ومشربهم - كل ذلك كافٍ لقطع كل حجة عليهم أن يقتلوه إلا بعد أن يقيموا الحجة على أنفسهم أنهم يقتلونه بغيًا وظلمًا وعدوانًا.

لقد كانت الحاجة داعيةً أن يأتي نبي جديد لبني إسرائيل بمعجزةٍ يشقُّ عليهم إزاءها أن يقتلوه لانبهارهم بها، فكلما أتاهم نبي كذَّبوه وقتلوه، وليس قتلهم ليحيى بن زكريا ببعيد من محاولتهم قتل عيسى ابن مريم الفاشلة، ومن ثَمَّ حفظ الله نبيه عيسى ابن مريم ليكون حجَّةً قاطعة عليهم بأن الله تعالى يحفظ أنبياءه، وقادر على أن يَحُول بينهم وبين بني إسرائيل، بَيْدَ أن الحكمة من خلقه تجلَّت لَمَّا تكلم في المهد، وأفصح عن أنه ليس له والد: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا \* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا \* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا \* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا \* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: 29 - 33]، وهو الأمر الذي جعل بني إسرائيل في ذهولٍ من أمره؛ حيث ثبتت براءة مريم بنت عمران بشهادة طفل رضيع، فإذا هم صدقوه في المهد، أليس أحرى بهم أن يُصدِّقوه وهو رجل؟ وقد عزَّز الله تعالى على يدَيْه المعجزات، فأعطاه من المعجزات ما كفى بني إسرائيل عن طلب غيرها، حتى إنه أضحى يُخبِرهم بالغيب بما يأكلون وما يدَّخرون بإذن الله، وهو أشد ما يحتاجه بنو إسرائيل للتمول والاقتصاد، ويبرئ المرضى بإذن الله، وهو أقصى ما يتمنونه لأجل الصحة والمعافاة، ويخلق لهم من الطين طيرًا، ليحقق لهم أقصى درجات الإبهار والتسلية، فكانت معجزاته أشبهَ بقدرة الله تعالى في خلقه وتدبير رزق عباده وشفائهم من كل داء، الأمر الذي أوقعهم في الفتنة به، فعبدوه من دون الله، وإن كان المقصد من تأييده بتلك المعجزات هو قطعَ كلِّ حجة على بني إسرائيل لأن يكذبوه ولأن يهمُّوا بقتله، وبالرغم من ذلك لم يتغير منهجهم مع أنبياء الله تعالى، فمكروا لقتله، ولكن الله تعالى رفعه إليه، فكانت محاولة قتله خير شاهد على ظلمهم، وهنا نخلص لنتيجة مُؤدَّاها أن المعجزات المادية ليست هي التي ينشرح بها القلب للإيمان، فقد ازداد بنو إسرائيل قسوةً لَمَّا مكروا لقتله بعدما رأوا المعجزات، وازداد قوم عيسى عليه السلام ضلالاً لَمَّا أذهلتهم المعجزات وفُتِنوا بها، فعبدوا عيسى ابن مريم من دون الله، فلم تَصِرِ الأمورُ إلى هدى الله؛ حيث أضحى عيسى ابن مريم بين كفر المغضوب عليهم الذين يريدون قتله، وكفر الضالين الذين عبدوه من دون الله، ولذلك اشترط عيسى عليه السلام على الحواريين نصرته، فإن لكل نبي حواريين، وكان حواريُّو عيسى ابن مريم مثالاً يَحتذِي به حواريُّو رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا نصروه في أُحُد وقد التف الكفار حوله ليقتلوه صلى الله عليه وسلم[[156]](#footnote-156)، فعن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد[[157]](#footnote-157).

وهنا وقفة لأصحاب الدعوة والذين يبحثون عن منهج حركي لها في فترات علوِّ الكافرين وقلة الناصرين؛ حيث ينادي عيسى ابن مريم في أتباعه: مَن أنصاري إلى الله؟

قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ \* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52]، فعن ابن مسعود قال: "نحن أعلم الناس من أين تسمَّت اليهود باليهودية، والنصارى بالنصرانية، إنما تسمت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى: إنا هُدْنا إليك، فلما مات قالوا هذه الكلمة كانت تعجبه فتسمَّوا اليهود، وإنما تسمت النصارى بالنصرانية لكلمة قالها عيسى: مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فتسموا بالنصرانية[[158]](#footnote-158).

وهذا هو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حينما مُنِي المسلمون بالهزيمة في أُحُد؛ حيث انتدب منهم مَن خرج في أحد ولم تجفَّ دماؤهم من الجراح ليقاتلوا من الغد في حمراء الأسد، ومضى على ذلك فعل الصحابة والتابعين اقتداءً بالأنبياء من قبلهم، فعن التابعي الجليل ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[[159]](#footnote-159).

وهكذا كلما وقعت فتنةٌ تثبَّت أهل الحق والدعوة ممن ينضمُّ إليهم ويؤازرهم ويمضي معهم على الجادة والصراط المستقيم.

بَيْدَ أن الأمر لم يقف عند مرحلة تميز الفريقين، فريق الكافرين برسالة عيسى وفريق المناصرين له، وإنما تطوَّر الأمر إلى أن مكر الكفار ليقتلوه، والانقلاب على آخر أنبياء بني إسرائيل، والذي يفترض أنه يكون القائد السياسي لهم، وأن يؤول الحكم له بأمر الله كما ظهرت على يديه المعجزات بإذن الله، ولكن الله أسرع مكرا، وهو خير الماكرين، ليؤجِّل الله تعالى حسم الصراع مع الذين كفَروا إلى آخر الزمان، ليرفع عيسى ابن مريم إليه في سماواته، ثم يبعثه مرة أخرى ليقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويقيم الدين على ملة دين أبيه إبراهيم عليه السلام وشريعة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، ويبين الله آياته ويحقق حكمته من خلقه على يد نبيه عيسى كما بدأها على يد آدم عليهما السلام.

قال الرازي في حوارٍ بينه وبين نصراني:

(قال النصراني: أنا لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كان نبيًّا، بل أقول إنه كان إلهًا.

فقلت له: الكلام في النبوَّة لا بد وأن يكون مسبوقًا بمعرفة الإله، وهذا الذي تقوله باطل، ويدل عليه أن الإله واجب الوجود لذاته، فيجب ألا يكون جسمًا ولا متحيزًا ولا عرضًا، وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدومًا، وقُتِل بعد أن كان حيًّا - على قولكم - وكان طفلاً أولاً، ثم صار مترعرعًا، ثم صار شابًّا، وكان يأكل ويشرب ويُحدِث، وينام ويستيقظ، وقد تقرر في بداهة العقول أن المُحدَث لا يكون قديمًا، والمحتاج لا يكون غنيًّا، والممكن لا يكون واجبًا، والمتغير لا يكون دائمًا)[[160]](#footnote-160).

وليس أيسر من القرآن في الرد عليهم بقوله تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المائدة: 75].

وإزاء معجزات نبي الله عيسى عليه السلام التي لم يرضخ لها بنو إسرائيل، وبالرغم من ماديتهم، وأن الله تعالى جاء إليهم بأقصى ما يحلُمون به ويطلبونه من مادية، بَيْدَ أن ذلك كله لم يوافق هواهم، لعلمهم أن مقابل هذه المعجزات أن يسلموا لله ويذعنوا له بالعبادة، فيتركوا المادة طوعًا، ليُقبِلوا على ما تزكو به أنفسهم اختيارًا، وذلك بخلاف مادية السامري التي ازدادوا بها مادية إلى ماديتهم، فلم تزكُ روحهم وازدادوا بها بعدًا عن الله، فإن منهج قوم عيسى عليه السلام كان على خلاف منهج بني إسرائيل؛ حيث عمد الكثير منهم إلى المبالغة بهذه المعجزات، فلم ينتبهوا إلى أن ذلك كله بإذن الله، وإنما اعتبروا أن ذلك دليلٌ على أن عيسى عليه السلام ابن الله، فضلُّوا بهذا الاعتقاد، وأضلُّوا غيرَهم، وظلت عقيدتهم الفاسدة تُتَوارث حتى جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وخاطبهم القرآن الكريم، فأفصح لهم عن حقيقة عيسى ابن مريم الذي فيه يختلفون، بأنه ليس هو ابنَ الله أو الله، وليس ثالث ثالثة (الأب والابن وروح القدس)، ليُؤكِّد لهم حقيقته، وأنه نبي الله وعبد من عباده، وأن معجزة خلقه لا يستعصي على العقل فهمُها، كما في معجزة خلق آدم عليه السلام، وأنها من دلائل كمال قدرة الله تعالى، الذي خلق آدم بلا أم وأب، وخلق حواء بلا أم، وخلق عيسى بلا أب، وخلق الناس جميعًا بأب وأم، فاكتملت دلائل قدرته، لتخرج من حيِّز القدرة والتمكن إلى حيز الذي مضى وكان، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يكون له كن فيكون.

وهنا تكتمل الفائدة ويستوعب المسلمون عقيدة النصارى ليشرعوا بعد ذلك في دعوتهم، وقد علَّمهم القرآن ما يجول بخاطرهم، وما يقع في قلوبهم من شبهات، ليشرع الدعاة إلى محاجاتِهم ودعوتهم إلى كلمة سواء في أمر عقيدة التوحيد لله تعالى، كما أنزلها على رسله السابقين، وهو الأمر الذي استتبع أن يرجع بهم إلى أصل الاعتقاد في الله تعالى منذ أن نزل الوحي بالكتب والرسالات على إبراهيم عليه السلام.

**المحور الثالث**

**وسائل المرابطين في دعوة أهل الكتاب للإسلام**

**الآيات (61 - 99):**

تنتقل السورة لبيان وسائل الإسلام في دعوة أهل الكتاب، والتي لا بد فيها من فتح سبلٍ للحوار مع أهل الكتاب، وخُصَّ أهل الكتاب بالذكر؛ لأنهم أقرب للدعوة من غيرهم من المشركين، وتتنوَّع أساليب الحوار من المباهلة والتحدي، إلى المؤتمرات الحوارية والنقاشات الفكرية، إلى المحاججات العقلانية والمناظرات الفكرية، وهذا جانب من أساليب الدعوة لا يغني عنه ضرورة فضحهم، وإظهار كذبهم، وأساليبهم الملتوية في التضليل والخداع، واندساسهم في صفوف المسلمين، ثم الانقلاب عليهم لنشر الفتنة في الدين، ومحاولاتهم المتكررة في سرقة أموال الأميين من المسلمين، سواء أكانت أمية في الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة... إلخ، متى مكَّنتهم من سرقة أموالهم بغير حق، وَلَي ألسنتهم بالكتاب لتلبيس الحق بالباطل، وتأويل الكتاب بغير حق، وتطويع النصوص وَفْقًا لهواهم، فضلاً عن كشف الأئمة المضلِّين منهم، وفضح التنظيم الكهنوتي الذي يجعل الربوبية لغير الله تعالى في نظام متدرج يعبدُ فيه الصغيرُ في المرتبة الأعلى منه مرتبةً؛ ليضمنوا عدم وصول الإسلام لأبنائهم.

فإذا فرغت السورة من إيضاح هذا الجانب كذلك، شرعت بعد ذلك في التركيز على مفهوم أن الإسلام عقيدة راسخة لا تتبدل ولا تتغير، وتؤكد هذا المعنى بالإشارة إلى ميثاق الأنبياء وتبعيَّتِهم للنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، ونصرتهم له، في إشارة إلى إمامته لهم في رحلة الإسراء والمعراج، وأن دين جميع الأنبياء هو الإسلام، لتحذر من مغبَّة الردة بعد الإسلام والكفر بعد الإيمان، والانقلاب بعد الاتباع، ثم هي - السورة - تطرق جانبًا رابعًا من جوانب وسائل دعوتهم بالتأكيد على أن شريعة الإسلام نسخت كل الشرائع التي سبقتها، ودون استطراد في تفاصيل هذه الشريعة واستقصاء للتكاليف الربانية، وإنما أفصحت عن مقاصد جميع التكاليف الشرعية، وأن المقصد منها الوصول إلى مرحلة البِرِّ، وذلك بأن يكون عمل الخير أحب للمرء من كل شيء، كما أنها بإجمال عرَّجت على مسألة الحل والتحريم، وأن الظلم هو سبب كل حرام، وأن اتباع ملة نبينا إبراهيم وقصد البيت الحرام، هو أظهر شعائر الإسلام، ومن هذه الشعيرة ينظر إلى الإسلام والمسلمين، وتقوم الحجة على الكافرين، وأخيرًا توجه السورة العتاب واللوم لمن أصرَّ على الكفر من أهل الكتاب.

**المطلب الأول**

**فتح سبل للحوار مع أهل الكتاب**

**الآيات: من (61) - (68)**:

قوله تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ... إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 61 - 68].

**أولاً: المباهلة أول سبل الحوار الجدلي مع أهل الكتاب وآخر سبل الدعوة بالحسنى:**

قال تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: 61].

الحوار أول سبل هذه الدعوة، فمن المهم أن يفتح المسلم هذا الباب مع الآخر، فيكون هناك سبلٌ للتواصل والمناقشة والمراسلة بين أهل الكتاب والمسلمين، ولعل أسلوب التحفيز في الحوار - بمعنى المبارزة الحوارية أو المناظرات الفكرية - مما يحمس كل طرف لأن يجمع أمره، ويستذكر دروسه حتى يقابل الحجة بالحجة والبينة بالبينة، ومن ثَمَّ كانت المباهلة وسيلةً إيضاحية وبيانية مؤكِّدة لأهل الكتاب ثقةَ المسلمين في دينهم واعتزازهم به، ليقطعوا عليهم كل وسيلة تطمعهم في أن يردونا عن ديننا[[161]](#footnote-161).

وحاصل كلام العلماء في حكم المباهلة أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعًا وقع فيه اشتباه وعناد، لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة، والسعي في إزالة الشبه، وتقديم النصح والإنذار، وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها[[162]](#footnote-162).

وهذا هو عين الذي حصل عندما استطرد القرآن في حكاية خلق عيسى ويحيى عليهما السلام، وتأييد المسيح بالمعجزات، وتبرئته من قومه، ونصرة الحواريين له، ومحاولة قتله كما أسلفنا.

قال ابن القيم الجوزية: (السُّنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حُجَّةُ اللهِ، ولم يرجعوا، بل أصرُّوا على العناد أن يدعوَهم إلى المباهلة)[[163]](#footnote-163).

والمعنى أن المباهلة هي أول صور الحوار الجدلي، وآخر سبل النقاش الإقناعي، وكأنها مرحلة تتوسَّط مرحلتَي المجادلة بالحسنى والدعوة بالتي هي أحسن، فالأصل في الدعوة أن تكون بالتي هي أحسن، فلا يكون للجدال فيها محل، لكن ماذا لو تطرَّق الجدال للحوار العقائدي من جانب الذين كفروا؟

هل يقف المسلمون مكتوفي الأيدي، أم يعلمونهم أنهم أقدر على مجادلتهم بالحسنى ورد شبهاتهم؟

وليعلنوها صراحة بالشروع في الابتهال لله تعالى بأن تنزل لعنة الله على الكاذبين، وكأنه شرط جزائي للدخول في مجادلة لا طائل منها غير إضاعة الوقت وتشتيت الجهد.

فالمباهلة نوع من المكاشفة للنفس لتصارح ذاتها، هل ترضى هذا الدين لنفسها ولأبنائها ولزوجاته أو زوجها... إلخ؟!

فهي نوع من إعادة التفكير في الأمر باعتبار المصلحة، هل نرضى لأهلينا أن تنزل عليهم لعنة الله تعالى، فإذا كان هناك ما يشغلنا - نحن أهل الكتاب - عن الجنة ويعطلنا عن نطق الشهادتين؟!

وإذا كنا نكابر عن أن ندخل في الإسلام، أفلا يظل عنادنا مانعًا لأولادنا أن ينجوا بأنفسهم مع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يصيروا مصيرنا؟

ونحن نعلم - نحن اليهود أو النصارى، أو أهل الشرك - أن ديننا باطل، فها هو رسول الله يُفكِّر معهم بحيادية فيدعوهم لأن تنزل اللعنة عليه وعلى أولاده وزوجاته إن كان كاذبًا، أو أن تنزل عليهم وعلى أولادهم وأزواجهم إذا أصرُّوا على ما هم عليه من الكفر.

فعن سعد بن أبي وقاص قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} [آل عمران: 61]، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحسينًا، فقال: ((اللهم هؤلاء أهلي))[[164]](#footnote-164).

فهو محض تحدٍّ لإظهار الثقة بأنهم على الحق، وإظهار للشفقة على أولاد الكفار وأزواجهم أن يصير مصيرُهم مثل مصير آبائهم، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد من أهل الكتاب أن يقل العناد عندهم لأجل أبنائهم، كما حدث مع والدَي خادمِه اليهودي، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلامٌ يهودي يخدمُ النبي صلى الله عليه وسلم، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: ((أسلِمْ))، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))[[165]](#footnote-165).

وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف؛ إذ كيف ينتشر بالسيف وهو يدعوهم للمباهلة؟!

يقول ابن القيم الجوزية:

"لم يزلِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في جدالِ الكفار على اختلاف مِللهم ونِحَلِهم إلى أن تُوفِّي، وكذلك أصحابُه من بعده، وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحُجَّةِ إلى المُباهلة، وبهذا قام الدينُ، وإنما جُعِلَ السيفُ ناصِرًا للحُجَّة"[[166]](#footnote-166)؛ أي: حينما يعجز اللسان عن كسر شوكة المتكبرين منهم، الذي قال الله عنهم: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: 33]، فإن السيفَ يكسر هذه الشوكة لتظل الحجة محرَّرة عن أي تدليس أو تضليل، أو تعتيم أو تحريف، وتظل الصلة بين الدعاة إلى الله تعالى والناس موصولة، لا يقطعها قاطع أو صادٌّ عن سبيل الله، {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف: 44، 45]، وتزال به كل سبل قطع السماع عن الذين آمنوا وبلاغ البيان للذين كفروا، فلا يكون السيف أبدًا إلا لأجل أن تصل كلمة الحق لمسامع الناس من وراء الصادِّين عن سبيل الله تعالى.

**ثانيًا: المجادلة بالحسنى بقصد الوصول إلى كلمة سواء:**

قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64].

من الضروري أن يتغيَّر أسلوب الحوار مع أهل الكتاب ليتحوَّل من المباهلة والتحدي إلى الدعوة بالحسنى والاتفاق على كلمة سواء، ونفي سبل الشرك في العبادة لله، فالتنوع في أسلوب الخطاب ينير العديد من العقول المظلمة، ويفتح كثير من القلوب المغلقة، يقول سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: 125].

يقول الشوكاني:

(ورد تسويغ الجدال بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 46]، فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة، أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة)[[167]](#footnote-167).

ولذلك كثُرت رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى كلِّ مَن حوله من ملوك الفرس والروم والحبشة، يدعوهم فيها إلى كلمة سواء، ونبذِ كلِّ ما يُؤدِّي إلى الفُرْقة في أمر الاعتقاد في الله، فالاجتماع على بحث هذه المسألة هو أوَّل طريقٍ للوصول إلى الحق، ودليل على عدم الكبر في اتباع الحق لو قامت الحجة والبينة عليه، وعدمُ الاكتراث لهذا الأمر من أوَّل علامات الشروع في الصد عن سبيل الله، ولذلك أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خطابَه لهرقل ملكِ الروم وقال فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على مَن اتَّبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تسلَمْ يُؤتِك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأَرِيسيِّين، و{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64][[168]](#footnote-168).

ولقد أصرَّت حاشية ملك الروم من الوزراء والبطارقة على الرفض لدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم السلمية، وأصرُّوا على إعلان الحرب على المسلمين، فبدؤوا يُحرِّضون القبائل العربية في العراق والشام على حرب المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم، وعلم المسلمون بإصرار الروم على الحرب، فبدؤوا يستعدُّون لهذا اليوم، غير أن الفتن الداخلية شغلت كسرى وهرقل عن الهجوم لفترة من الوقت[[169]](#footnote-169).

وقد أوَّل بعض الكتَّاب (الكلمة السواء) في الآية إلى أنها:

"فعل الصالحات النافعات للبشرية، ومواجهة الطغيان، وتحقيق معرفة كل طرف بالآخر".

وهذا تأويل بعيدٌ عن معنى الآية ودلالتها، فالمتأمِّل في الآية يدرك أن كلمة السواء مفسَّرة وليست مطلقة، بحيث يتصور القارئ ما شاء في تحديدها[[170]](#footnote-170)، والظاهر أنه يقصد بهذه الدعوة التأكيد على أن "القرآن ليس دعوة إلى دين جديد، وليس محاربةً للمسيحية أو مناهضة لها، وإنما ما عُرِف بالمسيحية قبل بعث محمد عليه السلام هو من الإسلام، فالإسلام قبل محمد إنما هو دعوة المسيح الحقيقية إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو، والإيمان بالإنجيل المنَزَّل من الله سبحانه وتعالى على المسيح عليه السلام، ولذلك أوضح القرآن بحقٍّ أن أهم ما يأخذه على المسيحية كما عُرِفت بعد المسيح عليه السلام، هو تأليهُ المسيحيين للمسيح، واتخاذهم له إلهًا من دون الله، مناقضين بذلك قضية الدين عند الله ذاتها"[[171]](#footnote-171).

ومن هنا كان التوحيد أوَّل ما يدعو إليه الإسلام أهل الكتاب {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ}، فإذا لم نتَّفِق على هذه الكلمة، فليس ثَمَّة معنى لأن نتفق بعد ذلك في أي أمر من أمور الاعتقاد أو العبادة، فقد انهدم أساس كل اتفاق أو تقارب مُزمَع طالما كان الشرك بالله تعالى هو أساسَ عبادتهم لله، ولذلك أردفها المولى بقوله: {وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

قال ابن جُرَيج في قوله تعالى: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}؛ يعني: (يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله)[[172]](#footnote-172).

وعن عَدِي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليبٌ من ذهب، قال: فسمعته يقول: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة: 31]، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم، قال: ((أجل، ولكن يُحلُّون لهم ما حرَّم الله فيستحلونه، ويُحرِّمون عليهم ما أحل الله فيُحرِّمونه فتلك عبادتهم لهم))[[173]](#footnote-173).

من هنا يتبيَّن أن أساس العبودية لغير الله تعالى هو الاحتكام لغيره والتشريع بخلاف حكمه، فمَن احتكم للبشر ولم يحتكم لله، ومَن انصاع لقوانين البشر ولم ينصَع لحكم الله، فقد عبد من دون الله، ولم يعبدِ الله وإن زعم حبه واتباعه وتدينه بدين الله.

وبالرغم من أن الأصل في الدعوة أن تكون بالحسنى، وأن المباهلة هي أمر يطرأ عليها، وأن المجادلة تكون بالتي هي أحسن، فإنه عودٌ على ذي بَدْء يتبرأ المسلمون منهم حالما يتولَّى أهل الكتاب عنهم، لتكون المفاصلة بين الفريقين، وليهتم المسلمون حينئذٍ بأمر واحد، ألا وهو إقرار أهل الكتاب بأن المسلمون على دينهم ليظل هذا الإقرار شهادة عليهم أن المسلمين - سواء الذي يصاحبون النبي صلى الله عليه وسلم أو الذين أسلموا من أهل الكتاب - مُؤمَّنون في دينهم وأوطانهم، ولا يعتدي عليهم أحدٌ من أهل الكتاب أو المشركين، قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]، قال الطبري: (فقولوا أيها المؤمنون للمتولِّين عن ذلك: {اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ})[[174]](#footnote-174).

قال الرازي: (يعني أظهروا أنكم على هذا الدين)[[175]](#footnote-175).

من ذلك نفهم أن دعوة الإسلام كلها مكاسب ومصالح، تتحقَّق لأجل حماية الأوطان، فإن لم يتحقَّق منها دخول أهل الكتاب في الإسلام، فإن أقل ما يتحقق منها أن يعيش المسلمون في أمنٍ وأمان على دينهم وأنفسهم وأموالهم، وأهل الكتاب بينهم، أو وهم بين أهل الكتاب؛ وذلك لأجل إلزام المسلمين العمل على أن ينزعوا اعترافًا من أهل الكتاب حتى لو استقلُّوا بدولتهم عن دولة الإسلام بأننا مسلمون، ومن حق المسلم أن يُمارِس شعائره الإسلامية كاملةً في ظهور وأمان دون أن يعترضه أحد، فمن حق المسلم أن يصلي لله تعالى في غير بلاد المسلمين، ومن حق المرأة المسلمة أن تظهَرَ بحجابها في غير بلاد المسلمين، ومن حقهما معًا أن يدعوَا غيرَهما للإسلام ولو في غير بلاد المسلمين، ولا يمنعهم أحد عن ذكر الله ولا يصدهم عن سبيل الله، فإن التزموا هذا الحق، فقد التزموا العهد مع المسلمين.

ولذلك لَمَّا بعث النبي صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس ملكِ مصر برسالته، فلما أتاه كان فيما قال له: (إنَّ هذا النبي دعا الناسَ، فكان أشدَّهم عليه قريشٌ، وأعداهم له اليهودُ، وأقربَهم منه النصارى، ولعَمْري ما بِشارةُ موسى بعيسى إلا كبِشارةِ عيسى بمحمد، وما دعاؤُنا إيَّاك إلى القرآن إلا كدُعائك أهلَ التوارةِ إلى الإنجيلِ، وكل نبي أدرك قومًا فهم من أمته، فالحقُّ عليهم أن يُطيعوه، وأنتَ ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دينِ المسيح، ولكنَّا نأمُرك به)، فقال المقوقِسُ: إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي، فوجدتُه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهَى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجده بالساحِرِ الضَّالِ، ولا الكَاهِنِ الكَاذِب، ووجدتُ معه آيةَ النبوةِ بإخراج الخَبءِ، والإخبار بالنَّجوى، وسأنظر، وأخذ كتابَ النبي صلى الله عليه وسلم، فجعله في حُقٍّ من عاجٍ، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتبُ بالعربية، فكتبَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبدالله، من المقوقس عظيم القبطِ، سلامٌ عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًّا بقي، وكنتُ أظن أنه يخرجُ بالشام، وقد أكرمتُ رسولَك، وبعثتُ إليك بجاريتينِ لهما مكانٌ في القبطِ عظيمٌ، وبِكسوة، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك"، ولم يزد على هذا، ولم يُسلِم[[176]](#footnote-176)، والجاريتان: مارية وسيرين، وقد أسلمَتا في الطريق[[177]](#footnote-177).

ولعل المنهج الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم مع ملك مصر كان توطئة لدخول مصر بعد ذلك في الإسلام صلحًا دون حاجة لقتال؛ حيث استجاب ملك مصر للصلح، لثقتِه في أخلاق المسلمين من جهة، ولعلمه قوتهم وشدتهم من جهة أخرى؛ إذ لم يمتنع الخليفتان أبو بكر وعمر عن إرسال رسلهما لمَلِك مصر يدعوانه للإسلام، حتى أتم الله فتحها صلحًا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت عندئذٍ مصر تحت الحكم البيزنطي، ولم تكن قد استقلَّت إرادتها، ومن ثَمَّ حال الروم بينهم وبين دخولهم الإسلام[[178]](#footnote-178)، وهو الأمر الذي دعا المسلمون أن يبعثوا عمرو بن العاص لمصر حتى يفتحها صلحًا، فأرسل إلى المقوقس أنه ليس بينه وبين المقوقس إلا ثلاث خصال، فقال له: (إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين)، فاستجاب المقوقس للصلح، بَيْدَ أن الروم أبَوْا ذلك، فكتب المقوقس لعمرو قائلاً:

(إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلةٍ من تلك الخصال التي أرسلت إليَّ بها، فأبى عليَّ مَن حضرني من الروم والقِبْط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم، وقد عرَفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أمانًا أجتمع أنا وأنت، في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعًا، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه)، فاستشار عمرو أصحابه في ذلك، فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئًا وغنيمةً، كما صار لنا القصر وما فيه، فقال: قد علمتم ما عهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها أجبتُهم إليها وقبلت منهم، مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم، فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع مَن بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران على كل نفس...

وقال عبدالله بن لَهِيعة عن يحيى بن ميمون الحضرمي: لَمَّا فتح عمرو مصر، صالح أهلها عن جميع مَن فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي، فأحصوا بذلك على دينارين دينارين، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف.

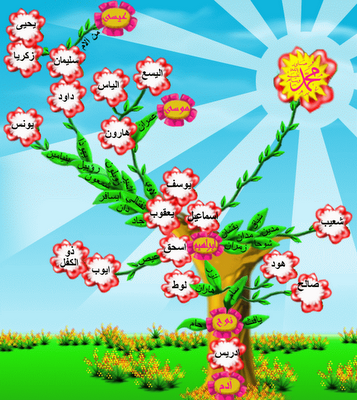
قال: وشرط المقوقس للروم أن يخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازمًا له مفترضًا عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومَن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن المقوقس له الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه بما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه)[[179]](#footnote-179).

**ثالثًا: إزالة حججهم وشبهاتهم:**

قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ \* مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [65 - 68]

إذا ما انفتح سبيل الحوار والنقاش مع أهل الكتاب، فليبادرِ المسلمون في الاستطراد في مجادلتهم بالحسنى، وليشرعوا في دحض شبهاتِهم بيُسرٍ، دون الخوض في كل شبهة لا طائل منها إلا المماطلة والتميع في الحوار.

ليقتصرِ الردُّ على ما اشتبه عليهم من الحق في أصول الملة، وتبعية النبي محمد صلى الله عليه وسلم لذات ملة الأنبياء قبله، ولذلك جادلهم القرآن في قضية ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، باعتباره أبا الأنبياء، بعدما أهلك الله تعالى من قبله من الأقوام السابقين قوم نوح وعاد وثمود، فلما جاء نبي الله إبراهيم جاء من ذريته سلسلة الأنبياء جميعًا.



إذًا مجادلتهم في إبراهيم، واهتمام القرآن الكريم بهذه القضية لها وجاهتُها في دفع شبهاتِهم التي تَحُول بينهم وبين دخولهم الإسلام؛ إذ قالت اليهود: إبراهيم كان يهوديًّا، وقالت النصارى: إن إبراهيم كان نصرانيًّا، وقبل أن يردَّ عليهم القرآن هذه الشبهة يسألهم من أين أتيتم بها؟

وهكذا يعلمنا القرآن طريقة المجادلة، وهي إثبات المعلومة ثم الرد عليها، وليس الرد عليها دون التحقق منها، فيقول سبحانه: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران: 65]؛ إذًا لا بد من دراسة التاريخ، والتحقق من كيفية وصول المعلومة التاريخية لنا، فهل يُسلِّم اليهود والنصارى بأسبقية نبي الله إبراهيم لنبي الله موسى وعيسى عليهما السلام، فإن أقرُّوا بذلك، فليس لهم أن يدَّعوا أنهم يتمسَّكون بأصل الملة، وإن جاز لهم أن يدَّعوا تمسكهم بتبعيتِهم لأصل الملة؛ كأن يدَّعون - مثلما ندَّعِي - أن عيسى يتبع ملة أبيه إبراهيم، وأن موسى يتبع ملة أبيه إبراهيم، كما ندَّعي نحن - أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم - أن محمدًا صلى الله عليه وسلم يتبع ملة أبيه إبراهيم، عليهم السلام أجمعين.

ونحن نعلم أن اليهود يعلمون الحق ويكتمونه، الأمر الذي لا طائل منه من البحث في كتبهم واستخراج هذه الشهادة منهم، بينما النصارى، وقد ضلُّوا عن الحق، فإنه بالرجوع إلى كتبهم يتبين أنهم يقرون بهذه الحقيقة؛ حيث جاء في كتابهم المقدس:

(انظروا إلى إبراهيم أبيكم، وإلى سارة التي ولدتكم؛ لأني دعوته وهو واحد وباركته وأكثرته)؛ )إشعياء ٥١: ٢(.

كما ورد في الإصحاح السابع عشر:

(ولَمَّا كان إبرام ابن تسع وتسعين سنةً، ظهر الرب لإبرام، وقال له: أنا الله القدير، سِرْ أمامي وكن كاملاً، فاجعل عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيرًا جدًّا، أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أبًا لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد إبرام، بل يكون اسمك إبراهيم؛ لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم، وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهدًا أبديًّا لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدِك).

فإذا كان هذا هو قولكم في إبراهيم عليه السلام، فبالله عليهم أخبرونا شيئًا عن ملته ودينه، وقد سكتت كتبُكم عن ذلك، وإنما اتخذتم جل شعائر دينكم من عقيدة التثليث وعبادة عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وقبل الرسول الخاتم، فكيف يتبع إبراهيم عقيدة وشعائر مَن خلفه، بل إننا أحق الناس بإبراهيم؛ لأننا نحج البيت الحرام الذي فيه بقايا آثار إبراهيم عليه السلام، وشعيرة الحج والصلاة، مستقبِلين البيت الحرام الذي رفع قواعدَه نبيَّا الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما من أهم أركان الإسلام، فإذا كنتم تزعمون أن إبراهيم عليه السلام كان على الحق، وأنكم متَّبعوه، تحييدًا لأنفسكم في مجادلتكم معنا، فلتعلموا أن أَوْلَى الناس باتِّباع نبي الله إبراهيم هم أهل التوحيد، وأهل القِبلة، والقاصدون البيت الحرام في الصلاة والحج.

ولَمَّا كان القرآن وهذا النبي صلى الله عليه وسلم يدعوان إلى التوحيد بقول (لا إله إلا الله)، وهذه هي الكلمة التي يدعو إليها الإسلام، ليتفقوا معنا على كلمة سواء، قال الله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 68]، ولذلك تسنَّى للقرآن أن يُبكِّتَهم على مجادلتهم بالجهل، وهذا هو أول سبب لضلالهم، وأنهم أهل جدال، وأسهل الناس انقيادًا وراء الشبهات، فإن جاز لهم أن يجادلوا النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى وموسى عليهما السلام، وقد ردت عليهم سورتا البقرة وآل عمران في شأنهما بما يدحض حُجَجهم، فلا يجوز لهم أن ينتقل جدالهم لمسألة ليست لهم بها علم إطلاقًا، كأن يجادلون في أصل الدين، فهذا من باب استهلاك الوقت للصد عن سبيل الله، قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 66]، فعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتُوا الجدل))، ثم تلا هذه الآية: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: 58] الآية[[180]](#footnote-180).

ومن ثَمَّ يردُّ عليهم القرآن بالنفي القاطع المقترن باستدراك فيه الحجة الداحضة لهذه الشبهة، يقول سبحانه: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} [آل عمران: 67]، فالاستدراك يحصر المسألة الجدلية فيما هو دين إبراهيم الذي تزعمون أنه على ملتكم، ونزعم نحن أننا على ملته، يقول سبحانه: {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67].

إننا نزعم - نحن المؤمنين - بأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، وهو ما يعني أنه لم يكن من المشركين، بينما عقيدة اليهود والنصارى قائمةٌ على الشرك، وهذا هو الأساس الذي نحاجهم به في عقيدتهم، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ \* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:30 – 31].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا كان يومُ القيامة أذَّن مُؤذِّن: تتبع كل أمة ما كانت تعبدُ، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله بر أو فاجر وغبرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: مَن كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرًا ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون، فقالوا: عطشنا ربنا، فاسقنا، فيشار: ألا تَرِدُونَ، فيُحشَرون إلى النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار، ثم يُدعَى النصارى، فيقال لهم: مَن كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون، فكذلك مثل الأول حتى إذا لم يبق إلا مَن كان يعبد الله من بر أو فاجر، أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأَوْه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون، تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم فيقولون: لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثًا))[[181]](#footnote-181).

**المطلب الثاني**

**فضح محاولات الظالمين من أهل الكتاب لإضلال المسلمين**

**الآيات من (69 - 80):**

قوله تعالى: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ \* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ \* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [69 - 71].

لا يكفي أن نفتح سبلاً للحوار مع أهل الكتاب، ولا أن نكتفي بمحاججتهم بالحجج والأدلة الدامغة، ولا أن نردَّ على شبهاتهم، فكل ذلك يُحسِّن من صورة الإسلام لهم، ويزيل كل شبهة حولها، لكنه لا يقبح عبادتهم ولا يذم عقيدتهم، ومن ثَمَّ يقف أهل الكتاب إزاء الإسلام موقف المقوقس ملكِ مصر؛ حيث يبادلون المسلمين السلمية، بل والاحترام وتبادل الهدايا، لكن حينما يكشف المسلمون ضلالاتهم، وفساد أربابهم ورهبانهم، ويفضحون أئمة الضلال منهم، عندئذٍ يتعضَّد الحوار بالأدلة التي تحملهم على ترك عقيدتهم الفاسدة للدخول في العقيدة الصحيحة، ولذلك تنزل آيات الله تعالى لتدعو المسلمين أن يسلكوا معهم هذا المنهج حتى لا يتبع صغارُهم كبراءهم اتباع الضال للمُضلِّل، فيأتي الإسلام ليكسر عَلاقة التبعية بفضح المتبوع، وهم أحبارهم ورهبانهم وأربابهم.

وقد كشف القرآن الكريم عن أشهر سبل مكرِهم وخداعهم، ويتمثَّل ذلك فيما يلي: (الارتداد عن الإسلام كنوعٍ من الفتنة، سرقة أموال المسلمين وإضعافهم اقتصاديًّا، تحريف الثقافة والتاريخ وإضلال الشعوب علميًّا، وأخيرًا وضع تنظيم كهنوتي هرمي سلطوي للصد عن سبيل الله).

**الصورة الأولى: كشف المنقلبين على الأعقاب لدرء الفتنة قبل وقوعها:**

قال تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ \* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [72 - 74].

كشف المولى سبحانه محاولاتهم الملتوية للاندساس في صفوف المسلمين، ثم الانقلاب عليهم، وذلك بهدف نشر الفتنة وتضليل المسلمين عن دينهم الحق، وكم عانى المسلمون منهم حينما نجحوا في اختراق صفوفهم، وظهر خطرهم لما استأمن النبي صلى الله عليه وسلم بعضَهم على كتابة الوحي، مع احترازه منهم وتثبُّته بإعادة كتابته عند الثقات، فعن أنس رضي الله عنه قال: "كان رجل نصرانيًّا، فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانيًّا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا، فألقوه فحفروا له، فأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه[[182]](#footnote-182).

وقال العلماء في قوله: (كان يقول: ما يقرأ محمد إلا ما كتبت له):

"ليس فيه - أي قوله - دليلٌ على أنه قرآن، وليس كل مقروء قرآنًا، وكذا لا يلزم أنه كان يقرأ بنفسه، ولكن كان يأمر به فيقرأ عليه ليعلم الناس فيعلموا ما فيه قبل أن ينفذه إلى مَن يريد إنفاذه إليه"[[183]](#footnote-183).

وفي الحديث إشارةٌ إلى أنه هرب، لأجل خوفِه من العقاب، ولذلك شُرِع حد الردة لمن دخل الإسلام تحايلاً، أو جمع مع الردة جرائم أخرى؛ كسَبِّ الله وسبِّ الرسول، وقتال المسلمين، فتسمى بالردة المغلظة، بَيْدَ أن الآية التي نقف أمام تلاوتها تتحدَّث عن الردة تحايلاً، وقد تضم معها بعض الأمور التي تغلظ فيها الردة؛ كالدعوة إلى الردة والزندقة، والتحزب على المسلمين، والخروج عليهم... إلخ، ففي قوله تعالى عنهم: {وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: 72]، إشارة إلى دعوتِهم المستترة للردة عن الإسلام.

وبلا شكٍّ أن من اليسير إثبات الردة المغلظة بإثبات القرائن التي شددت في حد الردة؛ كالزندقة، والسحر، والدعوة للردة عن الإسلام... إلخ.

أما إثبات الردة المخففة؛ أي المجردة، فسوف نذكر حديثًا نُؤكِّد فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوافِق على إثباتها ولم يقل الأعرابي عن بيعتِه لعدم إقرار ردَّته، وأيًّا كان الأمر، فإن مجرد الردة ضربٌ من ضروب التحايل على الدين، ما لم يكن المرتد مسلمًا بمحض الصدفة، أو أن يكون قد أسلم ولم يصح إسلامه، كأن يسلم ولا يدرك شيئًا عن الإسلام، أو يردد الشهادتين دون أن يفقهَ معناها، فإنه يعذر ويستتاب، ولذلك كثير من العلماء لا يوقع حدَّ الردة على الصبي ما لم يحتلم؛ إذ يشترط لوجوب الحد أن يثبت ابتداءً إسلام المرتد طوعًا واختيارًا، فذلك الذي يدخل الإسلام عن طواعية واختيار يرتفع عنه الحظر في كثير من الأمور، فله أن يخطب المؤمنات، ويطلع عليهن لأجل نكاحهن، ولا يحل له ذلك إن كان مشركًا، ومن ثَمَّ فإن إسلامه ثم ردته فيه شبهة اعتداءٍ على المسلمين في أعراضهم والاطِّلاع على عوراتِهم، ومن ثَمَّ كان عليه الحذر قبل أن يدخل الإسلام ألا يدخله إلا عن طواعية واختيار وإرادة حرَّة، لكيلا تُسوِّل له نفسُه أن يتلاعب بدين الله ويستهزئ بشرعه وحدوده، وإلا اعتبرته الشريعة الإسلامية من المحاربين الذين يجب عليهم حد الردة أو الحرابة [[184]](#footnote-184).

ومن هنا فرَّق شيخ الإسلام ابن تيمية بين نوعين من الردة، فقال:

(الردة نوعان: ردة مجردة وردة مغلظة، والتوبة إنما هي مشروعة في الردة المجردة فقط دون الردة المغلظة)[[185]](#footnote-185).

الردة المجردة التي تقبل معها التوبة، والردة التي فيها محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد، لا تقبل فيها التوبة قبل القدرة[[186]](#footnote-186).

كما أن العلماء فرَّقوا في أمر البدعة بين المغلظة والمخففة، كما فرقوا في المبتدعين بين الداعية وغير الداعية، وكذلك يجب أن نفرق في أمر الردة بين الردة الغليظة والخفيفة، وفي أمر المرتدين بين الداعية وغير الداعية، فما كان من الردة مغلظًا وكان المرتد داعية إلى بدعته بلسانه أو بقلمه، فالأولى في مثله التغليظ في العقوبة، والأخذ بقول جمهور الأمة وظاهر الأحاديث، استئصالًا للشر وسدًّا لباب الفتنة، وإلا فيمكن الأخذ بقول النخعي والثوري، وهو ما روي عن الفاروق عمر، ذلك أن المرتد الداعية إلى الردة ليس مجرد كافر بالإسلام، بل هو حرب عليه وعلى أمته، فهو مندرج ضمن الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، والمحاربة - كما قال ابن تيمية - نوعان: محاربة باليد ومحاربة باللسان، والمحاربة باللسان في باب الدين قد تكون أنكى من المحاربة باليد، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقتل مَن كان يحاربه باللسان، مع استبقائه بعض مَن حاربه باليد، وكذلك الإفساد قد يكون باليد وكذلك الإفساد قد يكون باللسان، وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد، فثبت أن محاربة الله ورسوله باللسان أشد، والسعي في الأرض بالفساد باللسان أوكد" [[187]](#footnote-187).

ولعلنا نذكر بعضًا من صور الردَّة التي ظهرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والتي يَبِينُ منها أن العلة من حد الردة ليس مجرد الكفر، وإنما الجراءة على محاربة المسلمين من وجه، فهذه علة، وينضم إليها علة أخرى لمن لم يكن مسلمًا فأسلم ثم ارتد على الإسلام تحايلاً، فحيلته هذه تستوجب الحد، كذلك ولو لم يكن محاربًا بالسيف فإنه يكون محاربًا باللسان والفتنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الرجل - **الكافر الذي لم يسلم ابتداءً** - فما قتلته لمجرد كفره بل لكفره وجراءته، ولهذا لا أقتل مَن كان عاجزًا عن القتال كالشيخ الهرم ونحوه، وأما **الكفر بعد الإسلام**، فعلة أخرى مبيحة للدم، ولهذا قُتِل بالردة مَن كان عاجزًا عن القتال كالشيخ الكبير، وهذا قولُ مالكٍ وأحمد)[[188]](#footnote-188)، و تفصيل ذلك كما يلي:

**أولاً: الردة المستترة:**

قد يقع ممن أظهر الإسلام ردة بفعله، ولا يزال يتمسك بكونه مسلمًا، وقد تجاوز النبي صلى الله عليه وسلم عنهم؛ لئلا تقع فتنة بين المسلمين، لئلا يُكفِّر بعضهم بعضًا بلا ضابط ولا معيار ثابت، ولا حكم بينهم في ذلك، ولا استناد للأدلة الظاهرة، فعن جابر رضي الله عنه يقول: "غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناسٌ من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريًّا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((ما بال دعوى أهل الجاهلية؟!))، ثم قال: ((ما شأنهم؟))، فأُخبِر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((دعوها فإنها خبيثة))، وقال عبدالله بن أُبَي ابن سلول: أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث، لعبدالله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه))[[189]](#footnote-189).

**ثانيًا**:**الردة المجردة من القرائن المغلظة والمقترنة بالإعذار والاعتذار**:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن أعرابيًّا بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فأصابه وعك، فقال: أقِلْني بيعتي، فأبى، ثم جاءه فقال: أقِلْني بيعتي فأبى، فخرج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المدينة كالكير، تنفي خبثها وينصع طِيبُها))[[190]](#footnote-190).

هنا لم يرخص النبي صلى الله عليه وسلم له في الردة، ولم يقله من بيعته، كما لم يحده؛ لأنه لم يقرن ردته بما يستوجب عقوبته بالحرابة، فلم يسب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتحايل على المسلمات... إلخ، ولكنه خرج لأنه سوف يسلك سلوك المرتدين، فيقع منه فعل مادي يستوجب عليه حد الردة، ومن ثم كان خروجه بمثابة خروج من الحد عندما تتحقق شرائطه، وكان ذلك كذلك، كان لأجل عدم صبره على ما يصبر عليه المسلمون من العيش في المدينة المنورة.

قال العلماء: (وهو الحمى، وقيل: ألمها، وقيل: إرعادها)[[191]](#footnote-191).

قال العلماء (إنما لم يقله النبي صلى الله عليه وسلم بيعته؛ لأنه لا يجوز لمن أسلم أن يترك الإسلام ولا لمن هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم)[[192]](#footnote-192).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال، قال بلال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدِّنا، وصحِّحها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة))، قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله[[193]](#footnote-193).

قال الحافظ ابن حجر: "قوله: (على الإسلام) ظاهر في أن طلبه الإقالة كان فيما يتعلق بنفس الإسلام"[[194]](#footnote-194).

ففي الحديث إشارة إلى أن مجرد الردة المصحوبة بالاعتذار لم يكن يعاقب عليها حدًّا، بل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره، وبيَّن علة ذلك أن المدينة تنفي خبثها؛ إذ لا يضير الإسلام والمسلمين أن ينكشف الخبث عن الناس فيظهروا على حقيقتهم، بل إن في ذلك مصلحةً حتى يبين الحق من الباطل، ويظل لا يدافع عن الحق إلا أهله.

يقول الشيخ محمد عبده: (هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنِيٌّ على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه مَن يعرفه)[[195]](#footnote-195).

وكان مما سأل هرقلُ عنه أبا سفيان من شؤون النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله: هل يرتد أحد من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا، فصدقه هرقل، وكان عالمًا بالكتاب، فقال: (كذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) [[196]](#footnote-196).

**ثالثًا: الردة المجردة من القرائن وبها شبهة التحايل على المسلمين:**

الأصل أن الذي يدخل الإسلام لا بد وأن يدخله عن اقتناع، وهو ما يعني أنه قبل أن يدخل الإسلام، فهو على علم تام ورضاء كامل أنه لن يرتد عليه، وإذا أراد أن يرتد عليه، فإنه يعلم مسبقًا أنه سوف يُقتَل حدًّا، ومن ثَمَّ فلا يدخل هذا الدين إلا مَن هو مُدرِك لما يفعله، ما لم يعتذر ويقيل نفسه ويفارق بلاد المسلمين، كما فعل الأعرابي الذي أصابته وعكة، وعليه، فإن هذا الأصل هو الذي يُحكَم به ما لم يثبت العكس، وهو ما حكم به معاذ بن جبل دون أن يبحث عن أعذار أو أسباب للإقالة، فعن أبي موسى الأشعري: لَمَّا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا موسى أن يذهب إلى اليمن، ثم تبعه معاذ بن جبل، (فلما قدم عليه - معاذٌ - ألقى له وسادة، قال: انزل، وإذا رجل عنده موثق، قال ما هذا؟ قال كان يهوديًّا فأسلم ثم تهود، قال: اجلس، قال: لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به فقتل، ثم تذاكرا قيام الليل، فقال أحدهما: أما أنا، فأقوم وأنام وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي) [[197]](#footnote-197).

وفي رواية لأبي داود: وكان قد استتيب قبل ذلك[[198]](#footnote-198).

قال الصنعاني: (الحديث دليل على أنه يجب قتل المرتد، وهو إجماع، وإنما وقع الخلاف هل تجب استتابته قبل قتله أو لا؟ ذهب الجمهور إلى وجوب الاستتابة لما في رواية أبي داود هذه)[[199]](#footnote-199).

وقال النووي: (فيه وجوب قتل المرتد، وقد أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا في استتابته، هل هي واجبة أم مستحبة؟ وفي قدرها، وفي قبول توبته، وفي أن المرأة كالرجل في ذلك أم لا؟

فقال مالك، والشافعي، وأحمد، والجماهير من السلف والخلف: يستتاب، ونقل ابن القصار المالكي إجماع الصحابة عليه.

وقال طاوس، والحسن، والماجشون المالكي، وأبو يوسف، وأهل الظاهر: لا يستتاب ولو تاب نفعته توبته عند الله تعالى، ولا يسقط قتله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَن بدَّل دينه فاقتلوه)).

وقال عطاء: إن كان ولد مسلمًا لم يستتب، وإن كان ولد كافرًا فأسلم ثم ارتد يستتاب.

واختلفوا في أن الاستتابة واجبة أم مستحبة، والأصح عند الشافعي وأصحابه أنها واجبة، وأنها في الحال، وله قول إنها ثلاثة أيام، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وإسحاق، وعن علي أيضًا أنه يستتاب شهرًا)[[200]](#footnote-200).

**رابعًا: الردة المغلظة، المقترنة بالاستتابةوالاستجارة:**

فعن مصعب بن سعد عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبدالله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، بايِعْ عبدالله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: ((أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟))، فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك، قال: ((إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين))[[201]](#footnote-201).

وامتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن مبايعته، وقد حصل ذلك أكثر من مرة، دليلٌ على عدم رضاه، وأنه يستحق القتل لو قتل، وهذا هو الدليل على الترجمة، وهو كون الرسول صلى الله عليه وسلم أذِن أن يقتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، وكذلك الذين لم يؤمنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاز أن يؤسروا ويقتلوا ولا يعرض عليهم الإسلام، وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل مع عبدالله بن أبي السرح؛ لأنه كان من كتَّاب الوحي، كان يكتب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم إنه ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، فعامله النبي صلى الله عليه وسلم هذه المعاملة، لكونه كان من كتاب الوحي، ومع ذلك حصل منه ما حصل؛ إذ كان في الأصل أن كتابة الوحي وائتمان النبي صلى الله عليه وسلم له على الوحي داعيانِ لبعده من أن يقع في مثل هذا الذي وقع فيه، فمن أجل ذلك عامله النبي صلى الله عليه وسلم هذه المعاملة[[202]](#footnote-202).

بَيْدَ أنه لم يقتله مع إرادته ذلك، لكونه استجار بمسلم من أهل العدالة بعد أن أعلن توبته، والاستجارة هي بمثابة شهادة العدل بأنه أسلم وحسن إسلامه، وأنه لم يرتد تحايلاً؛ لأنه لم يدخل الإسلام قبل ذلك لهذه الشبهة، وقلما حدث ذلك، ولَمَّا كان أهل الحق لا يرتدُّون عنه أبدًا، فإن دخوله الإسلام كان فيه شبهة طلب المغنم، أو الدنيا، أو الزعامة، فلما لم ينَلْ شيئًا من ذلك ارتد، فلما فتح الله على المسلمين مكة عاد للإسلام، فكان بُغْض رسول الله صلى الله عليه وسلم لصنيعه حمله على أن يهدر دمه.

قال ابن الأثير: (وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد مشركًا وصار إلى قريش بمكة، فقال لهم: إني كنت أصرف محمدًا حيث أريد، كان يملي علي: "عزيز حكيم"، فأقول: "أو عليم حكيم"، فيقول: "نعم، كل صواب")[[203]](#footnote-203).

لكن لَمَّا ألح عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه بايعه مع الكراهة، لا لشيء إلا لإجارة عثمان له، قال ابن الأثير: (وأسلم ذلك اليوم، فحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه)[[204]](#footnote-204).

قال ابن تيمية: (لَمَّا تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من ابن أبي سرح أهدر دمه لما طعن في النبوة وافترى عليه الكذب، مع أن السنة في المرتد أنه لا يقتل حتى يستتاب إما وجوبًا أو استحبابًا، وفي ذلك دليل على أن جرم الطاعن على الرسول الله صلى الله عليه وسلم، الساب له، أعظم من جرم المرتد، ثم إن إباحة النبي صلى الله عليه وسلم دمه بعد مجيئه تائبًا مسلمًا، وقوله: ((هلا قتلتموه))، ثم عفوه عنه بعد ذلك، دليلٌ على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتله، وأن يعفو عنه ويعصم دمه، وهو دليل على أن له صلى الله عليه وسلم أن يقتل مَن سبه وإن تاب وعاد إلى الإسلام؛ منها: أنه قد روي عن عكرمة أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة، وكذلك ذكر آخرون أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة؛ إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم بها وقد تقدَّم عنه أنه قال لعثمان قبل أن يقدم به على النبي صلى الله عليه وسلم: "إن جرمي أعظم الجرم، وقد جئت تائبًا، وتوبة المرتد إسلامه، ثم إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح وهدوء الناس، وبعدما تاب فأراد النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يقتلوه حينئذٍ، وتربص زمانًا ينتظر فيه قتله، ويظن أن بعضهم سيقتله، وهذا دليل واضح على جواز قتله بعد إسلامه، وكذلك لما قال له عثمان: إنه يفر منك كلما رآك قال: ((ألم أبايعه وأؤمنه؟))، قال: بلى، ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام، فقال: ((الإسلام يَجُبُّ ما قبله))، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن خوف القتل سقط بالبيعة والأمان، وأن الإثم زال بالإسلام، فعُلِم أن الساب إذا عاد إلى الإسلام جبَّ الإسلام إثم السب، وبقي قتله جائزًا حتى يوجد إسقاط القتل ممن يملكه إن كان ممكنًا، وفي كتمان الصحابة لابن أبي سرح ولإحدى القينتينِ دليلٌ على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوجِب قتلهم، وإنما أباحه مع جواز عفوه عنهم، وفي ذلك دليل على أنه كان مخيرًا بين القتل والعفو)[[205]](#footnote-205).

**خامسًا: الردة بسبب الهجرة لبلاد الكفر:**

كان عبيدالله بن جحش هاجر بأمِّ حبيبة معه إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فتنصر وارتد عن الإسلام، وتُوفِّي بأرض الحبشة، وثبتت أم حبيبة على دينها الإسلام وهجرتها، وكانت قد خرجت بابنتها حبيبة بنت عبيدالله معها في الهجرة إلى أرض الحبشة، ورجعت بها معها إلى مكة[[206]](#footnote-206)، وهؤلاء لا تُطبَّق عليهم الحدود لخروجهم عن ديار الإسلام[[207]](#footnote-207)، ولا يُطلَبون، ما لم يقع ضرر أو أذى منهم على أحد من رعايا الدولة المسلمة[[208]](#footnote-208)، لكن إذا دخل دار الإسلام ينظر في أمره، فإن ظل في رعاية دولة غير مسلمة ودخل بأمان تطبق عليه أحكام الاسئتمان، وإن دخلها ولم يكتسب حمايتها ورعايتها، فإنه ينظر في نوع ردته، وما إذا أراد الاستتابة أم لا؛ لأن الردة من الجرائم المستمرة، والمرتد داعية بردته إذا أُقر عليها.

**سادسًا: الردة المقترنة بالاستهزاء بدين الإسلام:**

###### عن ابن عباس أن أعمى كانت له أمُّ ولدٍ تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صلى الله عليه وسلم وتشتمه، فأخذ المغول فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل فلطخت ما هناك بالدم، فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمع الناس، فقال: ((أنشد الله رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام))، فقام الأعمى يتخطَّى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أنا صاحبُها، كانت تشتُمُك وتقع فيك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليها حتى قتلتُها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا اشهدوا أن دمها هدر))[[209]](#footnote-209).

###### قال ابن حجر: (في حديث ابن عباس دليلٌ على أنه يقتل مَن شتم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نقل ابن المنذر الاتفاق على أن مَن سب النبي صلى الله عليه وسلم صريحًا وجب قتله...، قال الخطابي: لا أعلم خلافًا في وجوب قتله إذا كان مسلمًا، وقال ابن بطال: اختلف العلماء فيمَن سب النبي صلى الله عليه وسلم، فأما أهل العهد والذمة كاليهود، فقال ابن القاسم عن مالك: يقتل من سبه صلى الله عليه وسلم منهم إلا أن يسلم، وأما المسلم فيقتل بغير استتابة)[[210]](#footnote-210).

**سابعًا: الردة مع المنعة:**

اعتذر النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين عن قتلهم، رغم ظهور علامات الردة منهم، بل والتجرؤ على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم أحزاب بين المسلمين، الأمر الذي قد يُوقِع الفتنة بين المسلمين، فيقتل بعضهم بعضًا بلا ضابط ولا تمييز بين الحق والباطل، فقد يكثر الجهلة والأميين في صفوف المرتدين فتسفك دماؤهم بغير علم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسمًا، أتاه ذو الخُوَيْصِرة - وهو رجل من بني تميم - فقال: يا رسول الله، اعدِلْ، فقال: ((ويلك، ومَن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل))، فقال عمر: يا رسول الله، ائذَن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: ((دعه، فإن له أصحابًا يحقرُ أحدُكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))[[211]](#footnote-211).

**سابعًا: الردة المقترنة بدم:**

كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش حروبٌ كثيرة، مما أوغر صدورهم، فلما كان فتح مكة دخلها صلى الله عليه وسلم في حالة حيطة وحذر، فوضع على رأسه المِغْفَر، وكان صلى الله عليه وسلم قد حضَّ على أناس من المشركين أن يُقتلوا، ولو وُجِدوا في أستار الكعبة، وسمَّى منهم "ابن خطل" الذي أسلم، ثم قتل مسلمًا وارتدَّ عن الإسلام وذهب إلى الكفار، فجعل جواريه يغنين بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم[[212]](#footnote-212)، واسمه عبدالعزى، وقيل: اسمه غالب بن عبدالله بن عبدمناف بن أسعد بن جابر بن كثير بن تيم بن غالب، كذا سماه ابن الكلبي، وسماه محمد بن إسحاق عبدالله بن خطل[[213]](#footnote-213).

فعن أنس بن مالك قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فقيل له: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: اقتلوه[[214]](#footnote-214)، ابن خطل قتله الزبير بن العوام[[215]](#footnote-215).

**ثامنًا: الردة المقترنة بالزندقة ونشر البدعة:**

فعن عكرمة قال: أتي عليٌّ رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لو كنتُ أنا لم أحرقهم، لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تعذبوا بعذاب الله))، ولقتلتُهم، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن بدَّل دينه فاقتلوه))[[216]](#footnote-216).

قال ابن حجر: (إنهم الذين ادعوا فيه الإلهية)[[217]](#footnote-217).

وقال ابن عبدالبر النمري: (إن عليًّا إنما أحرقهم بعد قتلهم، فعن عثمان بن أبي عثمان الأنصاري قال: جاء ناسٌ من الشيعة إلى عليٍّ، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنت هو؟ قال: مَن أنا؟، قالوا: أنت هو، قال: ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا، قال: ويلكم ارجعوا فتوبوا، فأبَوا، فضرب أعناقهم، ثم قال: يا قنبر، ائتني بحزم الحطب، فحفر لهم في الأرض أخدودًا فأحرقهم)[[218]](#footnote-218).

وعن عبدالله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قومًا على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم، ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم، إنما أنا عبد مثلكم، آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتَّقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر، فقال: قد والله رجعوا، يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخِلهم، فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر، ائتني بفعلة معهم مرورهم، فخدَّ لهم أخدودًا بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعون، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمرًا منكرا = أوقدت ناري ودعوت قنبرا

وهذا سند حسن[[219]](#footnote-219).

**تاسعًا: الردة المقترنة بجريمة الحرابة:**

عن أنس بن مالك قال: قدم أناس من عكل أو عُرَينة، فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما صحوا قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، واستاقوا النَّعَم، فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون، قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله[[220]](#footnote-220).

وعن قتادة أن أنسًا رضي الله عنه حدثهم أن ناسًا من عكل وعُرَينة قدموا المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذود وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم.

قال قتادة: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة[[221]](#footnote-221).

وقد فهِم بعض العلماء من الحديث السابق أن العقوبة التي وقعها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي العقوبة المقررة لحد الردة، فذكروا الحديث تحت عنوان "حكم المحاربين والمرتدين"، وهذا ما فعله مسلم في صحيحه وكذا البخاري، وقد انتقد الحافظ ابن حجر إيراد هذا العنوان على هذا النحو، فقال: "قوله (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة) كذا هذه الترجمة ثبتت للجميع هنا، وفي كونها في هذا الموضع إشكال، وأظنها مما انقلب على الذين نسخوا كتاب البخاري من المسوَّدة، والذي يظهر لي أن محلها بين كتاب الديات وبين استتابة المرتدين، وذلك أنها تخللت بين أبواب الحدود، فإن المصنف ترجم كتاب الحدود وصدَّره بحديث: ((لا يزني الزاني وهو مؤمن))، وفيه ذكر السرقة وشرب الخمر، ثم بدأ بما يتعلق بحد الخمر في أبواب، ثم بالسرقة كذلك، فالذي يليق أن يثلث بأبواب الزنا على وَفْق ما جاء في الحديث الذي صدَّر به، ثم بعد ذلك إما أن يقدم كتاب المحاربين وإما أن يؤخره، والأولى أن يؤخره ليعقبه "باب استتابة المرتدين"، فإنه يليق أن يكون من جملة أبوابه"[[222]](#footnote-222).

**عاشرًا: الردة بإعلان الخروج على جماعة المسلمين، وهو ما نسميه بالعصيان المدني ولكن فيما يتعلق بحقوق الله تعالى:**

عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارِق للجماعة))[[223]](#footnote-223).

وفسَّر بعض العلماء الحديث المتقدِّم بأن المارق من الدين المفارق للجماعة هو المرتد، وقرَّروا بناءً على ذلك قتل المرتد حدًّا بنص هذا الحديث، إلا أن هذا التفسير ليس محل اتفاق بين الفقهاء، فابن تيمية يقرر أن **المقصود بقوله: ((المارق من الدين المفارق للجماعة)) هو المحارب**[[224]](#footnote-224)، ويستند العلامة ابن تيمية في رأيه هذا إلى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان، فإنه يرجم، ورجل خرج محاربًا لله ورسوله، فإنه يقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض، أو يقتل نفسًا فيقتل بها))[[225]](#footnote-225).

فضلاً عن ذلك فإن البيِّن من الحديث السابق أنه يهدر دم المسلم لارتكابه إحدى جرائم ثلاث، والمرتد حينما يُقام عليه الحد - وَفْقًا للقائلين بقتله - لا يكون بعد ردته مسلمًا، فيخرج المرتد من مفهوم الخطاب، ويخرج بذلك عن الحكم الوارد في الحديث، فلا تكون الردة إحدى الحالات المهدرة لدم المسلم الواردة بالحديث السابق، ويصير المقصود بالمفارق للجماعة الحربي الذي يقطع الطريق على المسلمين، فإنه يقتل عقوبة له على جريمة الحرابة[[226]](#footnote-226).

وينضم لِمَا تقدم مَن أعلن خروجه عن الالتزام بفرائض الإسلام استحلالاً، بل ودعا إلى عصيان أوامر الحاكم في إقامة شرع الله وتنفيذ أوامره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر مَن كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمَن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله))، فقال: والله، لأقاتلن مَن فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللهِ، لو منعوني عناقًا كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرَفتُ أنه الحق[[227]](#footnote-227).

**الحادي عشر: الجاسوس والخائن لا لعلة البلادة أوالبلاهة أو ضعف المسؤولية وقلة الحيلة:**

عن ابن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عينٌ من المشركين وهو في سفر، فجلس عند أصحابه، ثم انسل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اطلبوه فاقتلوه))، قال: فسبقتهم إليه فقتلته، وأخذت سلبه فنفَّلني إياه[[228]](#footnote-228).

فقتل المرتد في هذه الحالة درء للمفسدة، ولئلا يكون جسوسًا على الأمة، ويعد بمثابة إجراء احترازي اقتضته مصلحة الأمة، كما هو الحال في شأن الجاسوس، وليس الحال كذلك على إطلاقه؛ إذ يتعين أن يتبين من الظروف والقرائن أن الجاسوس كان ينوي خيانة الإسلام والمسلمين حتى يجوز قتله حدًّا.

أما إذا كان الجاسوس لا ينوي خيانة، إنما تصرف بحماقة، أو نظرًا لخوفه، ففي تلك الأحوال تنتفي عنه نية الخيانة، فتكون عقوبته تعزيرية، وقد يعفى عنه بحسب الأحوال، عملاً بنظرية التفريد العقابي[[229]](#footnote-229)، التي أقرها الإسلام بالنسبة لبعض الجرائم[[230]](#footnote-230)، كما أقرها في بعض الظروف[[231]](#footnote-231)، ودليل ذلك ما ثبت في السنة الفعلية في حديث حاطب بن أبي بلتعة، وحديث فرات بن حيان، فعن فرات بن حيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتله، وكان عينًا لأبي سفيان، وكان حليفًا لرجل من الأنصار، فمرَّ بحلقة من الأنصار، فقال: إني مسلم، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، إنه يقول إنى مسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان))[[232]](#footnote-232).

وعن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود، قال: ((انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب، فخذوه منها))، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا حاطب، ما هذا؟))، قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ إني كنت امرأً ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد صدقكم))، قال عمر: يا رسول الله، دَعْني أضرب عنق هذا المنافق، قال: ((إنه قد شهد بدرًا، وما يُدرِيك، لعل الله أن يكون قد اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))[[233]](#footnote-233).

**الثاني عشر: تطهير الدولة من المرتدين والمنقلبين إما بالقتل أو الاستتابة مع الاستئمان:**

من الشائع عند الكثيرين أن النبي صلى الله عليه وسلم تسامح مع أهل مكة، فقال لهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم، يغفر الله لي ولكم))، فهذا وإن كان صحيحًا، فإنه ليس على إطلاقه، وإنما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك رؤوس الكفر والنفاق والإفساد في الأرض.

فعن عبدالرحمن بن سعيد المخزومى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: ((أمِن الناس إلا هؤلاء الأربعة لا يؤمنون في حل ولا حرم: ابن خطل، ومِقْيَس بن صبابة، وعبدالله بن أبي سرح، وابن نُقَيد))، فأما ابن خطل فقتله الزبير بن العوام، وأما عبدالله بن سعد بن أبي سرح فاستأمن له عثمان رضي الله عنه، فأُومِن، وكان أخاه من الرضاعة فلم يقتل، ومِقْيَس بن صبابة قتله ابن عم له لحا قد سماه، وقتل علي رضي الله عنه ابن نقيد وقينتين كانتا لمِقْيَس فقُتِلت إحداهما، وأفلتت الأخرى فأسلمت[[234]](#footnote-234).

**الصورة الثاني: الاحتراز من محاولاتهم لسرقة أموال الأميِّين وإضعاف المسلمين اقتصاديًّا:**

قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ \* إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 75 - 77].

ابتدأت الآية بذكر ممدوحة لأهل الكتاب، وليست هذه الممدوحة لهم جميعًا، وإنما البعض منهم يُمدح لأجل أمانته، وقد حكت لنا السيرة عن أمثال هؤلاء، فعن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبي صلى الله عليه وسلم قالت: استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الديل هاديًا خرِّيتًا، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتَيْهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث[[235]](#footnote-235).

قال ابن الأثير (الخرِّيت): الماهر الذي يهتدي لأخرات المفازة، وهي طرقها الخفية ومضايقها، وقيل: إنه يهتدي لمثل خرت الإبرة من الطريق[[236]](#footnote-236).

قال الباحثون: إن الحديث دل على جواز استئجار المسلم الكافر على هداية الطريق إذا أمن إليه، فكذلك استئجاره للخدمة والمساعدة في الغزو إذا أمن مكره، إذا تقرَّر جواز استئجار الكافر لمساعدة المجاهد، فإن ذلك يكون عند الضرورة أو الحاجة الملحَّة، مع ضرورة الاحتراز من غدرهم وإفشاء أسرار المسلمين أو الإضرار بهم وعلى عوراتهم[[237]](#footnote-237).

قال بدر الدين العيني عند كلامه على استئجار النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني الديل هاديًا يوم الهجرة: (فيه ائتمان أهل الشرك على السر والمال، إذا عهد منهم الوفاء والمروءة، كما استأمن رسول الله هذا المشرك)[[238]](#footnote-238).

كما اشتهر القول - بسند ضعيف - أن الحارث بن كلدة كان يداوي الصحابة ويطببهم ولم يسلم، ولا يعارض ما تقدم ما روى عن عائشة.

قال يحيى: إن رجلاً من المشركين لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقاتل معه، فقال: ارجع، ثم اتفقا، فقال: إنا لا نستعين بمشرك[[239]](#footnote-239).

فقولُه هذا: ((إنا لا نستعين بمشرك))، أخذ منه بعضُ أهل العلم عدمَ جوازِ الاستعانةِ بالمشركين في الحربِ، والأصحُّ أن هذا راجعٌ إلى المصلحةِ والمفسدةِ، وكذلك راجعٌ إلى حال الضرورةِ وعَدَمِها، فهذا الذي جاء النبيَّ لم يكن المسلمونَ بحاجةٍ إليه، ولأجلِ ذلك قال له النبي: ((إنا لا نستعين بمشرك))[[240]](#footnote-240).

أما محاولات البعض منهم سرقةَ أموال الأميين من المسلمين، فهي كثيرة ومتعددة، وقد كثرت وتكثر، وكلما بعدنا عن أصول الشريعة ومنهج السنة، سهل عليهم سرقة أموالنا، إما بالفوائد الرِّبوية والمركبة، أو بالمضاربات الوهمية، أو الرهون العقارية، والمشتقات المالية... إلخ.

**أولاً: فوائد الديون العمومية**[[241]](#footnote-241):

فبالرغم مما قامت به وزارة التخطيط بتقدير قيمة الناتج المحلي الإجمالي لعام 2013/2014 بنحو 2050 جنيه، مقارنة بناتج محلي إجمالي معدل قدره 1753 جنيه لعام 2012/2013، فإن نسبة الفوائد إلى الناتج المحلي في الأعوام منذ 2007 حتى 2014 تتراوح ما بين 5.1% إلى 8.4 %، بينما نسبة الأقساط المسددة في ذات الأعوام منذ 2007 حتى 2014 ما بين 1.1%، ولم تتجاوز 4.4، وعند مقارنة هذه النسبة بمصروفات الدولة نجد أن نسبة الفوائد المسددة منذ عام 2007 حتى 2014 ما بين 15% إلى 25.5% بالنسبة لمصروفات الموازنة، في حين أن نسبة الأقساط المسددة خلال ذات الفترة فإنها ما بين 3.4% إلى 24.4%.

وقد أفتت دار الإفتاء المصرية بأن (أذون الخزانة وسندات التنمية التي تصدرها الدولة بمعدل فائدة ثابتة من باب القرض بفائدة التي حرمتها الشريعة الإسلامية أيًّا كان المقرض والمقترض؛ لأنها من باب الربا شرعًا، رغبة المستثمرين وحرصهم على الكسب الحلال، يستلزم ألا تستغل أموالهم على غير رغبتهم حتى لا يخرج البنك عن حدود ما وكل فيه [[242]](#footnote-242)، وقد تأكد هذا الإفتاء بالقرار رقم 60 الذي اتخذه مجلس مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في دورة مؤتمره السادس في جدة من 17 - 23 شعبان 1410ه‍ الموافق 4 - 20 آذار (مارس) 1990، عدم جواز إصدار سندات بفائدة؛ حيث تضمن:

أولاً: إن السندات التي تمثل التزامًا بدفع مبلغها مع فائدة منسوبة إليه، أو نفع مشروط، محرمة شرعًا من حيث الإصدار أو الشراء أو التداول؛ لأنها قروض ربوية، سواء كانت الجهة المصدرة لها خاصة أو عامة ترتبط بالدولة، ولا أثر لتسميتها شهادات أو صكوكًا استثمارية أو ادخارية، أو تسمية الفائدة الربوية الملتزم بها ربحًا أو ريعًا أو عمولة أو عائدًا.

ثانيًا: تحرم أيضًا السندات ذات الكوبون الصفري، باعتبارها قروضًا يجري بيعها بأقل من قيمتها الاسمية، ويستفيد أصحابها من الفروق باعتبارها حسمًا لهذه السندات.

وثالثًا: كما تحرم أيضًا السندات ذات الجوائز، باعتبارها قروضًا اشترط فيها نفع أو زيادة بالنسبة لمجموع المقرضين أو لبعضهم لا على التعيين، فضلاً عن شبهة القمار.

**ثانيًا: التحكم في سعر الصرف بين العملات العالمية: وعقود المبادلة [[243]](#footnote-243)Swaps)):**

ففي أعقاب اتفاقية تأسيس صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، المعروفة باتفاقية Bretton Woods، المبرمة في نهاية الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا في الفترة من 1 إلى 22 يوليو 1944، وذلك في المؤتمر الدولي للشؤون المالية والنقدية، الذي عقد في Bretton Woods بولاية **New Hampshire** بالولايات المتحدة الأمريكية، كان مستهدفًا ترتيب الأوضاع المالية والنقدية العالمية؛ حيث اعتمد الهيكل الأساسي لنظام أسعار الصرف والتبادل، وتحديد قيم العملات على أساس اعتماد الذهب كمعيار للقيمة، وتم ربط الدولار بالذهب؛ أي بناء أسعار الصرف والتعادل بين العملات على أساس ما تمثله قيمتها الاسمية من الذهب والدولار، وإمكانية تحويل الدولار إلى ذهب عند كل طلب؛ كالتزام أمريكي جعل من الدولار خلال تلك الحقبة بمثابة الذهب، ومن ثَمَّ تم تحديد أسعار التعادل وَفْقَ القيمة الاسمية لكل عملة على اعتبار ما تمثله من ذهب أو من الدولار الأمريكي المرتبط بالذهب[[244]](#footnote-244).

وقد انضمَّت مصر إلى تلك الاتفاقية اعتبارًا من 25 ديسمبر سنة 1945 بمقتضى المرسوم الصادر في 7 من يناير سنة 1946، وحددت سعر التعادل للجنيه المصري بالقانون رقم 185 لسنة 1951 الذي نص في المادة الأولى منه على أنه "يحدد وزن الذهب الخالص في الجنيه بمقدار 3.55187 جرام".

واستمر النظام السابق حتى عام 1971، ففي الخامس عشر من أغسطس 1971، وفي أعقاب حرب فيتنام تكبدت الولايات المتحدة الأمريكية تكاليف باهظة اضطرتها للاقتراض لسد عجز ميزانيتها، فقامت الولايات المتحدة منفردة بإبلاغ صندوق النقد الدولي بقرار توقفها عن شراء وبيع الذهب لتسوية المبادلات الدولية التي كانت تتم بالدولار كعملة مرتبطة بالذهب، حتى لا يقل مخزون الذهب لديها؛ أي إنها ألغت تعهُّدها بدفع ما يقابل قيمة دولاراتها المتداولة في العالم بالذهب، لتلغي بذلك أهم أساسين من الأسس التي قام عليها نظام النقد الدولي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ونظام صندوق النقد الدولي [[245]](#footnote-245).

وبعد جريان تلك الأحداث أضحت الحاجة ملحَّة لنظام جديد للصرف الدولي بين العملات، ومن ثَمَّ ظل المجتمع الدولي في تخبط شديد في نظم الصرف حتى بدأ يتشكل هيكلٌ جديد لنظم الصرف بعد فترة زمنية من سقوط هذا النظام، وهو الأمر الذي أدى إلى ازدياد دور الدولة في تحديد نظم صرف ثابتة لعملتها الوطنية.

أما ما يتعلق بعقود المبادلة (Swaps)، التي تهدف إلى القليل من مخاطر تقلُّبات سعر الصرف في المستقبل، ففي بيان حكم التعامل بالعقود الآجلة والمستقبلية (في العملات وفي غير العملات)، فإن جمهور العلماء المعاصرين وأكثر الهيئات الشرعية قالوا بتحريمها؛ حيث جاء مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في بيان صور التعامل بالسلع في الأسواق المنظمة ما نصه:

"الطريقة الثالثة: أن يكون العقد على تسليم سلعة موصوفة - الكمية المتفق عليها من النقد الأجنبي - في الذمة في موعد آجل، ودفع الثمن عند التسليم، وهذا العقد غير جائز لتأجيل البدلين، ويمكن أن يعدل ليستوفي شروط السلم المعروفة، فإذا استوفى شروط السلم جاز، وكذلك لا يجوز بيع السلعة المشتراة سلمًا قبل قبضها".

وجاء فيه:

"الطريقة الرابعة: أن يكون العقد على تسليم سلعة موصوفة في الذمة في موعد آجل، ودفع الثمن عند التسليم، دون أن يتضمن العقد شرطًا يقتضي أن ينتهي بالتسليم والتسلم الفعليينِ، بل يمكن تصفيته بعقد معاكس، وهذا هو النوع الأكثر شيوعًا في أسواق السلع، وهذا العقد غير جائز أصلاً "[[246]](#footnote-246).

وجاء في قراره حول الاتجار بالعملات: "لا يجوز شرعًا البيع الآجل للعملات، ولا يجوز المواعدة على الصرف فيها، وهذا بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة"[[247]](#footnote-247).

وجاء عن المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي حول بيع العملات بعضها ببعض: "إذا تم الصرف مع الاتفاق على تأجيل قبض البدلين أو أحدهما إلى تاريخ معلوم في المستقبل، بحيث يتم تبادل العملتين معًا في وقت واحد في التاريخ المعلوم، فالعقد غير جائز؛ لأن التقابض شرط لصحة تمام العقد، ولم يحصل"[[248]](#footnote-248).

وجاء عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية:

"يحرم التعامل في سوق الصرف الآجل، سواء أتم بتبادل حوالات آجلة، أم بتبادل عقود مؤجلة لا يتحقق فيها قبض البدلين كلاهما".

وجاء أيضًا:

"يحرم الصرف الآجل أيضًا ولو كان لتوقِّي انخفاض ربح العملية التي تتم بعملة يتوقع انخفاض قيمتها".

وجاء أيضًا:

"لا يكفي لجواز المتاجرة بالعملات قبض أحد البدلين دون الآخر، ولا قبض جزء من أحد البدلين، إن قبض بعض البدل صح فيما قبضه دون الباقي"[[249]](#footnote-249).

**ثالثًا: المضاربات الوهمية في البورصة:**

مثال ذلك تزايد الممارسات غير المشروعة من باعة الوهم ومروجي الشائعات، من خلال التلاعب في البيانات المالية، لإظهار صورة خاطئة عن أوضاع شركة ما، أو تعمد إذاعة خبر كاذب، لتوجيه سعر السهم في اتجاه معين؛ حيث أجرت البورصة المصرية العديد من التحقيقات في هذه المخالفات، ولعل من أشهر التحقيقات التي أجريت في هذا الشأن ما جرى في البورصة المصرية عام 2001 من قيام البعض ممن يملكون أسهمًا في شركة معينة باستئجار عددًا من الكومبارس الأجانب، ليمثِّلوا دور المستثمرين، يطلبون شراء أسهم الشركة، فتتسرب المعلومات ويهرع الجميع لشراء السهم الذي أخذ سعره يقفز بجنون على ضوء هذه الشائعة [[250]](#footnote-250).

كذلك راجت شائعةٌ أخرى عن وصول وفد أجنبي لشراء أسهم شركة ما، فوصل سعر السهم من 70 قرش إلى 107 قرش، فلما تبين عدم حقيقة الخبر تراجع السهم ليصل إلى 84 قرش [[251]](#footnote-251).

وقد أيَّد القضاء الإداري[[252]](#footnote-252) رقابة هيئة سوق المال لالتزام الشركات بقواعد الشفافية - التي ذكرناها آنفًا - لها، ومن ثم أصدرت قرارها بإلغاء العمليات المترتبة على هذا الغش[[253]](#footnote-253).

وفي ذلك المعنى قضت محكمة القضاء الإداري بأن حماية الوطن لا تقف عند حد الدفاع عن حدوده لعدو متربص بها كيدًا، أو يسعى للنيل من أمنه الداخلي، بل يقف على قمة الواجبات الوطنية حماية الاقتصاد القومي ضد مَن يحملون على غير حق شرفَ الانتماء له، سواء نزلوا في غياهب السجون أو فروا هاربين بأموال الشعب وبطونهم يرتع فيها خبيث فعلهم، بعد أن امتلأت مشاعرهم بكره الوطن، وظنوا أن هذه الأموال المنهوبة من الأفراد وبنوك الدولة هي سفينة نجاة لفعلتهم، مستخدمين الوسائل غير المشروعة لتحقيق أهدافهم، معتقدين أنها قد تمنعهم من عقاب لا ريب فيه ينتظره الشعب وإن خَفَت نوره طوال إجراءات تعقبهم، أو عصمه المكان الذي هربوا إليه، ولا جدال في أن هذا المسلك المشين يمثل الآية الكبرى للاحتيال والاستغلال، بل والفساد الذي يهدر طاقة البلاد، وهي صفات التصقت بالمعاملة المالية للأسهم كانت مبررًا قويًّا للهيئة العامة بسوق المال في اتخاذ الإجراءات الإدارية التي تحفظ الغير والتي تقوم على صونها وحمايتها ببورصة الأوراق المالية[[254]](#footnote-254).

**رابعًا: المشتقات المالية:**

ويقصد بعقود المشتقات المالية financial derivatives أنها عقود تشتق قيمتها من قيمة أصول حقيقية أو مالية أخرى؛ مثل الأسهم، والسندات، والسلع، والعملات الأجنبية، والذهب، تلك الأصول تسمى بأصول موضوع العقد؛ إذ يتم الاتفاق عند تحرير العقد على مدة زمنية محددة، يتم تنفيذ العقد عند حلولها بالسعر التنفيذي الذي قد تحدد سلفًا، وأهم هذه المشتقات: (العقود الآجلة - عقود الخيارات - عقود المبادلات)[[255]](#footnote-255).

ويرى المعارضون أن المشتقات هي ذاتها أدوات للمجازفة والرهان على تقلبات الأسعار، وواقع الأمر أن المجازفة هي الغالبة على المشتقات؛ حيث تبلغ نسبة العقود المستخدَمة بغرض المجازفة - وَفْقَ الإحصائيات الرسمية - أكثر من 97% من إجمالي العقود، بينما تقتصر أغراض التحوط على أقل من 3%، فالمشتقات أدوات للمجازفة والرهان أكثر منها أدوات للتحوط[[256]](#footnote-256)، لذا ينتمي إلى طوائف المتعاملين بالمشتقات المالية طائفةُ المرجِّحين arbitrgeurs، وهم من محترفي الاستثمار الذين تتوافر لديهم الإمكانيات والخبرة لتحقيق أرباح سريعة عن طريق استغلال الفروق السعرية لأصل معين بين سوقين أو أكثر، فيقومون بالشراء في السوق المنخفض السعر، والبيع المباشر في السوق المرتفع السعر، فيحققون بذلك أرباحًا بدون أية مخاطر[[257]](#footnote-257).

ويستطرد المانعون - ونُؤيِّدهم في ذلك - بأن عملية تبادُل المخاطر هي عملية مبادلة صفرية؛ إذ إنه عندما يتحقَّق الخطر المتخوف منه يترتَّب على ذلك أن أحد الطرفين يكسب في مقابل خاسر الطرف الآخر، وإن لم يتحقق انعكس الوضع، وهذا هو ما يجعل المشتقات هي أهم أدوات المجازفة والرهان على الأسعار، فليس المقصود منها تبادل الملكية، وإنما مجرد المخاطرة، والتعامل بهذه الصورة لا يختلف عن القمار؛ لأنه لا يولد قيمة مضافة، بل مجرد مبادلة يربح منها طرف ويخسر الآخر، بل قد يكون أسوأ أثرًا من القمار؛ لأنه يتعلق بسلع وأصول مهمة ومؤثرة في النشاط الاقتصادي، ويتضرر من جراء تقلباتها الكثير من الناس، وطالما أن المشتقات المالية لا ترتبط تعاقديًّا بالنشاط الحقيقي، وتقتصر على تبادل المخاطر، فإن تداولها لا يخضع لضوابط النشاط الحقيقي المولد للثروة، ومن ثَمَّ يصبح نمو المشتقات أسهل بكثير من نمو الاقتصاد الحقيقي، ويترتب على ذلك تدفُّق رؤوس الأموال إلى المجازفات غير المنتجة على حساب الاقتصاد الحقيقي المنتج، مما يُعرِّض الاقتصاد للخسارة مرتين:

مرة بحجب رؤوس الأموال عن النشاط الحقيقي ابتداءً.

ومرة عند انهيار السوق وانفجار فقَّاعة المجازفات غير المسؤولة وضياع الثروة تبعًا لذلك[[258]](#footnote-258).

**تتخذ المشتقات المالية الصور التالية:**

**أولاً: العقود المستقبلية Futures contracts أو الآجلة Forward contracts:**

بالنسبة لعقود المشتقات المالية الآجلة، فهي نوع من بيع الدين بالدين، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الكالئ، وقد انعقد الإجماع على معنى الحديث.

قال ابن تيمية: "النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الكالئ بالكالئ، وهو المؤخَّر بالمؤخَّر، فالعقود وسائل إلى القبض، وهو المقصود بالعقد، كما أنَّ السلع هي المقصودة بالأثمان، فلا يباع ثمن بثمن إلى أجل... لما في ذلك من الفساد والظلم المنافي لمقصود الثمنيَّة ومقصود العقود[[259]](#footnote-259).

وقد أصدر مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجُدَّة قرارًا في دورتِه السابعة في عام 1412هـ، يقضي بتحريم البيع بالهامش، جاء فيه:

"لا يجوز شراء السهم بقرض ربوي يقدمه السمسار أو غيره للمشترى لقاءَ رهن السهم؛ لما في ذلك من المراباة وتوثيقها بالرهن، وهما من الأعمال المحرَّمة بالنص على لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه".

وكذلك صدر بتحريمها قرارُ المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي، في دورته الثامنة عشرة، التي عُقِدت في مكة المكرمة بتاريخ 10 - 14/ 3/ 1427هـ.

ومن البدائل الشرعية للبيع بالهامش بيع الأسهم بالأجل أو بالتقسيط، فيجوز بيع عدد من الأسهم بدفع مبلغ مقدم من قيمتها (بدلاً من الهامش)، والباقي إلى أجلٍ أو بالتقسيط، كما يجوز رهن الأسهم حتى يُقضَى الدين، وعلة التحريم واضحة؛ لأن القرض الذي يقدمه السمسار للمشتري مقابل فائدة محرم شرعًا[[260]](#footnote-260).

وقد أفتى مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجُدَّة بأن البيع على المكشوف لا يجوز؛ حيث اتخذ قرارًا في دورته السابعة في عام 1412هـ جاء فيه:

"لا يجوز أيضًا بيع سهم لا يملكه البائع، وإنما يتلقى وعدًا من السمسار بإقراضه السهم في موعد التسليم؛ لأنه من بيع ما لا يملك البائع، ويقوى المنع إذا اشترط السمسار قبض الثمن لينتفع به بإيداعه بفائدة للحصول على مقابل الإقراض، ومن الأدلة على تحريم البيع بالمكشوف حديث: ((لا تبع ما ليس عندك))؛ أي: ما ليس في ملكك، أو ما ليس في حوزتك.

**ثانيًا: عقود الخيارات ((call option - put options:**

من أشهر صور المشتقات المالية عقود الخيارات أو الاختيارات، والخيارات هنا ليست هي الخيارات المعروفة في الفقه الإسلامي التي تعطي الحق في إمضاء البيع أو فسخه.

وإنما هي عقود يشتري المتعامل بموجبها حقَّ شراء عدد محدَّد من أسهم شركة مُعيَّنة، عند سعر معين، هو السعر الحالي، خلال مدة معينة.

أو يشتري حق بيع عدد محدد من أسهم شركة معينة عند سعر معين هو السعر الحالي، ويدفع ثمنًا لهذا الحق:

فله عند حلول الأجل أن ينفذ العقد بالسعر المتفق عليه إذا كانت القيمة السوقية لهذه الأسهم غير مفضلة على القيمة المتفق عليها في عقد الخيار.

وله أن يرجع عن تنفيذ العقد، ويدفع الخيار الذي يُمثِّل خسارة له أقل من الخسارة المتوقعة لو لم يبرم عقد الخيار[[261]](#footnote-261).

كما عرَّفه مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجُدَّة بأنه:

"الاعتياض عن الالتزام ببيع شيء محدَّد موصوف، أو شرائه بسعر محدد، خلال فترة زمنية معينة، أو في وقت معين، إما مباشرة أو من خلال هيئة ضامنة لحقوق الطرفين".

وقد عقَّبت اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية على ما ورد في تقرير مؤسسة النقد بشأن عقد الخيار، بقولها:

(إن العقد على دفع ثمنٍ لحق الخيار في الشراء أو البيع عقدٌ باطل؛ لكونه دفع في غير مقابل متقوم، كما أن في شراء المضارب حقَّ الخيار مخاطرةً بما يدفعه قيمةً لحق الخيار؛ لأنه لا يرجع إليه على كل حال، بل إما أن يخسره إن ترك شراء الأسهم في المدة المحددة لانخفاض الأسهم قدر ما دفعه حقًّا للخيار أو أكثر.

وإما أن يحسم من الربح إذا ارتفع سعر الأسهم في المدة المحددة للخيار، فمستقبل السعر مجهول ورهين بأيدي جماعة لها شأنها في خفضه ورفعه، وفيه مخاطرة قد تأتي على رأس مال المضارب إذا كان لا يملك إلا ما دفعه قيمة لحق الخيار"[[262]](#footnote-262).

كما اتَّخذ مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجُدَّة قرارًا في دورته السابعة في عام 1412هـ يقضي بحرمة عقود الخيارات، جاء فيه:

"إن عقود الاختيارات - كما تجري اليوم في الأسواق المالية العالمية - هي عقود مستحدثة لا تنضوي تحت عقد من العقود الشرعية المسماة، وبما أن المعقود عليه ليس مالاً ولا منفعة ولا حقًّا ماليًّا يجوز الاعتياض عنه، فإنه عقد غير جائز شرعًا، وبما أن هذه لا تجوز ابتداءً، فلا يجوز تداولها"[[263]](#footnote-263).

**رابعًا: التوريق المصرفي Securitization**:

هو أداة مالية مستحدثة تفيد قيام مؤسَّسة مالية بحشد مجموعةٍ من الديون المتجانسة والمضمونة كأصول، ووضعها في صورة دَيْن واحد معزز ائتمانيًّا، ثم عرضه على الجمهور من خلال منشأة متخصصة للاكتتاب في شكل أوراق مالية، تقليلاً للمخاطر، وضمانًا للتدفق المستمر للسيولة النقدية للبنك[[264]](#footnote-264).

لذلك يتمثل مصطلح التوريق (التسنيد) في تحويل القروض إلى أوراق مالية قابلة للتداول Marketable Securities؛ أي: تحويل الديون من المقرض الأساسي إلى مقرضين آخرين[[265]](#footnote-265).

نظر مجلس المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي[[266]](#footnote-266) في موضوع التورق كما تجريه المصارف الآن، وتبين له أن التورق الذي تجريه بعض المصارف في الوقت الحاضر هو قيام المصرف بعمل نمطي يتم فيه ترتيب بيع سلع ليست من الذهب أو الفضة من أسواق السلع العالمية، أو غيرها الغالب أنها حديد أو معادن على المستورق بثمن آجل، على أن يلتزم المصرف إما بشرط في العقد، أو بحكم العرف والعادة، بأن ينوب عنه في بيعها بثمن حاضر وتسليم ثمنها للمستورق، وبعد النظر والدراسة قرَّر مجلس المجمع عدم جواز التورق الذي سبق توصيفه في التمهيد للأمور الآتية:

**أولاً:** أن التزام البائع في عقد التورق بالوكالة في بيع السلعة لمشترٍ آخر، أو ترتيب مَن يشتريها يجعلها شبيهة بالعينة الممنوعة شرعًا، سواء كان الالتزام مشروطًا صراحة، أو بحكم العرف والعادة المتبعة، حتى لو لم يكن منصوصًا عليها صراحة، فالمعروف عرفًا كالمشروط شرطًا.

**ثانيًا:** أن هذه المعاملة تؤدي في كثير من الحالات إلى الإخلال بشروط القبض الشرعي اللازم لصحة هذه المعاملة، أيضًا لا يتحقق معها القبض.

**ثالثًا:** أن واقع هذه المعاملة يقوم على منح تمويل نقدي بزيادة لما سمى المستورق فيها من المصرف في معاملة البيع والشراء التي تجري منه هي صورية في معظم أحوالها، فعملية البيع والشراء والتوكيل في الحقيقة صورية.

**رابعًا:** أن هدف البنك من إجرائها أن تعود عليه زيادة على ما قدم من تمويل، وهذه المعاملة غير التورق الحقيقي المعروف عند الفقهاء، والذي سبق للمجمع أن قال بجوازه، وذلك لما بينهما من فروق عديدة، فالتورق الحقيقي يقوم على شراء حقيقي لسلعة، بثمن آجل، يدخل في ملك المشتري، ويقبضها قبضًا حقيقيًّا، وتقع في ضمانه ثم يقوم ببيعها هو بثمن حالٍّ لحاجته إليه، قد يتمكن من الحصول عليه وقد لا يتمكن، والفرق بين الثمنين الآجل والحال لا يدخل في ملك المصرف الذي طرأ على المعاملة لغرض تسويغ الحصول على زيادة إلى آخره.

أما الصورة الثانية، فإن المجمع يوصي جميع المصارف بتجنب المعاملات المحرمة امتثالا لأمر الله تعالى[[267]](#footnote-267).

وقد استقرَّ رأي علماء الإسلام - المتخصصين في الأعمال المصرفية - بعد جدل طويل على عدم إجازة التورُّق كأحد المنتجات التمويلية للبنوك الإسلامية، لعلة سوء تطبيقات البنوك الإسلامية والتقليدية التي تقدم منتجات تتوافق مع الشريعة له.

وقد نقل الإجماع على ذلك الدكتور حسين حامد حسان - رئيس الهيئة الشرعية لبنك دبي الإسلامي، وعضو العديد من المجالس والمجامع الاقتصادية الإسلامية - فقال:

إن فقهاء العصر أقرُّوا بالإجماع قبل أيام عدم مشروعية "التورق"، وأن تطبيقاته في البنوك لم تكن دقيقة، وشابها بعض الشبهات التي دفعت العلماء إلى الإجماع على تحريم "التورق المنظم"، مؤكدًا أن هذا الإجماع على التحريم يدعمُه قرارٌ من هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية.

**الصورة الثالثة: الاحتراز من التضليل التعليمي والتزوير التثقيفي والتعتيم الإعلامي من الذين يلوون الألسنة:**

قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 78].

استحفظ الله تعالى التوراة لبني إسرائيل وكذا الإنجيل، واستودعهم إياها، فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيَّعوها عمدًا، ولذلك قال الحق عنهم: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} [المائدة: 44].

وقال الضحاك عن ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعًا، وذلك أنهم حرَّفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه[[268]](#footnote-268).

بينما لم يكلِ اللهُ تعالى حفظَ القرآن العظيم إلى أحد، وإنما حفِظه سبحانه في صدور العلماء، فتولى سبحانه حفظه بنفسه الكريمة المقدسة، كما أوضح ذلك بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]، وقوله: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت: 42]، إلى غير ذلك من الآيات[[269]](#footnote-269).

قال ابن تيمية: (يلوون ألسنتهم بالكلام، وينوون به الاستهزاء والسب والطعن في الدين، كما يلوون ألسنتهم بالسام، وينوون به الدعاء عليه بالموت، واليهود أمة معروفة بالنفاق والخبث، تظهر خلاف ما تبطن، ولكن ذلك لا يوجب إقامة الحد عليهم)[[270]](#footnote-270).

فمن أخطر وسائل أهل الكتاب لإضلال المسلمين التلاعبُ بعقول بعضهم، وذلك من خلال ما يسمى بليِّ الألسنة.

ولتوضيح ذلك نذكر واقعتين لوَّوا فيها ألسنتهم، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: (راعنا) من الرعونة والإهمال، فنهى الله الصحابة عن قول ذلك، واستبدل كلمة (انظرنا) بها.

وفي الثانية أبدَوا السلام للنبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: (السام)؛ أي الموت، فرد عليهم النبي بمثلها.

منهما نفهم معنى لي الألسنة، وما ترتب عليها من تزوير في تاريخ الأمة، وقلب الحقائق وتزييفها، والتعتيم على الحقائق والوقائع الصحيحة، وهو ما يسميه القرآن كذلك بتلبيس الحق بالباطل.

فعن واثِلَة بن الأسقع قال: كنتُ في أصحاب الصُّفَّة، فلقد رأيتنا وما هنا إنسان عليه ثوب تام، وأخذ العرق في جلودنا طرفًا من الغبار والوسخ؛ إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ليبشر فقراء المهاجرين؛ إذ أقبل رجل عليه شارة حسنة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه يأتي بكلام يعلو كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف قال: إن الله لا يحب هذا وصوته، يلوون ألسنتهم للناس لَيَّ البقرة لسانها بالمرعى كذلك يلوي الله ألسنتهم ووجوههم في النار[[271]](#footnote-271).

قال السيوطي فيمن يتلون كتاب الله ليًّا؛ أي: يُحرِّفون معانيه وتأويله[[272]](#footnote-272).

وقال الشعراوي: و"اللي" هو الفتل، فنحن عندما نفتل حبلاً، ونحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط، نفتلهما معًا لنصنع حبلاً، والهدف من الفتل هو أن نضع قوَّة من شعيرات الخيوط، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة، وعندما نفتل هذه الخيوط، فإننا نزيد من قوة الخيوط بجدلها معا، إذن فالفتل المراد به الوصول إلى قوة، وهكذا نرى أنهم يَلْوُون ألسنتهم بكلام يدَّعون أنه من المنهج المنَزَّل من عند الله، وهذا الكلام ليس من المنهج، ولم ينزل من عند الله إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم، والتنقيص من مكانة الإسلام، والطعن في الرسول[[273]](#footnote-273)، فهم يعمَدون في تحريف الكتاب ولَي ألسنتهم به، وتزييف الحقائق، وتزوير التاريخ إلى ثلاثة أمور رئيسية؛ تتمثل فيما يلي:

**أولاً: تبسيط العَلاقة بين الإنسان والرب، لتصير عَلاقة بنوة ورعاية لتتجرد عن الألوهية والحاكمية:**

فتصوير الإله بأنه يتجسَّد في بشر ويصلب، فيه امتهان للذات الإلهية، ويهدم اعتماد قلب العبد على الله، ليتخذ كل الأسباب غير التوكل على الله، فيكون منهكًا بالاعتماد عليها، لاعتقاده أن الإله لا يملك لنفسه دَرْء الضر، ولا دفع الأذى، لم لا وهم يعتقدون أنه قد صُلب؛ **ففي** غلاطية 20:2 "معَ المسيح صلبتُ، فأحيا لا أنا، بلِ المسيحُ يحيا فيَّ، فما أحياهُ الآن في الجسدِ، فإنما أحياه **في الإيمانِ، إيمانِ ابنِ اللهِ، الذي أحبَّني وأسلم نفسَه لأجلي"،** هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن تصوير البشر أنهم أبناء الله، وأنهم يسمعون كلام الله مباشرة دون حاجة إلى نبي أو وحي فيه تعظيم للإنسان ليخرج عن إطار العبودية لله تعالى إلى الندية، أو على الأقل أنهم ارتقوا لمرتبة الأنبياء دون حاجة إلى الارتقاء في الإيمان، في حين أنهم يُشوِّهون صورة الأنبياء كما سوف نرى فيما بعد، وفي ذلك تناقض عجيب في محاولاتهم لتصغير التصور عن الله وتعظيم التصوُّر عن الإنسان بما يهدم الحدود الفاصل بين مقام العبودية ومقام الألوهية، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

أما ادعاؤهم أن المسيح ابن الله، فذلك ثابت عنهم في العهد القديم (**أ. مزمور 7:2(:**

**"إني أخبر من جهة قَضاءِ الرَّبِ، قال لي: أنتَ ابني، أنا اليوم وَلَدْتُكَ".**

**ويقول مفسِّروهم إن المزمور الثاني يتحدث عن مسح الملوك في العهد القديم.**

**وكلمة "ولدتك" في المزمور لا تشير أبدًا إلى الولادة الجسدية، بل إلى إعلان علني من الله إلى شعبه عن تنصيب ملكٍ لهم.**

**وقد وردت هذه النبوة في ثلاثة مواضعٍ في العهد الجديد لتؤكِّد أن المعنى الوحيد المقصود بها هو قيامة يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، من بين الأموات.**

**كما نقرأ في أعمال الرسل (33:13) أن اللهَ قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم؛ إذ أقام يسوعَ كما هو مكتوبٌ أيضًا في المزمور الثاني: أنتَ ابني أنا اليومَ وَلَدْتُكَ".**

**وفي عبرانيِّين 5:1 "لأنه لمَن من الملائكةِ قال قَطُّ: أنتَ ابني، أنا اليومَ ولدتُك؟ وأيضًا: أنا أكون له أبًا، وهو يكون لي ابنًا"؛ (انظر: العبرانيين 5:5(.**

**أما في العهد الجديد، فإن الاعتراف بأن يسوع هو ابن الله هو أحد أركان العقيدة المسيحية، وبدون هذا الإيمان لا يصبح الإنسان مسيحيًّا، ففي يوحنا الأولى 15:4 "مَن اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبُت فيه وهو في الله".**

وفي **5:5 "مَن هو الذي يغلب العالم، إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله".**

**وفي 13:5 "كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أنَّ لكم حياةً أبديَّة، ولكي تؤمنوا باسم ابن الله".**

**وفي 23:3 "وهذه هي وصيَّته أن نؤمنَ باسم ابنه يسوع المسيح"**[[274]](#footnote-274).

كذلك إثبات أبوَّة الله للبشر، أو بنوة البشر لله، فيه هدم لمعنى الحاكمية لله تعالى، وهدم لكل تشريع يقوم بتنظيم حياة الناس؛ وذلك لاستقلال حياة الابن عن حياة أبيه، وإن كان الابن يأتمر بأوامر أبيه، فإن ذلك يأتي من العطف والتقومي في إطار من العَلاقة الأسرية والأساليب التربوية، في حين أن الله يقهر العباد، فهو القائل في كتابه: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18].

ففي "إنجيل يوحنا (15:5):

"أنا الكَرْمَة وأنتم الأغصان، الذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير؛ لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا".

وفي رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (3: 16):

"أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم،".

وفي رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (6: 19):

"أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟".

وفي إنجيل متى (5: 9): "طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يُدعَون".

**ثانيًا: تشويه صورة الأنبياء حتى تنهدم الأسوة والقدوة وينهدم التطبيق العملي للدين:**

في حين أن الإسلام يجعل الرسل بشرًا حتى يتسنَّى للناس التأسي بهم والاقتداء بهَدْيهم، فهم ليسوا ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون، وإنما الرسول مثل البشر في طبيعته الخِلْقية، وهو ما أثار استعجابهم، {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان: 7].

بَيْدَ أن الإسلام لا يقرُّهم على هذا المفهوم وإنما يؤكد أن الرسل لا يعدو كونهم أفضل الناس إيمانًا، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((النبيون يوحى إليهم فكيف لا يؤمنون))[[275]](#footnote-275)، وعليه كان النبي هو القدوة والأسوة للبشر، يقول سبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

بينما لا يكون لأهل الكتاب قدوة يقتدون بها بعد أن شوَّهوا في كتبهم المحرَّفة صورةَ أنبيائهم، فيقولون إن النبي إبراهيم يتاجر بشرف زوجته سارة في مصر، وفي جرار الفلسطينية للحصول على الأموال، ويتم سرد ذلك دون أي تحرج؛ (تكوين 12: 11 - 20)، و(تكوين 20: 1 - 7، 14)، وهو الأمر الذي يكرره - بزعمهم وافترائهم - بعد ذلك ابنُه إسحاق في جرار؛ كما في سفر التكوين (26: 7 - 10)[[276]](#footnote-276)، وجاء في سفر التكوين - الإصحاح التاسع عشر ما نصه[[277]](#footnote-277):

"30 - **وصعِد لوطٌ من صوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه**

31 **وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض**.

32 **هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً**

33 **فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.**

34 **وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً.**

35 **فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها**.

36 **فحبلت ابنتا لوط من أبيهما**".

وجاء في سفر صمائيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر، ما نصه:

"2 **وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا.**

3 **فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي**.

4 **فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها**.

5 **وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى**".

**ثالثًا: طمس كل حقيقة تاريخية للمعارك الفاصلة بين أهل الحق والباطل:**

إذا كان التضليل المعلوماتي قد أصبح عِلمًا له نظرياته ومدارسه، وتطورت وسائله، وتنوعت مجالاته، ولا يستطيع أن ينكر ذلك عاقل، فليس معنى ذلك أن التضليل المعلوماتي لم يظهر إلا في هذا العصر، بل لقد كان موجودًا من القديم، ولكن يمارس بطرقه ووسائله المتاحة حسب الزمان والمكان، وإن لم تكن قد صِيغت نظرياته ومناهجه، وتحدَّدت قواعده، وتمايزت مدارسه، شأنه في ذلك شأن جميع العلوم الإنسانية، تنشأ وتُمارَس، ويعيش بها الناس، ثم ينشأ العلم بعدُ، وآية ذلك - أعني استخدام التضليل المعلوماتي قديمًا - ما كتبه الفيلسوف الفرنسي المعاصر رجاء جارودي، قال:

"في إحدى صفحات الكتاب الرائع لأناتول فرانس (فوق الحجر الأبيض) يوجه أحدُ المؤرخين سؤالاً إلى مدام نوزبير: ما أتعس يوم في تاريخ فرنسا؟ ولم تكن مدام نوزبير على علمٍ بهذا اليوم، وعندئذٍ قال لها المؤرخ: "إنه عام 732م، إنه العام الذي جرت فيه معركة بواتيه، التي هُزِم فيها المسلمون، ولم يستكملوا دخلوهم فرنسا، في هذا اليوم انهزمت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية، ولولا هذا اليوم الأسود ما عاشت قرونًا متطاولة في ظلام العصور الوسطى حتى سطعت عليها شمس الحضارة"؛ اهـ كلام أناتول فرانس في كتابه الرائع.

ثم يكمل جارودي قائلاً: وهذا النص يثير في نفسي ذكرى لذيذة؛ إذ كنت في تونس سنة 1945م، وأثناء محاضرة لي عن ابن خلدون ذكرتُ أن النص من كتاب أناتول فرانس، وإذا بالجنرال الفرنسي - الذي كان وقتئذٍ مقيمًا عامًّا في تونس - أي حاكمًا عامًّا لها - إذا بهذا الحاكم العام يأمر بطردي من تونس بدعوى الترويج للدعاية ضد فرنسا، وكان لهذا الحدث دلالة ومغزى من وجهة النظر الاستعمارية؛ فإن مجرد تذكير المستعمَرين (بفتح الميم) بعظمة ماضيهم وثقافتهم، كان يعتبر إهانة للاستعمار، وخطرًا يهدده"؛ انتهى كلام جارودي، وهو غني عن أي تعليق[[278]](#footnote-278).

**الصورة الرابعة: هدم كل صور الاستعباد لغير الله تعالى أو أي تنظيم كهنوتي تعسفي قسري:**

قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ \* وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 79، 80].

قال صاحب الظلال:

(من هذا الذي يلوون ألسنتهم فيه ما يدعونه من ألوهية للمسيح وللروح القدس، وينفي الله سبحانه أن يكون المسيح عليه السلام قد جاءهم بهذا في الكتاب أو أمرهم به)، وهكذا تأمرهم عقيدتهم الفاسدة بأن يروِّجوا لمبدأ الربوبية لغير الله تعالى، سواء في التشريع أو الحكم أو العقائد والرسالات، فوضعوا تنظيمًا كهنوتيًّا يضمن لهم صعوبة الخروج عن ملتهم، فالكهنوت هو إشراك للبشر في أعمال الله، وأن الكاهن يستمد سلطانه من سلطان إله النصارى الذي يكون بين يدي الكاهن على المذبح؛ لأن الكاهن في النصرانية أفضل من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو الوسيط بين إله النصارى وشعب الكنيسة في طلباتهم، والكهنة هم مصدر التشريع، وذلك في ظل غياب النصوص الشرعية في النصرانية المحرفة، فكل ذلك يجعل لدى الكهنة سلطة مطلقة منَحُوها لأنفسهم بتحريفهم للإنجيل[[279]](#footnote-279).

وتختلف كل كنيسة - فرقة - عن الأخرى في التنظيم الكهنوتي، ولكنه بوجه عامٍّ هو تنظيمٌ استعارته الكنيسة في عهودها الأولى من الرومان؛ حيث كان يرأسها أكبرهم سنًّا على أملِ عودة المسيح، ويقدسون رهبانهم ورجال كنيستهم، ويجعلون لهم السلطة المطلقة في الدين وفي منح صكوك الغفران[[280]](#footnote-280).

قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31]، فالكهنوتية تدعي لأصحابها الحق الإلهي ليس في تفسير الدين دون ضوابط وحسب، بل في الإضافة عليه، والانتقاص منه، والحذف والتبديل[[281]](#footnote-281).

وليس أدل على ذلك من تعديلهم لأحكام الزواج والطلاق بمراسيم كنسية بكل يسر وسهولة، فيقتصر الأمر على أحوالهم الشخصية لخلو كتبهم من شريعة كاملة تتطرق لجوانب الحياة المدنية أو أي أمر مادي ملموس؛ حيث يفصلون الدين عن الدولة، ويقصرون دائرة الدين في الكنيسة، ولا يتطرق إلى ما يجاوز حدودها وأسوارها إلا في مجال الزواج والطلاق فحسب.

من هنا بكَّتهم القرآن ووبَّخهم بعد أن فضح منهجهم وفساد عقيدتهم بقوله تعالى: {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 80]، وبذلك يجمع الإسلام في دعوتهم بين الحوار الجدلي من جهة، والسبر عن عقائدهم الفاسدة، ومكائدهم الخادعة، وحيلهم المضللة، وكشفها للناس من جهة أخرى، فإذا ما استطاع المسلمون محاصرتهم فكريًّا وكشف فضائحهم إعلاميًّا، استطاعوا أن يعرضوا عليهم دينهم في وضوح ويسر.

**المطلب الثالث**

**التركيز على مفهوم أن الإسلام عقيدة راسخة لم تتبدل**

**الآيات من (81) - (91):**

وللتركيز على هذا المفهوم لا بد من إيضاح وحدة الدين، سواء من حيث تبعية الأنبياء جميعًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في تفاصيل الشريعة، وتبعية النبي محمد صلى الله عليه وسلم للأنبياء قبله في الاعتقاد وأصول الشريعة، فهي عقيدة واحدة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وهي شريعة واحدة في مقاصدها وعمومياتها، ولذلك اقتضت هذه التبعية النصرة، فلا يقف من يدخل في هذا الدين عند مرحلة النطق بالشهادتين دون أن يترجم هذه الشهادة عملاً بنصرة أهل الحق وأهل هذه الشهادة، والله تعالى متم دينه وناصر عبيده، ولو استعصت جميع الكائنات عن أن تخضع رقبتها للإسلام اعتقادًا ومنهجًا، وفي كل حركة وسكنة، فإن منهج الله ماضٍ، وسنة الله تعالى حاكمة إلى يوم القيامة؛ لأن القرآن هو معجزة الإسلام الباقية والخالدة، ومن لم يلتمس الهدى فيه فقد ضل عن جادة الصواب، فلا يضر المسلمين أن ينقلب عليهم المنقلبون ويرتد عن دين الله المرتدون.

**أولاً: ميثاق النصرة لا ينفصل عن شهادة أن لا إله إلا الله:**

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \* أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: 81 - 83].

شرَعَتِ الآياتُ في التذكير بالميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء جميعًا والذين بعثوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ليشهدوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم نبي الله ورسوله، وليكونوا أول مَن يتبعه، باعتباره صاحب المعجزة الروحية والتشريعية والمنهجية، والتي تتمثل في القرآن الكريم، بينما كان سائر الأنبياء قبله أصحاب معجزات مادية، ولم تكن التوراة ولا الإنجيل قد كُتِب لهما أن يقوما بمثل ما قام به القرآن من إعجاز، وإنما أوكل حفظهما للبشر، فلم يرعَ البشر هذه المسؤولية وقاموا بتبديلهما وتحريفهما، ومن ثم أضحت معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم شاهدة على من عاصرها، بينما معجزة القرآن هي المعجزة الخالدة الباقية حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثَم كان حريًّا بالأنبياء جميعًا أن يشهدوا لها ويُقرُّوا بها، ولعل إمامة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في ليلة الإسراء خيرَ شاهد على تبعيتهم له، وأن الله قد أخذ الميثاق عليهم بنصرته واتباعه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه، فحانت الصلاة فأمَمتُهُم))[[282]](#footnote-282).

وليس آكد على تبعية الأنبياء جميعًا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو أن عيسى ابن مريم - وقد فاق الأنبياء جميعًا في التأييد بالمعجزات المادية - سوف ينزل آخر الزمان لينصر شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويصطفَّ مع المسلمين للصلاة، وسوف يؤم المسلمين واحدٌ منهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويقف عيسى عليه السلام مأمومًا، في إشارة إلى تبعية عيسى عليه السلام للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالميثاق الذي أخذه الله عليه.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ينزل عيسى ابن مريم مصدقًا بمحمد على ملته إمامًا مهديًّا وحكمًا عدلاً، فيقتل الدجال))[[283]](#footnote-283).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة))[[284]](#footnote-284).

قال الملا علي القاري: (وفي رواية: ((تعال فصل لنا، فيقول لا))، أي لا أصير إمامًا لكم لئلا يتوهم بإمامتي لكم نسخ دينكم) [[285]](#footnote-285).

والدلالة التي يمكن أن تشير إليها الآية هي أن توريث الدين سنة شرعية، فما المعنى أن يأتي الأنبياء في سلسلة الأزمنة المتتابعة ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن تكون شهادتهم له باعتباره خاتمًا للأنبياء، لتكون نبوته تصديقًا لنبواتهم ورسالاتهم، وتكون نبوتهم شاهدة على نبوته بعدهم؛ أي إن أخذ الميثاق عليهم هو تأكيدٌ على وحدة الدين وعدم تبديله من أول رسول حتى آخر رسول، فالنبي السابق يشهدُ بأنه ليس آخر الأنبياء، وإنما سوف يأتي نبي خاتم يستكمل ما بدأه من دعوة وما أتمه من جهد، فتتضافر جهود الأنبياء جميعًا لتظهر معجزة الإسلام، ذلك الدين الذي أيده الله تعالى بالبقاء بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذي يظل محفوظًا بعد محمد صلى الله عليه وسلم حتى يأتي عيسى عليه السلام ويقتل المسيح الدجال، وتقوم الساعة.

ولعل في ذلك فائدةً تشير إلى أن الأنبياء مثل سائر البشر، بالرغم من أنهم قد اختصوا بشرف الرسالة فإن عليهم ما على البشر من واجبات، ومنها الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والعمل على نصرته.

قال ابن تيمية:

(أخذ الميثاق على المتبوع دلالةٌ على أخذه على التابع، وحقيقة الأمر أن الميثاق إذا أخذ على الأنبياء دخل فيه غيرهم لكونه تابعًا لهم؛ ولأنه إذا وجب على الأنبياء الإيمان به ونصره، فوجوب ذلك على من اتبعهم أولى وأحرى ولهذا ذكر عن الأنبياء فقط)[[286]](#footnote-286).

قال ابن عاشور:

(والمقصود من ذلك إعلام أممهم بذلك ليكون الميثاق محفوظًا لدى سائر الأجيال، بدليل قوله: {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ} إلخ؛ إذ لا يجوز على الأنبياء التولي والفسق، ولكن المقصود أممهم)[[287]](#footnote-287).

وقد فرَّق العلماء بين الإسلام الكوني والإسلام الشرعي، فقوله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ}؛ أي: ارجعوا إليه بالطاعة، {وَأَسْلِمُوا لَهُ}، والمراد بالإسلام في الآية الكريمة هو الإسلام الشرعي، ومعناه: الاستسلام والانقياد لأحكام الشريعة، وهذا لا يكون إلا للطائعين، فالطائع مسلم إسلاما شرعيًّا؛ لأنه انقاد لأحكام الشرع، وهو الذي يمدح فاعله وهو من أنواع العبادة، أما بالنسبة إلى الإسلام الكوني، وهو المعنى الثاني، فهذا هو الاستسلام لحكم الله الكوني، وهذا ليس خاصًّا بالطائعين، بدليل قوله تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، ففيه من يسلم طائعًا، وفيه من يسلم وهو كاره، ومعنى هذه الآية أن جميع مَن في السموات ومن في الأرض منقادون لحكم الله الكوني بمعنى أنهم منقادون لِمَا يُجرِيه الله تعالى ويُقدِّره عليهم شاؤوا أم أبوا، فهذا إسلام كوني[[288]](#footnote-288).

ونظير ذلك قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: 15]، فليس لأحد من المخلوقات خروجٌ عن قدر الله تعالى، فإن الله تعالى هو مليكهم يُصرِّفهم كيف يشاء وَفْق حكمته، وهو خالقهم جميعًا، وكل ما سوى الله مصنوع فقير محتاج إلى خالقه تعالى[[289]](#footnote-289)، بل إن إسلام الكائنات يكون إسلامًا شرعيًّا ولو لم يكن طوعًا، فيكون كرهًا حينما ترى ما يُخضِع رقبتها للإسلام، قال قتادة: (المؤمن أسلم طوعًا، والكافر أسلم عند الموت كَرْهًا)[[290]](#footnote-290)، فالكافر يسلم حين يرى بأس الله، قال تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: 85]"[[291]](#footnote-291)، فتسلم كرهًا بعد أن فات وقت إسلامها طوعًا.

أليس الله قادرًا على أن يُخضع الرقاب له، ويُسجد الجباه له، ويُحني الظهور له؟! فما من عبد ترك ركعة لله تعالى هي فريضة، الله قادر على أن يحمله على أن يركعها يوم القيامة، ولكن على جمر من جهنم، وإن شئتَ فاقرأ قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ \* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ \* فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [القلم: 42 - 44].

يقول صاحب الظلال:

(فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر، واتباع النظام، وطاعة الناموس، ومن ثَمَّ تتجلى عناية الله سبحانه ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة، كيلا يتسرَّب إلى ذهن أحدٍ أنه كلمة تقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة،. ولن يكون الإسلام إذًا هو النطق بالشهادتين، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها، وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة، ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه، ودون أن يتبع شهادة أن محمدًا رسول الله معناها وحقيقتها، وهي التقيُّد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة، واتباع الشريعة التي أرسله بها، والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد، ولن يكون الإسلام إذًا تصديقًا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله، دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي، وحقيقته الواقعية التي أسلفنا، ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات، أو إشراقات وسبحات، أو تهذيبًا خلقيًّا وإرشادًا روحيًّا، دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر، والإشراقات والسبحات، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد، فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصبَّ آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء).

**ثانيًا: الإسلام دين الأنبياء جميعًا وهو المعجزة الخالدة:**

قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ \* وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 84، 85].

فإذا كان الأمر كذلك، فلن يقبل الله تعالى من أحد دينًا غير الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والذي هو في الأصل ملة إبراهيم حنيفًا والأنبياء من بعده من ذريته، وبالرغم من ذلك فقد تبِعه الأنبياء وجميع الرسل من قبله، فلا يحتج أحد بتبعيَّته لنبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تبعه جميع الأنبياء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني))[[292]](#footnote-292).

وكما أشار بذلك حديث صلاته بالأنبياء في الإسراء ببيت المقدس - المتقدم ذكره - لتكون شريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة، ويكون القرآن هو الكتاب الخاتم والمهيمن على ما سبقه من كتبٍ، يقول سبحانه: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين))[[293]](#footnote-293)، ولعل اللبنة التي وضعها الله تعالى في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أضحى المعجزة الباقية والخالدة الممتدة زمنًا إلى يوم القيامة دون أن تقتصر آثارها على من شاهدها.

فعن أنسٍ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أي الخلق أعجب إيمانًا؟))، قالوا: الملائكة، قال: ((الملائكة كيف لا يؤمنون؟))، قالوا: النبيون، قال: ((النبيون يوحى إليهم فكيف لا يؤمنون؟))، قالوا: الصحابة، قال: ((الصحابة يكونون مع الأنبياء، فكيف لا يؤمنون، ولكن أعجب الناس إيمانًا قوم يجيئون من بعدكم، فيجدون كتابًا من الوحي، فيؤمنون به ويتبعونه، فهم أعجب الناس، أو الخلق، إيمانًا))[[294]](#footnote-294).

إذًا فكتاب الله تعالى هو المعجزة التي يؤمن بها من يأتي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ليجدوه فيلتمسوا فيه الهدى والمنهج الحق فيتبعوه على بصيرة، فتتأكد المعجزة، ومَن يلتمس معجزة غير معجزة القرآن فلن يهتدي، ولن يقبل سعيه وقد ضل، ولن يفلح في الآخرة وقد خسر، فمن أراد أن يبتغي طريقًا فليبتغِ طريق الإسلام، فإن لم يجد فيه الهدى، فقد ضل سعيه ولو حسب أنه يحسن صنعًا، فطالما علم المرء بالإسلام وبدين محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يهتدِ إليه فقد ضل، وقامت عليه الحجة، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ثم لم يؤمن بي دخل النار))[[295]](#footnote-295).

**ثالثًا: أهل الحق لا يرتدون عن دينهم أبدًا:**

قال تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ \* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ \* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: 86 - 91].

اشتدَّ القرآن في توبيخ أهل الردة والانقلاب على ما هم عليه من الكفر، فتهددهم بالجزاء والويل واللعنة والعذاب يوم القيامة، ولم يستثنِ من ذلك إلا التائبين الذي أصلحوا ما أفسدوه وبينوا ما كتموه.

فعن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن فلانًا قد ندم، وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة، فنزلت: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...} [آل عمران: 86] إلى قوله: {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: 89][[296]](#footnote-296).

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد،، فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه، فأنزل الله فيه القرآن: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} [آل عمران: 86]، إلى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...} [آل عمران: 89] الآية، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك - والله! ما علمت - لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه "[[297]](#footnote-297).

قال الشوكاني:

(قد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى: {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [آل عمران: 90] مع كون التوبة مقبولة، كما في الآية الأولى، وكما في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [الشورى: 25]، وغير ذلك، فقيل: المعنى: لن تقبل توبتهم بعد الموت.

قال النحاس: وهذا قول حسن، كما قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} [النساء: 18]، وبه قال الحسن، وقتادة، وعطاء، ومنه الحديث: ((إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)) [[298]](#footnote-298).

وقيل: المعنى: لن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر أحبطها، وقيل: لن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة في هذه الآية على مَن مات كافرًا غير تائب، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ} [آل عمران: 91] في حكم البيان لها) [[299]](#footnote-299).

ولذلك أعاد القرآن التهديد والوعيد لمن ازداد منهم في الكفر من الذين ارتدُّوا على أعقابهم بعد أن كانوا مؤمنين، سواء من أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى وازدادوا كفرًا بمحمد، أو الذين ارتدُّوا على أعقابهم بعد أُحُد ووالوا اليهود والنصارى من دون المؤمنين.

قال الشعراوي:

(لقد كفروا بعيسى أولاً، ثم ازدادوا كفرًا بمحمد، وادَّعوا أنهم أبناء الله وأحِبَّاؤه، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا، أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان، ولم يتوبوا التوبة النصوح)[[300]](#footnote-300).

فكلهم يتهددهم القرآن الكريم بالعذاب الأليم، ولن ينفعهم على ما حملهم على الكفر من ملء الأرض ذهبًا ليفتدي به نفسه يوم القيامة، فعن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((يُجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئِلت ما هو أيسر من ذلك))[[301]](#footnote-301).

**المطلب الرابع**

**التأكيد على أن الإسلام شريعة ناسخة لما سبقها من شرائع مع التأكيد على وحدة مقاصد الشرائع جميعًا**

**الآيات من (92) - (97):**

قال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ \* كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ \* قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 92 - 97].

إذا ما استنفد المسلمون المراحل الثلاث السابقة في دعوة أهل الكتاب، والتي تبدأ بالحوار والمجادلة والمحاجاة، ثم كشف زيغ قلوبهم وضلالهم وفضحهم للناس، ثم بيان وحدة الدين وعدم المساس بعقيدة الإسلام - شرع المسلمون بعد ذلك في دعوتهم ببيان أحكام الشريعة الإسلامية لهم بصورة مجملة، حيث إن التفصيل لا مجال له في مبتدأ الأمر، وإنما يتعين لشرح الأمور التفصيلية التدرج في الخطاب والتمهل - كما أسلفنا - والمقصد هنا أن يتعلموا أن شريعة الإسلام ناسخة للشرائع التي سبقتها، مع التأكيد على وحدة مقاصد الشرائع جميعًا، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

**أولاً: مقاصد الشريعة تصل بالإنسان إلى مرتبة البر والإيثار:**

المقصد الرئيسي لتشريعات الإسلام العملية والمنهجية هو الارتقاء بالإنسان إلى مرحلة البر التي لا يبلغها من بذل خيرًا أو أنفق خيرًا، وإنما الذي بذل كل الخير الذي معه، ولو كان له به خصاصة، {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، فهذه هي شريعة الإسلام بإجمال، والإنفاق المقصود في الآية ليس هو الإهلاك للمال، وإنما الإنفاق الاقتصادي في أوجه البر والخير.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أصبت مالاً لم أصب مثله قط، كان لي مائة رأس فاشتريت بها مائة سهم من خيبر من أهلها، وإني قد أردت أن أتقرب بها إلى الله عز وجل، قال: ((فاحبس أصلها وسبِّلِ الثمرة))[[302]](#footnote-302)؛ أي: اجعله حَبيسًا وقفًا مؤبدًا لا يباع ولا يوَهَبُ ولا يُورَثُ، واجعل ثمرته في سُبُل الخير[[303]](#footnote-303).

قال ابن حجر: (وحديث عمر هذا أصل في مشروعية الوقف)[[304]](#footnote-304).

كما أن المقصود من الإنفاق كذلك هو البر لمن هم أولى الناس بالبر، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92]، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92]، وإن أحب أموالي إليَّ بَيْرُحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين))، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)[[305]](#footnote-305).

**ثانيًا: الإسلام يحل الطيبات ولا يحرم شيئًا إلا بظلم من العباد:**

ولكي تصل الشريعة بالإنسان لهذه المرحلة من الرقي، وهي البر، لا بد وأن تنتهج بالمسلمين نهجًا معينًا، وخطوة بخطوة، فابتدأت الآيات أولاً ببيان أن الأصل في الأحكام الإباحة، وأن التحريم ليس إلا بسبب الظلم الذي يقع من الناس، ذلك أن الناس تعزف عن الدخول في الإسلام، لما يرونه من تكاليف في العبادة، وقيود في الحل والتحريم، بَيْدَ أن الحقيقة أن الأصل في الأشياء جميعها الإباحة، وإنما يُنظِّم الإسلام كيفية الاستمتاع بالطيِّبات، حتى لا ينقلب هذا الاستمتاع إلى ضده، وتنقلب النعمة إلى نقمة، وضربُ المثال بالطعام هو أظهرُ الأمور لمعرفة مقاصد الإسلام في الحلال والحرام، فعندما يُحرِّم الإسلام الخمرَ بعد أن يمدحها القرآن بذكر أن فيها منافع للناس، ثم يذمها ويقول وإثمهما أكبر من نفعهما، فإنه يؤكِّد أن الأصل في الأشياء الإباحة، وإنما حُرِّمت الخمر لأجل أن ما تُذَم به أكبر مما تُمدَح لأجله.

وهكذا يضع الإسلام معيارًا دقيقًا بين الحل والتحريم، ليكون الظلم الذي يقع فيه الناس سببًا للتحريم، فإذا ما ارتفع الظلم عادتِ الأمور لأصلِها وهو الإباحة، يقول سبحانه: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: 91].

ولم ينفرد الإسلام بهذه النظرة للحل والتحريم، وإنما اتَّحدت الشرائع السابقة في ذات المقاصد، فلم تُحرِّم الأشياء على القوم السابقين إلا بسبب ما وقع منهم من ظلم، يقول المولى سبحانه: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا \* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: 160، 161].

وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج، فحجُّوا))، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو قلتُ نعم لوجبت، ولما استطعتم))، ثم قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))[[306]](#footnote-306).

فكان في هذا الحديث فرصة لإيضاح منهج القرآن الكريم في التشريع، وبيان الحل والحرام، ليعلم المسلمون جميعًا أنهم غير مَعْنِيِّين بهذا الأمر، وأن هذا الأمر من خصائص الألوهية، فالله وحدَه هو صاحب الأمر والنهي والحل والتحريم، وليس للعبد إلا الإذعان لهذه المشيئة.

ومن ثَمَّ ضربت الآيات مثلاً بنَبِيِّ الله تعالى يعقوب (إسرائيل)؛ إذ لما وقع الظلم من قومه حرَّم الله عليهم طيبات كانت قد أُحِلَّت لهم، قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء: 160].

ولَمَّا كان يعقوب عليه السلام مخاطبًا معهم بالتشريع الإلهي، بل هو قدوة لهم وأسوة في تنفيذ أوامر الله، حرَّم على نفسِه ما حرَّمه الله تعالى على بني إسرائيل، ليكون امتثالُه لأمر الله تعالى حجَّةً عليهم ليمتثلوا كذلك أمره سبحانه، وهو الأمر الذي يُعلِّم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يتعدوا النبي صلى الله عليه وسلم في التشريع، فما حرمه على نفسه فهو حرام، وما لم يحرم فهو حلال، باعتبار أن الأصل في الأمور الإباحة.

بل إن الله عاتب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن حرَّم على نفسه بعض الطيبات لم ينزل من الله تعالى حكم بتحريمها، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ} [التحريم: 1].

وهذه القاعدة الفقهية هي أصل في التشريع الإسلامي، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها))[[307]](#footnote-307).

وعليه فإن ما يفتريه غير المسلمين على الله تعالى من تحريم أمور لم يحرمها، وابتداع رهبانية لم تُكتَب عليهم، واختراع طقوس غير مفروضة، كلُّ ذلك هو محض افتراء على الله تعالى، فهذه القاعدة التي أقرها الإسلام هي مقصد من مقاصد التشريع الرباني، فالكتب المنزلة لم تنزل لكي تحرم، وإنما التحريم يدور مع الظلم وجودًا وعدمًا، وما الكتب المنزلة إلا مناهج للبشر، فلا عَلاقة بين نزول الكتاب وعلة التحريم، وإنما يتضمن الكتاب حكم التحريم من باب البيان، فالتحريم كان سابقًا على نزولها، قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: 93].

وقد خلت التوراة والإنجيل من تحريم شيء إلا بظلم من الذين هادوا، قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: 146].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم الشحوم جملوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها) [[308]](#footnote-308)، فلما حاجَّهم القرآن بالتوراة، وأمرهم أن يستخرجوا منها حكمًا يدل على التحريم المطلق غير المعلل بظلمٍ وقع منهم، قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: 93]، فلم يفعلوا ولم يفتحوا كتبهم ليُقِيموا الحجة على أنفسهم، وقد أهملوا في حفظها وحرَّفوها، ومن ثَمَّ كانت الحاجة داعية؛ لأن يأتي الإسلام بتشريع جديد يقيم الحجة عليهم، ويبين لهم أصل الحلال والحرام، ويقطع دابر كل مفترٍ على الله تعالى، ولا تطوله أيدي المحرِّفين ولا تأويلات الفاسدين، فهو محفوظ بإذن الله تعالى متنًا وتلاوةً، وتطبيقًا وعملاً، وآية حفظه حفظ شعائره ومناسكه إلى يوم القيامة كما نشاهده اليوم في أداء شعيرة الحج.

**ثالثًا: شعيرة الحج تؤكد وحدة الدين، وثبات الشعائر والعبادات، منذ بداية الخليقة وعبر ملة إبراهيم حنيفًا إلى قيام الساعة:**

لابد - كذلك - من ربط أصول التشريع الإسلامي جميعًا بالمظهر العملي الذي ينبغي أن يقتدي به المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى لا يحيدوا عنه، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم منهجًا عمليًّا لتطبيق القرآن، فإن جموع الحجيج من الأمة المسلمة في أظهر شعائرها وفي أقدس أماكن الأرض، والذي به آثر إبراهيم كدليل على تخصيص هذه الأرض لإقامة عبادة الله وشعيرة الحج على ملة الإسلام، وفي أنقى لحظات الإيمان والتجرد من الدنيا وهي الإحرام، كل ذلك كله لَيؤكِّد أن الحج هو المنهج العملي لسائر الناس حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، لتظل معجزة الإسلام حية بين المسلمين جيلاً بعد جيلٍ، يشاهدها كل حي يولد ويرزق في كل زمان.

ومن هنا جاء الإسلام ببيان الحكمة من تشريع الحج كأظهر مظاهر الإسلام في العبادة، وأجمع العبادات لشتات القلب، لينظر الناس إلى المسلمين، فيتعرفوا منهم على الإسلام من خلال هذه العبادة في هذا المكان في وقت حجِّهم، ولا يحتج بمخالفة المسلمين لمنهج الإسلام طالما وجد في الأمة مَن يحج بيت الله الحرام ويلتزم مناسكه.

فقوله: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: 96، 97]، فيه عدَّة إشارات ودلالات على أن شعائر الإسلام لم تتغيَّر منذ أن خلق الإنسان حتى قيام الساعة، وفيه إشارة إلى أن البيت الحرام بُنِيت قواعده قبل أن يرفع نبي الله إبراهيم قواعده بعد أن طُمِست معالمه في عهد نبي الله نوح عليه السلام بسبب الطوفان، وهو ما يؤكده دعاء إبراهيم ربه وقبل أن يشرع في رفع قواعد البيت: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم: 37].

وكونه وُضِع للناس فيه إشارة إلى تزامن وضعِه مع خلق الناس، ومن ثَمَّ فلا مجال للاستطراد في الحديث عن وضعه قبل خلق آدم، فليس هذا محلاًّ للبحث[[309]](#footnote-309).

كل ما نحتاج لإثباته في هذا الصدد أن الكعبة كانت أول القبلتين، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أوَّل؟ قال: ((المسجد الحرام))[[310]](#footnote-310)، قال: قلت: ثم أي؟ قال: ((المسجد الأقصى))، قلت: كم كان بينهما قال: ((أربعون سنة))[[311]](#footnote-311).

ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت[[312]](#footnote-312)، فالمسجد - في الإسلام - هو أول ما يكون في المدن، وإذا أريد إنشاء مدينة جديدة كان المسجد هو قصبتها، وهو نقطة مركزها[[313]](#footnote-313).

وبالرغم من ذلك، فمن اللطيف أن نشير إلى إثبات العلماء أن الكعبة أول مكان وضع في الأرض، وأنها مركز الكون، وقد تعدَّدت الأبحاث العلمية في إثبات ذلك بما يُغنِي عن ذكرها وترديد ما انتهت إليه، من أن الكعبة هي مركز الكون[[314]](#footnote-314)؛ لأن اليابسة تنشأ أولاً من نقطة معينة، ثم تمتد وتتوسع، فتتكون جميعها على النحو المشاهَد الآن[[315]](#footnote-315).

قال الزمخشري: (روي: كانت الكعبة خُشْعَة على الماء، فدُحيت من تحتها الأَرْض، وهي أَكَمةٌ متواضعة)[[316]](#footnote-316).

قال ابن الأثير: (الخُشْعة: أكَمَةٌ لاطِئةٌ بالأرض)[[317]](#footnote-317).

وفي ذلك إشارة إلى أن الإسلام ليس مجرد اعتقاد بالقلب، وليس له أي تأثير ملموس على حياة البشر أو أي أثر مادي على الأرض، بل قبل أن يبني آدم عليه السلام مأوى له يأويه من البرد أو المطر أو الحر، فإنه لا بد وأن يتَّجِه إلى بيت الله الحرام، فعن قتادة قال: (وضَع الله تعالى البيت مع آدم حين أُهبِط إلى الأرض)[[318]](#footnote-318)، وهذا لا ينافي أن الأرض جعلت مسجدًا وطهورًا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ))[[319]](#footnote-319)، وفي رواية: ((وكان مَن قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يُصلُّون في كنائسهم وبِيَعِهم))[[320]](#footnote-320).

ولنفهمَ المعنى المقصود من الآية والحديث نستكمل الخمس التي مُيِّزت بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثت إلى الناس كافةً))[[321]](#footnote-321)، وهو ما يعني أن الإسلام أكَّد على المعنى الحركي للدعوة، وأنها لا تقف عند حدود المكان، وأنه بالإسلام حان الوقت لأن تتحرَّك الدعوة إلى كل مكان، ويقابل هذه الميزة التي يتميز بها الإسلام وتختص بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قصدُ البيت الحرام للحج، فمهما طاف الدعاة والمرابطون في سبيل الله، فإن قِبْلَتهم واحدة وقصدهم لبيت الله الحرام للحج لا يتغير، فجمع الإسلام بين عالمية الدعوة ومركزية الشعائر والعبادات.

وتسمية بيت الله الحرام ببكَّة يعني ربط المكان بالفعل الذي اشتهر المكان به؛ أي ربط البيت الحرام - وهو الكعبة - بعبادة الحج التي لأجلها سمي المكان مكة أو بكة، فبكة تعني الزحام؛ لأن الناس يبك بعضهم بعضًا في الطرق أي يدفع، فيصلح أن يكون الاسم اشتق من بَكَّ الناسُ بعضهم بعضًا في الطواف؛ أي دفع بعضهم بعضًا، وقيل بَكة اسم بطن مَكَّة، سميت بذلك لازدحام الناس[[322]](#footnote-322).

قال الزمخشري: (تباكت الإبل على الحوض: تزاحمت، وتقول: تباكوا، فتداكوا، وسميت بكة؛ لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة)[[323]](#footnote-323).

يقول فاضل السامرائي:

"في آية آل عمران (بكة)، وقال في الفتح (مكة)، وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [آل عمران: 97]، فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام؛ لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضًا؛ أي يزحم بعضهم بعضًا، وسُمِّيت (بكة)؛ لأنهم يزدحمون فيها، وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها؛ أعني (مكة) بالميم)[[324]](#footnote-324).

وقد تأكَّدت هذه المعلومة - نسبيًّا - بشهادة أهل الكتاب أنفسِهم، بأن مكة كانت محلاًّ للحج قبل عيسى عليه السلام:

ففي المزمور رقم 84 من مزامير داود نجد وصفًا للحجيج في رحلة الحج إلى بكة: (هكذا ورد اسمها ولا يزال باقيًا إلى اليوم في المزامير).

ونجد الاسم واضحًا في كل ترجمات المزامير إلى سائر اللغات، نجده كما هو، ولا يتغير مطلقًا، مما يدل على أنه اسم علم لمكان معروف؛ ففي الترجمة الإنجليزية مثلاً نجد التالي:

(Blessed are they that dwell in thy house. they will be still praising thee, blessed is the man whose strength is in thee, in whose heart are ways of them who passing through the valley of Baca make it awell, The rain also filleth the pools, they go from strength to strength, every one of them in Zion appeareth before God)

وتلك هي ترجمته:

(طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يُسبِّحونك، طوبى لأناس عزُّهم بك، طرق بيتك في قلوبِهم، عابرين في وادي بكة جعلوا منه ينابيع الأمطار، أيضًا يغطيه بالبركات، يذهبون من قوة إلى قوة، يرون قدام الله في الأرض المقدسة لله)، هذا ما نجده في مختلف الترجمات.

لكن الترجمة العربية للأسف قد انحرفت باللفظ إلى (وادي البكاء) بدلاً من (وادي بكة)، مع أنه اسم علم كما قلنا، ولا يجوز التصرف فيه! ولكن لا عجب في قوم هذا دأبُهم، ألم يقل الله تعالى فيهم: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: 46]"؟![[325]](#footnote-325).

أما بالنسبة لمقام إبراهيم عليه السلام، فيقول الدكتور زغلول النجار:

(الكعبة بنيت على أربعة أركان، بحيث تماثل الجهات الأربع الأصلية، بدقة متناهية يعجز بشر أن يقوم بها، ونفهم تعبير "مقام إبراهيم" بالصخرة التي (قام) عليها وهو يرفع القواعد من البيت، وبهذا المفهوم فإن هذه الصخرة تحمل آية بينة، وهي أنه على الرغم من صلادتها (صلابتها) الشديدة، فإنها تحمل طبعة غائرة لقدمي أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - هذه الصخور لا تنصهر في ألف درجة مئوية، فمن الذي ألانها لتطبع آثار قدم إبراهيم عليه السلام، وليَّن هذه الصخرة الصلدة إلى الحد الذي يمكنها من حمل طبعة قدمَي هذا النبي الكريم، معجزة بكل المقاييس العلمية، يقف العلم عاجزًا أمام إمكان تفسيرها) [[326]](#footnote-326).

ومن تتبَّع نهج النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى بسنته، واتبع ملة إبراهيم حنيفًا، فإنه يذهب إلى بيت الله الحرام للحج، فإذا دخله بنية الحج، فإنه قد استكمل أركان الإسلام، وهنا يأمن من عذاب الله تعالى، فوالله لو مات في حينه فإنه يدخل الجنة بإذن الله، ولذلك فإن شعور مَن يخرج من بيت الله الحرام بعد أداء مناسك الحج غريب ورهيب؛ إذ يستشعر بوحشة وانقباض شديد في عضلة القلب، وإن شئت فقل خفقان واضطراب عجيب في نبض القلب، وكأنه يفقد شيئًا غاليًا، وعند عودته للبيت الحرام ينشرح قلبه مرة أخرى، وعندما يقف المرء ليسأل نفسه عن تفسير هذه الظاهرة يجد أنه كان مطمئنًا لأول مرة في حياته من الله تعالى، وهو في بيته الحرام؛ لأن الله وعد بذلك {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: 97]، فلما خرَج منه أحس بالخوف والقلق أن تقصر أعماله عن أن يُرضي الله تعالى، {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران: 28]، وقال في كتابه: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ} [الزمر: 16]، فيعيش في خوف ولا يغلب عليه الرجاء إلا وهو داخل البيت، لِمَ لا وهو لا يهم بخاطرة إلا أن تكون خيرًا، ولا يتذكر سيئة إلا وقد تاب عنها، فعن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: 25]، قال: (لو أن رجلاً همَّ فيه بإلحادٍ وهو بِعَدَن أَبْين لأذاقه الله عذابا أليما[[327]](#footnote-327).

وقد جعل الله تعالى من الحج علامةً ودليلاً على كمال الإسلام، وذلك بقوله سبحانه: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: 97]، فتقديم الخبر على المبتدأ أسلوب قصر وحصر، (ولله) تقديم الجار والمجرور (لفظ الجلالة) على سائر كلمات الآية، هو من باب القصر البلاغي المراد به التخصيص، والحصر (لله)؛ أي لله وحده، ثم إن اللام تشعر بالملكية بجانب التخصيص، (على الناس) تقديم آخر على المراد (حج البيت) يوحي هذا التقديم البلاغي بحصر الحج بحتميته على الناس[[328]](#footnote-328)، ولذلك أردفها الله تعالى بذكر الكفر في قوله: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 97].

وعن عمر بن الخطاب يقول: (ليمُتْ يهوديًّا أو نصرانيًّا (يقولها ثلاث مرات) رجل مات ولم يحج، وجد لذلك سَعَة، وخليت سبيله)[[329]](#footnote-329).

يقول سبحانه: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

**المطلب الخامس**

**توجيه العتاب لأهل الكتاب الصادين عن سبيل الله**

**وسبيل العصمة منهم**

**الآيات من (98 - 99)، (100).**

ويختتم هذا المقطع بعتابٍ أخير للذين كفروا من أهل الكتاب بعد أن فتح الإسلام لهم سبلَ الحوار مع العلماء الراسخين من هذه الأمة، وأتاح لهم الفرصة لمحاجاتهم، وكشف لهم ضلالات أربابهم ورهبانهم، وكذبهم وخداعهم وفساد عقيدتهم، وأوضح لهم وحدة الدين ونسخ الشرائع السابقة بشريعة الإسلام، ومنهجية الإسلام في التشريع والحل والتحريم، والمنهج العملي لهذا الدين، فلماذا بعد ذلك يكفرون؟

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 98].

ولماذا يصدون المسلمين عن اتباع سبيل الله تعالى؟

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 99].

إنهم يبغونها عوجًا؛ (أي: يلتمِسون الاعوجاج فِي دين الله ويطلبون غير سبيل القصد، ويطلبون للشريعة عوجًا وتناقضًا يظهر فيها، ويُحبُّون أن تكون سبيلُ الله عوجًا مائلةً جائرة، مع أنها مستقيمة في نفسها، لكنهم يريدون أن يُحدِثوا فيها عِوجًا وانحرافًا؛ ليصرفوا الناس عنها بعد إيمانهم بها وانقيادهم لها، ويجتهدون في إلقاء الشكوك والشبهات في قلوب الناس بكل ما يقدرون عليه من الحِيَل، ويسعَوْن في صد الناس ومنعهم من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم، ويريدون زيغًا وميلاً عن الاستقامة في كل الأمور، ويتعمَّدون تحريفًا للحقائق وتبديلاً بالكذب والزور لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، فهم يريدون الطريق العوجاء ولا يريدون الطريق المستقيم، ويريدون العيشَ في ظل هذا العِوَج، ويرون أن في أجواء الانحراف والفساد ما يساعدهم على تحقيق رغباتهم؛ لأنهم لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشِّهم واستعبادهم، لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه، ومن ثَمَّ يصدون أنفسهم ويصدون الناس عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا لا استقامة فيها ولا عدالة.

وهذه طبيعة في بعض الناس تُشبِه طبائع الجراثيم الضارة التي دائمًا ما تنمو وتتكاثر في ظل أجواء النتن والعفن، فإذا طلعت عليها الشمس بضيائها، ووصلت إليها حرارتُها التي تقتل الجراثيم، لذلك هي لا تريد أن تحيا في الضوء أو أن تظهر في العلن**.**

أولئك المنحرفون الذين يريدون أن ينحرف الناس مثل قوم لوط الذين قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل: 56]، وكما قال فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26].

قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} [الأعراف: 146]، وهم لا يشكُّون في الحق، بل قلوبهم انطوت على عوج، {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: 33][[330]](#footnote-330).

كما تنتقلُ الآيات إلى مخاطبة الذين آمنوا ناهية لهم عن طاعة هؤلاء المُضلِّين من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا، لتحذِّرهم من عاقبة ذلك، وتضمن الإفلات من مكائدهم لو التزمنا أمر الله تعالى في عدم طاعتهم، فإن مالت أفئدتنا إليهم فإنها الطامَّة التي ليس بعدها طامة، ألا وهي أن ينضموا لفريق المنقلبين على الذين آمنوا، فهذه الآية جامعة مانعة لأسباب الانقلاب على المؤمنين، والتي تتمثل في أمر واحد، ألا وهو طاعة الذين كفروا، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: 100].

يقول صاحب الظلال:

(إن طاعة أهل الكتاب والتلقِّي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صُعُدًا في طريق النماء والارتقاء، وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب، هذا من جانب المسلمين.

فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب لا يحرِصون على شيء حرصَهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها، فهذه العقيدة هي صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة، وأعداؤه يعرفون هذا جيدًا، يعرفونه قديمًا ويعرفونه حديثًا، ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كلَّ ما في وُسْعِهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعُدَّة، وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسُّون لها ماكرين، وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يُجنِّدون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون - زورًا - للإسلام، جنودًا مجنَّدة، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعًا غير أوضاعها، وقيادةً غير قيادتها، فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعيةً واستماعًا واتباعًا، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرِّقهم، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال، ومن ثَمَّ هذا التحذير الحاسم المخيف).

**المحور الرابع**

**صفات المرابطين في سبيل الله**

**وتميزهم عن أصحاب الأهواء والمنقلبين على أعقابهم**

**الآيات من (100 - 120):**

بعد أن بينَّت الآيات مفهومَ الرباط في سبيل الله وصوره وتدارست لنا قصة آل عمران كنموذج للرباط على الدعوة، وبيَّنت منهج المرابطين في دعوة أهل الكتاب تنتقل في محورها الرابع لتبيِّن صفات المرابطين وتميزهم عن غيرهم من أصحاب الأهواء والمنقلبين على أعقابهم، فإذا قلت الرباط في سبيل الله، فإنك بذلك عنيت أمورًا:

أولها مخالفة أهل الكتاب، بمعنى كره معتقدهم وأفعالهم من الصد عن سبيل الله، وهو الأمر الذي يدفع المرابطين إلى الأمرين الثاني والثالث، وهما:

الاعتصام بالكتاب، والاجتماع على الحب في الله؛ لأن مقابل الكفر الإيمان، فإذا كفرتَ بمعتقد الكافرين آمنتَ بمعتقد أهل الإيمان، وارتبطت بهم بالحب في الله.

والرابعة انتداب طائفة من المؤمنين للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تكون لها سلطات واسعة في هذا الأمة لتكون أمة مستقلة بذاتها وفي قراراتها، وإن كانت ولا تزال من أمة الإسلام.

والخامسة محاربة أهل الفرق والأهواء، ليكون تعدد الآراء وتشعُّب الأهواء واختلاف الأمزجة معدومَ التأثير على نظام المسلمين في حكمهم واحتكامهم لشرع الله.

والسادسة التوسع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة في سبيل الله ليكون سمة المجتمع كله، وليس قاصرًا على الهيئة المنتدبة لهذا الأمر حسبة لله، بَيْدَ أنها تقوم بهذا العمل الطوعي دون أن تملك إمضاء القول على الغير، وإنما بالحسنى، فتستطيل بدعوتها أهل الكتاب كذلك.

والسابعة الصبر على أذى أهل الكتاب، واليقين بأن أذاهم لن يضر المسلمين بإذن الله.

والثامنة العلو على الكافرين واليقين بأنهم أذلاء ومساكين، حتى لو قتلوا أنبياءنا، وقتلوا زعماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهم أذلاَّء، والمسلمون الموالون لله هم الأعزاء، وهذا هو قانون الله تعالى وسنته التي لا تتغير ولا تتبدل.

والتاسعة الثبات في الثغور وكل المواقع على الدعوة والرباط في سبيل الله، حتى لو لم تكن البيئة المحيطة تُشجِّع على إعلان الإسلام والجهر به، فإن العبادة والدعوة هما العملان الذين يرابط عليهما المرابط في سبيل الله في كل الأحايين.

والعاشرة الثبات في الصراع مع الكافرين، والصبر على أذاهم، واليقين بالنصر عليهم، وأنهم سيغلبون؛ لأنهم هم وقود النار، وقد خلقهم الله لها، وخلق لهم النار؛ ولأنهم مهما أنفقوا من أموال ومهما حشدوا من جند وأولاد لن يجدي ذلك نفعًا في محاربة الإسلام والمسلمين.

وأخيرًا وليس بآخرٍ القضاءُ على تنظيم المنافقين والدونمة[[331]](#footnote-331)، الذي يندس في صفوف الأمة، وتطهيرها منهم ليكون المجاهدون من المصطفين الأخيار، وليكون المرابطون من المصطفين من المجاهدين، ولا يكون ثَمَّة موقع للمنافقين وغير المؤمنين من بين المجاهدين ولا المرابطين، تفصيل ذلك على الوجه التالي:

**المطلب الأول**

**صفات المرابطين في سبيل الله**

الآيات: من (100 - 112):

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ...}، و{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: 110 - 112].

ولا شك أن الأمر بيِّن الجلاء، فالعَلاقة بين أول آية في هذا المقطع من السورة وآخر آية من ذات المقطع - الآيتان (100)، (112) - تؤكِّد أن تحقق عقيدة البراء من الذين كفروا، وإن كان يؤدي إلى الأذى للذين آمنوا، وقتل أنبيائهم وصالحيهم، فإنهم سوف تؤول في النهاية إلى الذلة والمسكنة للذين كفروا، وتكون يد الله هي العليا ويد الذين كفروا هي السفلى.

عن ابن عباس: ((أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله))[[332]](#footnote-332).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَن أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما ينال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعمَ الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا[[333]](#footnote-333).

ولكي نحصل على النتيجة من هذه المقدمة، فلا بد من مراعاة أمور سوف نذكرها بالتفصيل على النحو التالي:

**أولاً: إعلان استقلال إرادة الأمة المسلمة في شؤونها الداخلية:**

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: 100]، فمطلق طاعتهم أو مجرد الطاعة، هو بابٌ من أبواب الردة عن الإيمان إلى الكفر، ومن ثم الانقلاب على الأعقاب، قال تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: 116]؛ ذلك أن الكافرين لا يأمرون المسلمين بالارتداد عن دينهم، كما لا يأمرونهم بالثبات عليه، وإنما يأمرونهم بأن يتخفَّفوا من دينهم، ومَن يكون في دينه خفة فهو مؤهل لأن ينقلب على عقبِه، بخلاف مَن لا يهادنهم ولا يطاوعهم ولا يسلِّم أمره إليهم، فهو شديد في حفظ دينه، غليظ على الكافرين، فلا يملكون إلا مدافعته بالقتل، وأنى لهم هذا؛ إذ لو نالوا منه فقد نال الشهادة، ولم ينالوا من جموع المسلمين ضرهم، لقوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: 111]؛ إذًا خطتُهم لكي تنجح لا بد وأن يُمرِّروها عبر مَن يسمع لهم ويتأثر بهم ويطيعهم، وقد تناقل الخلف عن السلف النصيحة بأن "لا تستضيئوا بنيران أهل الشرك"؛ أي: "لا تشاوروهم في أموركم"[[334]](#footnote-334)؛ لأنهم ليسوا أمناء في النصيحة، وقد نطق ظاهر القرآن بذلك، ولا حاجة إلى تأويل ما نطق به كتاب الله في أمرهم، ولذلك وبَّخ القرآن مَن يطيعهم بأنه قاب قوسين أو أدنى من الكفر، مستنكرًا عليه ذلك بقوله تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 101]، فما المعنى أن تطيعوهم ومعكم كتاب الله تعالى وفيكم رسول الله إلا الكفر بالله ورسوله؛ لأن الإيمان بالكتاب والسنة يجعلُ المسلم يرجع في كل نازلةٍ ومسألة لكتاب الله وحكم رسول الله، فإن لم يجد لقصورٍ في الاستقراء أو الفهم، فإنه يجتهد في ضوئِهما، أما أن يلين لأهل الكفر ويتسضيء بنارِهم، فلا يَسْلم مسلكه من أن يحكم على نفسه بأن ما أنزله الله من كتاب وما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من الحكمة كافٍ لأن يحل مشكلته أو يعالج حاجته، قال تعالى: {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: 49]، ولذلك كانت الدعوةُ من الله تعالى بأسلوب النداء للذين آمنوا بأن يتَّقوا الله حق تقاته، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102]، فالأمر جد خطير لا هزل فيه، فهو أمر دينٍ، لا يُقبَل فيه مجرد تقوى إلا إذا كانت بحقها، ولا يكون ذلك حال تميع المؤمن مع أهل الكتاب لينقل عنهم ويأتمر بأمرهم، وعنده كتاب الله فيه الهدى والنور.

**ثانيًا: الاعتصام الجماعي على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السبيل للنجاة من النار:**

قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103]، فقدِ استُعِيرتْ لفظةُ حبلٍ للدلالةِ على الدِّينِ؛ وذلكَ لأنَّ الحبلَ يربطُ شيئًا بشيءٍ، والدين يصلُ الناسَ بالله تعالى ويربطهم به[[335]](#footnote-335).

ففي الآية تشبيه للقرآن بالحبل، واستعير اسم المشبه به - وهو الحبل - للمشبه، وهو (القرآن)، على سبيل الاستعارة التصريحية، والجامع بينهما النجاة في كلٍّ، ويظهر جمال الاستعارة التصريحية هنا في المطابقة التامة بين القرآن الكريم وحبل الله تعالى[[336]](#footnote-336).

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإني تارك فيكم ثقلينِ أحدهما كتاب الله عز وجل هو حبل الله، مَن اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة))[[337]](#footnote-337).

قال ابن قيم الجوزية:

(فالاعتصام به نوعان:

اعتصام توكل واستعانة، وتفويض ولجء وعياذ، وإسلام النفس إليه والاستسلام له سبحانه.

والثاني اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم ومعقولاتهم وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسلٌّ من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله علمًا وعملاً وإخلاصًا واستعانة ومتابعة واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة)[[338]](#footnote-338).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوما يتدارؤون في القرآن، فقال: ((إنما هلك مَن كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوهُ إلى عالمه))[[339]](#footnote-339).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، لا يخلونَّ رجل بامرأة - ثلاث مرار - إلا كان ثالثهما شيطان، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد))[[340]](#footnote-340).

فإذا كان الاعتصام المقصود بالآية هو الاعتصام الجماعي، وقد أوضح عن ذلك الحديث المتقدم ذكره، الأمر الذي يحتاج لوصف ظاهر منضبط لهذه الجماعة حتى يكون حاكمًا لمن التزمها ومَن افترق عنها، فإذا استطردنا في كلام العلماء من قولهم التمسُّك بالسنة والفهم الصحيح عن سلف الأمة وسلامة الاعتقاد... إلى آخر ذلك من أوصاف للفِرْقة الناجية، لن نصل إلى معيار ظاهر ومنضبط لتمييز هذه الجماعة؛ نظرًا لأن تلك الأمور في الغالب من البواطن التي لا تبوح عن ذاتها إلا بالاختبار والمساءلة، والإسلام لا يوجب الكشف عما في الصدور، ولا اختبار الناس في معتقداتهم إلا حال لحوقهم لأول مرة بدار الإسلام وإعلان إسلامهم، كما في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة: 10].

أما مَن يعيش مسلمًا بين المسلمين، فلا يجوز اختباره ما لم تظهر منه بدعة، إذًا المعيار الظاهر المنضبط لا بد وأن يكون الشارعُ الحكيم قد كشف عنه، وبالاستقراء يتبين أنه ظاهر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن آمُرَ بحطبٍ يحتطب، ثم آمر بالصلاة فيُؤذَّن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأُحرِّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتينِ حسنتينِ لشهِد العشاء))[[341]](#footnote-341).

والمعنى المراد الإشارة إليه من الحديث هو التزام الجماعة في الصلوات الخمس، فهو من أهم الأوصاف الظاهرة المنضبطة على الاعتصام بحبل الله تعالى في أوقات السلم، والعكس كذلك صحيح؛ حيث إن عدم التزام جماعة المسلمين في الصلوات هو أول طريق لمفارقة المسلمين، ومن ثَمَّ الخوض في طريق الشيطان، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئبُ القاصيةَ))[[342]](#footnote-342).

قال زائدة: قال السائب: يعني بالجماعة الصلاة في الجماعة.

وهو ما يؤكده قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟))، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط))[[343]](#footnote-343).

فإذا أضيف إلى التزام جماعة المسلمين في أحد فروضُ الكفاية؛ كالتزام أهل العلم الراسخين فيه، وحضور مجالسهم، وكذا التزام أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة في سبيل الله - تأكَّد الاعتصام بالله تعالى.

هذا بالنسبة للأفراد والمجتمعات الإسلامية.

أما على مستوى الحكومات الإسلامية، فإن الدكتور سفر الحوالي يقول:

(يجب علينا أن نزيل كل أسباب الفُرْقة، ومنهج الكتاب والسنة أوضح وأجلى وأوسع المناهج، فهو يحتمل تعدُّد الاجتهادات، وتعدد الأحوال والبيئات، ففي بلد تكون الدعوة جهادًا بالسيف، وفي بلد تكون جهادًا بالدعوة، وفي بلد يكون أفرادًا، يَسَعُ هذا المنهجُ كلَّ شيء، ولا يسعه منهج آخر، ولن يجمعنا زعيم أو متبوع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن يجمعنا تاريخ غير تاريخنا الإسلامي وتاريخ خلفائنا الراشدين، فلنتوحَّد نحن الدعاة، أما ما دام فينا دعاة لل[عصرانية](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=firak&id=2000147) و[العقلانية](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=firak&id=2000133)، ودعاة للمقاعد النيابية والحريات السياسية، ودعاة للبدعة، ودعاة للتصوف، ودعاة للتقارب مع الرافضة، والكل يقولون: دعاة، والكل يقولون: يجب أن تقوم الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية، فلن نتوحد ولن نعمل شيئًا)[[344]](#footnote-344)(.

ويقول: إن (من أسباب قوة الغرب أنهم يتوحَّدون، ومن نظر إلى [أوروبا الشرقية](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=amaken&id=3000010) و[الغربية](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=amaken&id=3000010) يجد أن فيهم العرق الآري، وفيهم الأعراق الأخرى، وفيهم الأرثودكس، وفيهم [الكاثوليك](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=firak&id=2000059)، وفيهم الأحزاب [الشيوعية](http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showfahras&ftp=firak&id=2000091)، والأحزاب اليمينية، والأحزاب اليسارية، والأحزاب الوسط، وفيهم مَن يتقاتلون مع بعض، وكل هؤلاء مع كل الاختلافات يريدون أن يتوحَّدوا، ونحن لدينا كل أسباب الاجتماع حتى اللغة، فلغتنا واحدة، المسلمون في كل مكان يحبون اللغة العربية، ويتعلمون القرآن، أما هم، فإن اللغة الألمانية لا يمكن أن يتكلمها الفَرنسي، والفَرنسية لا يتكلمها الألماني، ومع ذلك يريدون أن يتوحَّدوا، وأن يكون جيشهم واحدًا) [[345]](#footnote-345).

وأما عن النهي عن التفرُّق، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقةً، أعظمها فرقة قومٌ يقيسون الأمور برأيهم، فيُحرِّمون الحلال ويحللون الحرام))[[346]](#footnote-346).

قال البيهقي نقلاً عن الخطابي: (فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجين من الدين؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم جعلهم كلهم من أمته، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ في تأويله، قال الشيخ رحمه الله: ومَن كفَّر مسلمًا على الإطلاق بتأويل لم يخرج بتكفيره إياه بالتأويل عن الملة)[[347]](#footnote-347).

قال العلماء: (هذا الحديث فيه الإخبار عن أمور مغيبة، ففيه الإخبار عن أمور مضت، وأمور مستقبلة، فالأمور التي مضت هي افتراق اليهود والنصارى إلى هذه الفرق الكثيرة، والأمر المستقبلي هو افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، ولا ينجو منها إلا فرقة واحدة، وهذه هي الفرقة الناجية، وهي الجماعة؛ أي: جماعة المسلمين الذين كانوا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهجه وطريقته، واثنتان وسبعون فرقةً مخالفة لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم ليسوا كفارًا، بل هم مسلمون، ولكنهم مستحقون للعذاب، وأمرهم إلى الله عز وجل، فمَن شاء أدخله النار، ولكنه لا بد أن يخرج منها؛ لأنه لا يبقى فيها أبد الآباد إلا الكفار، ومَن شاء الله تعالى أن يعفوَ عنه عفا عنه وأدخله الجنة ولم يدخل النار، ومَن دخلها فإنه لا بد وأن يخرج منها، وهذه الفرق هي من أمة الإجابة، فهم مسلمون)[[348]](#footnote-348).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم مُبلِّغًا عن ربه: ((... وإني لن أُسلِّط على أمتك جوعًا فيُهلِكهم فيه، ولن أجمع عليهم من بين أقطارها حتى يفني بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، وإذا وضع السيف في أمتي فلن يُرفَع عنهم إلى يوم القيامة، وإن مما أتخوف على أمتي أئمة مُضلِّين، وستعبُدُ قبائلُ من أمتي الأوثان، وستلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وإن بين يدي الساعة دجَّالين كذَّابين، قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه نبي، ولن تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل))[[349]](#footnote-349).

من هنا ثار خلاف شديد بين العديد من العلماء في مسألة الفِرْقة الناجية، وهل هي المقصودة بالآية والحديث معًا ((لا تزال طائفة من أمتي منصورين))، فتكون الفرقة الناجية هي المنصورة، أم أن الفرقة الناجية أعم من الفرقة المنصورة؟[[350]](#footnote-350).

وقد توسَّع البعض في الخلاف إلى أمور لا يحمد عقباها، ولكن عند النظر بين الاصطلاحين (الفرقة الناجية)، (الطائفة المنصورة)، نجد أن الاصطلاح الأول هو وصفٌ لهذه الفئة في الآخرة، أما الاصطلاح الثاني، فهو وصف لهذه الطائفة في الدنيا، وهو الأمر الذي ينفي التعارض بينهما، وقد وعد الله تعالى بنصر عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: 51]، الأمر الذي يدلُّ على أن الطائفة المنصورة هي من الفِرْقة الناجية، ولا خلاف في ذلك، وإنما الاختلاف بينهم: هل الفرقة الناجية لا بد وحتمًا أن تكون هي الطائفة المنصورة في الدنيا؟

وهذا الاختلاف ينبني على فكرة أن النتيجة هي معيار الحكم على الطائفة، فإن لم تنتصر الطائفة، فإنه حالَ التطابق بين الاصطلاحين يحكم بأنها ليست الفرقة الناجية، فلأنها خالفت المنهج الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فإنها ليست بالفرقة الناجية، ومن ثَمَّ لم تنتصر، وهذا هو الخطأ بعينه؛ ذلك أن المسلمين في غزوة (أُحُد) قد هُزِموا، وقُتِل حمزة بن عبدالمطَّلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وسيِّد الشهداء، فهل معنى ذلك أنه لأنه لم ينتصر فليس من الفرقة الناجية؟!

بالطبع لا يمكن الحكم على الأشياء بظواهرها، وإنما النصر والهزيمة هما ابتلاء الله تعالى للفئة المؤمنة، لقوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 140 - 141]، فالله تعالى شهِد لهم بالإيمان رغم ما مسَّهم من قرح لهزيمتهم في أحد، وأعلمهم أن سنة الله تعالى - وإن كانت نصر المؤمنين في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد - هي الابتلاء والتمحيص قبل النصرة، فإذا تجاوزت الفئة المنصورة مرحلتَي الابتلاء والتمحيص، بشَّرها الله تعالى بالنصر إن شاء الله، ولا شك أن أعمارًا من في هذه الفئة تقصر عن بلوغ مرحلة النصر، وإنما قد تكون قد شاهدت مرحلة التمحيص والابتلاء فحسب، ولا يَحُول ذلك دون وصفِهم بالطائفة المنصورة؛ لأنهم بذروا بذرة هذا النصر باستشهادهم في سبيل الله تعالى، بعدما أدُّوا ما عليهم ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم.

مما تقدَّم نخلص إلى أن الفِرَق في الأمة الإسلامية لن تنجوَ منها من النار إلا واحدة، ورغم أن هذه الفرق من الأمة المسلمة، إلا أن النار عقابها لها ما لم تعتصم بكتاب الله تعالى، فإذا ما اعتصمت كانت هي الفرقةَ الناجية، والفرقةُ الناجية من النار منها طائفةٌ من الأمة ظاهرة على الحق، لا يضرهم من خذلهم، وهم المرابطون في سبيل الله تعالى، ولذلك قال بعض العلماء إن المسلمين هم أهل القِبْلة، الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: ((مَن صلى صلاتنا، واستقبل قِبْلتنا، وأكل ذبيحتَنا، فذلك المسلم، الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا اللهَ في ذمته))[[351]](#footnote-351).

وهؤلاء منهم العصاة، ومنهم أهل الطاعة، ومن ثَمَّ منهم مَن يستحق النار ولا يُخلَّد فيها لإسلامه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من أهل القبلة من شاء الله، قالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخِذنا بها، فسمع الله ما قالوا، قال: فأمر بمَن كان في النار من أهل القِبْلة فأُخرِجوا، فيقول الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما أُخرِجوا))، قال: وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ \* رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر: 1، 2][[352]](#footnote-352).

وينجي الله تعالى من النار الطائفةَ الناجية التي اعتصمت بكتاب الله تعالى ولم تتفرَّق، وهي التي أشار إليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإن أمتي ستفترق على ثنتينِ وسبعين فِرْقةً، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)[[353]](#footnote-353).

بقي إذًا الحديث عن الطائفة المنصورة التي أشار إليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))[[354]](#footnote-354).

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة))[[355]](#footnote-355).

فقد أزال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال بتعريفه للطائفة المنصورة، بأنها التي تجمع بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يتفق كذلك مع ترتيب الآيات وسياق السورة، وكذلك التحرِّي عن صدق الحديث، وهم الذين أكثر العلماء من تسميتهم بأهل الحديث، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنكم مفتوح عليكم، منصورون ومصيبون، فمَن أدرك ذلك منكم فليتقِ الله، وليأمر بالمعروف، ولينهَ عن المنكر، وليصِلْ رحِمه، مَن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار))[[356]](#footnote-356).

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر تحديدًا حينما أشار إلى الصِّفة الجامعة لكل صفات الطائفة المنصورة، بأنها تلك الطائفة المرابطة في سبيل الله تعالى على أعتاب المسجد الأقصى، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا فسد أهل الشام، فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة))[[357]](#footnote-357).

كما لا يمكن اختزال الطائفة المنصورة في المجاهدين دون العلماء، ولا العلماء دون المجاهدين، ولا القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون غيرهم من المجاهدين أو العلماء، وإنما لا بد من فقهِ أن فروض الكفاية لا تقومُ بها طائفةٌ واحدة من الناس، فهم جميعًا منصورون، وإنما يتحقق نصرهم بتحقيق غاياتهم:

فلو كانوا مجاهدين فهم منصورون على أعدائهم بإذن الله تعالى، رغم شهادتهم في سبيل الله تعالى بالذود عن حوض هذا الدين.

ولو كانوا علماء فهم بإذن الله تعالى منصورون في حفظ الشريعة الإسلامية وتوريثها للناس.

ولو كانوا من المحتسبين القائمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم منصورون بإذن الله تعالى بإقامة حدود الله تعالى وشرعه، حتى وإن مسهم القتل والأذى من ذلك؛ لأنهم من بذروا بذرة هذا الخير بفضل الله.

إذًا نخلُصُ من ذلك إلى أن مسألة النصر ليست معيارًا للفِرْقة الناجية، ولا علة ضابطة للحكم على هذه الطائفة بأنها ناجية، وإنما المعيار الضابط والوصف الظاهر المنضبط للطائفة المنصورة بإذن الله تعالى هو قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يستغرق أهل الحديث، وكذا المجاهدين؛ لأنه لا يحق لمن يجهل حديث النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتدبَ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل الحسبة، وكذلك لا يحق لمن يجاهد في سبيل الله تعالى بماله ونفسه ألا ينكر منكرًا ولا يأمر بمعروف، وإنما كان جهاده في سبيل الله تعالى هو من باب إنكار المنكر والأمر بالمعروف في أقوى صوره باليد، لقول الله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: 29]، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن رأى منكم منكرًا فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))[[358]](#footnote-358).

من هنا نُرجِّح قول مَن ذهب هذا المذهب من العلماء المعاصرين، وأوضح أن الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة بإذن الله، وإنما الطائفة المنصورة تقوم على أحد فروض الكفاية، ولذلك أُفرد لها اصطلاح خاص فحسب، فقال: (الفرقة الناجية هي الجماعة الأم للمسلمين التي تتوفر فيها صفتا المتابعة للسن، وسلامة الاعتقاد، وهي شاملة لعامة المسلمين وخاصتهم العلماء منهم وغيرهم، الأقوياء منهم والضعفاء، المجاهدون منهم والقاعدون، والرجال والنساء سواء، والشيوخ والعجائز والشباب وغيرهم ممن يتصف بصفتي المتابعة للسنة، وسلامة الاعتقاد، كما أفاد حديث الافتراق إلى فرق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية هي التي تكون: ((على ما أنا عليه وأصحابي)) [[359]](#footnote-359).

بينما الطائفة المنصورة هي الصفوة والطليعة والنخبة من الفرقة الناجية، وهي تتمثل بالعلماء العاملين الصادعين بالحق، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وبالمجاهدين المقاتلين في سبيل الله الذين لا يضرهم من خذلهم، وعليه فإن كل واحد من الطائفة المنصورة هو من الفرقة الناجية، ولا يلزم بالضرورة أن يكون كلُّ واحد من الفرقة الناجية، هو من الطائفة المنصورة؛ لأنه لا ينبغي ولا يجوز أن نفترض في كل واحد من الفرقة الناجية أن يكون من العلماء، ومن المجاهدين في سبيل الله، وإليك الدليل، قال تعالى:

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}آل عمران:104. فهذا خطاب موجه لمجموع الأمة المتمثلة بـ " الفرقة الناجية " بأن ينفر منهم طائفة معينة ومتخصصة، وهو المراد هنا بالأمة، تتفرَّغ وتتخصص للنهوض بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[[360]](#footnote-360).

**ثالثًا: سر وحدة الأمة وقوتها ارتباطها بعاطفة الأخوة في الله:**

يقول سبحانه: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 103].

والنبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قدم على قوم يقتل بعضهم بعضًا ويُذِيق بعضهم بأس بعض، أضاء لهم النور وشرح صدورهم للحب في الله، فأنهى ما بينهم من عداوة، وألَّف بينهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم بُعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق مَلْؤُهم وقتلت سَرَواتُهم - أي أشْرَافهم[[361]](#footnote-361) - وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام)[[362]](#footnote-362).

قال ابن حجر:

(قال الخطابي: يوم بعاث يومٌ مشهور من أيام العرب كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج، وبقيت الحرب قائمةً مائة وعشرين سنة إلى الإسلام، على ما ذكر بن إسحاق وغيره، قلت: تبِعه على هذا جماعة من شراح الصحيحين...

أما وقعة بعاث، فكانت قبل الهجرة بثلاث سنين، وهو المعتمد، وهو أصح الأقوال...، ودامت الحرب بين الحيَّينِ - الأوس والخزرج - في أيام كثيرة شهيرة)[[363]](#footnote-363).

وقال ابن رجب: (أي قدم ذلك اليوم لأجل رسول الله؛ إذ لو كان أشرافهم أحياءً لاستكبَروا عن متابعة رسول الله، ولمنع حبُّ رياستهم عن دخول رئيس عليهم، فكان ذلك من جملة مقدمات الخير.

قوله: "في دخولهم في الإسلام" كلمة (في) هنا للتعليل؛ أي: "لأجل دخولهم"؛ أي: دخول الأنصار الذين بقَوْا من الذين قتلوا يوم بعاث في الإسلام)[[364]](#footnote-364).

والمعنى المستفاد مما تقدَّم أن العداء الذي كان بين الأوس والخزرج كان سببًا لدخولِهما في الإسلام، بعد أن وجدا أن القتل استحرَّ بهم، ونال من أشرافهم وسادتهم، فلما دعاهم الإسلام لنبذ الفرقة والاختلاف والقتال، ودعاهم إلى الحب والإيخاء كان ذلك قريبًا لقلوبهم وأحبوه فاستجابوا له ودخلوا في الدين.

**رابعًا: انتداب هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخرى للتخصص في نشر الدعوة الإسلامية وأعمال الخير**

يقول سبحانه: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104].

من هنا يمكن القول: إن أول فروض الكفاية تقدمًا في المرتبة على غيرها من الكفائيات ما يُتوَصَّل به إلى حفظ الدين في الناس، وتوريثه للأجيال القادمة، وهذه هي وظيفة الأنبياء، لكن لَمَّا كان النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتمَ الأنبياء، وقد جاء بمعجزة تحيا بعد موته، ألا وهي معجزة الإسلام كعقيدة وشريعة، كدين يتعبد به لله وكمنهج ينظِّم للناس كافة صور الحياة - كان لا بد كذلك لكي تستمر هذه المعجزة أن يحمل هذا المنهج ويدعو إليه جماعة من المسلمين تنتدب لذلك، فإذا كانت هذه الجماعة منتدبةً من الدولة المسلمة تمكَّنت - فضلاً عن نشر الدعوة - من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل درجاته، فإن لم تكن مُمَكَّنة ولم تكن منتدبةً، فإن الشارع قد انتدبَها للقيام بهذه الوظيفة متى توافرت فيها اشتراطاتها، شريطة أن يكون أمرها بالمعروف وإنكارها للمنكر وَفقًا للصور التي أجازها الشرع بما لا يوقعها في منكر أكبر من المنكر الذي تنهى عنه، ولا أن تمنع معروفًا أكبر من المعروف الذي كانت تأمر به، فإذا أدى إنكار المنكر لمنكر أكبر أو مفسدة أعظم، فهنا لا يجوز الإنكار؛ لأن الإنكار في هذه الحالة لا يؤدي مقصده، من ذلك ما اعتذر به نبي الله هارون لأخيه موسى عليهما السلام لما عاتبه في عدم إنكاره المنكر في ردة بني إسرائيل عن الإسلام بعبادة العجل، قال تعالى: {قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا \* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي \* قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: 92 - 94].

وعليه قال العلماء: إن من قبيل ذلك كذلك الإنكار على ولي الأمر - الشرعي أو المتغلب - بالخروج عليه، كأصل عامٍّ، فإنه يستلزم منكرًا أعظم، والنبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، والإنكار على الملوك والولاة يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه أساس كل شر وفتنة، ولهذا كان من أصول أهل السنة لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمَن عرَف برئ، ومَن أنكر سلم، ولكن مَن رضي وتابع))، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: ((لا، ما صلوا))[[365]](#footnote-365)، والصلاة هنا علامة على أنه وإن أخطأ فإنه يريد حفظ الدين، وترك الصلاة علامة على استهانته بأمر الدين، والتضييق على المصلين في أماكن عباداتهم قريب من ترك الصلاة، لقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: 114]، إذًا العبادة أحد المعايير الظاهرة في الحكم على الأمور سياسة، بل وأظهرها في الحكم على وسيلة تغيير المنكر بالنسبة للحكم، بَيْدَ أن المعيار الأعم والأشمل في ذلك ثابتٌ في حديث عُبادة بن الصامت، قال: "دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على ((السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا نُنازِع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان))[[366]](#footnote-366)؛ كأن يستحلَّ الدماء بغير حق، ولو استحل دماء غير المسلمين بغير حق، فإنه يجب دفعه؛ لأن لهم علينا ذمة الله ورسوله، ولأجل ذلك سُمُّوا بأهل الذمة، والمقصد أن يستحلها، لا أن يخطئ في الحكم؛ لأن الخطأ وارد، أما مَن يستحل محرمًا، فقد غيَّر شرع الله، وهو ما يعد من الكفر البواح، بَيْدَ أنه ينقص لإنكار المنكر عليه إقامة البرهان؛ أي: إقامة الدليل الواضح والظاهر للعيان عليه، بأنه فعل ذلك الكفر البواح، كأن يكون القتل عشوائيًّا أو أن يصرح بذلك... إلخ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض))[[367]](#footnote-367)، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك؛ أي: لم يكن في الإمكان إقامة الحجة عليه، بأنه قد أتى كفرًا بواحًا، وفي ذات الوقت لم يكن من أهل العدالة في إقامة شرع الله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه مَن فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية)) [[368]](#footnote-368).

وذلك لما في الخروج عليهم من الفتن العظيمة التي تؤدي إلى سفك دماء المسلمين، وانتهاك أعراضهم وحرماتِهم، ونهب أموالهم، واختلال أمنهم واستقرارهم[[369]](#footnote-369).

قال ابن بطال:

(في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلِّب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لِمَا في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها)[[370]](#footnote-370).

قال النووي في الشرح:

(والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان؛ أي: تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم، إلا أن تروا منهم منكرًا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتُم ذلك فأنكروه عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم، فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضًا، فغلط من قائله، مخالف للإجماع، قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البَيْن، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل.

قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها.

قال: وكذلك عند جمهورهم البدعة.

قال: وقال بعض البصريين تنعقد له وتستدام له؛ لأنه متأول.

قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر، وتغيير للشرع، أو بدعة، خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونصب أمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحقَّقوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه.

قال: ولا تنعقد لفاسق ابتداءً، فلو طرأ على الخليفة فسق، قال بعضهم: يجب خلعه إلا أن تترتب عليه فتنة وحرب.

وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه للأحاديث الواردة في ذلك.

قال القاضي: وقد ادَّعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع، وقد رد عليه بعضهم هذا بقيام الحسن وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية، وبقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع بن الأشعث، وتأوَّل هذا القائل قوله: (ألا ننازع الأمر أهله في أئمة العدل).

وحجة الجمهور أن قيامَهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق، بل لِما غيَّر من الشرع، وظاهَر من الكفر.

قال القاضي: وقيل: إن هذا الخلاف كان أولاً، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم، والله أعلم)[[371]](#footnote-371).

وتتمحور قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحفاظ على السمت الإسلامي للمجتمع المسلم؛ ذلك أن المجتمعات تتناسى التشريعات ما لم تذكرها بها، وقد ينسخ العرفُ المخالفُ الشرعَ القائم، وليس ذلك هو الدينَ، حين يتناسى الناس أحكام الله تعالى لضعف الدعوة إلى الخير، وعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فالحذر كل الحذر أن يصير المعروف عند الناس منكرًا، ويصير المنكر معروفًا، بل ويأمرون بالمنكر وينهَوْن عن المعروف، فإذا انقلبت الأوضاع، فذلك راجعٌ إلى غياب أهل الحق والمرابطين على الدعوة عن القيام بواجبِهم بحق، فإذا مات النبي صلى الله عليه وسلم أتموت معه دعوته بموت الحواريين والأنصار، أم أنه لا يزال حواريُّوه يتوارثون هذا الدين ويُورِّثونه للناس، ويقومون على حفظه حتى تقوم الساعة بالدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[[372]](#footnote-372).

إذًا هناك صراعٌ بين العادات والتقاليد الخاطئة والموروثة عن السابقين، أو المستوردة من غير أهل الملة، وبين القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية التي رسَّخها الإسلام في قلوب الأنبياء ومَن تبِعهم من أهل الحق والمرابطين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتتغير أخلاق المجتمعات وعاداتهم، إما إلى تلك العادات والأعراف المخالفة للشرع، أو إلى ما فيه كمال لمحاسن أخلاقهم، كما أنزلها القرآن بحسب غلبة كليهما على الآخر، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: 170].

ولاحِظ معي أن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتعلَّق بالأفعال لا بالمعتقدات، بمعنى أن ما يعتقده الشخص من أمور تخالف عقيدة الإسلام يخرج عن مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليدخل في مجال الدعوة إلى الله تعالى، ومن ثَمَّ يخرج بالتبعية عن دائرة الأمر والنهي إلى دائرة النصح والإرشاد والدعوة بالخير؛ أي: يخرج عن دائرة الولاية والحسبة إلى دائرة الدعوة بمفهومها الواسع التي يشارك فيها الكافة ولو بكلمة أو بآية، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((بلغوا عني ولو آية))[[373]](#footnote-373)، فمَن تعلم آية من كتاب الله تعالى تحمل مسؤولية تبليغها للناس، أما انتداب جماعة أو هيئة للدعوة في سبيل الله تعالى، فليس إلا تأطيرًا لهذه الدعوة في عمل مؤسسي جمعي، لتؤتي ثمارها ضعفينِ؛ إذ لا شك أن العمل الدعوي الجمعي المنظَّم أكثر بركة من العمل الفردي.

من هنا نفهم **الفصل بين العمل الدعوى والعمل الحسبي**، وأن لكل منهما مجالَه المستقل من حيث الطبيعة والشروط والاختصاص والوسائل، فإذا كان طبيعة الدعوة تقتضي التمهل واللين في الخطاب للمدعو، والتدرج معه في النصح والإرشاد، فإن طبيعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي السرعة والحسم والتقصي والحساب، كل ذلك بحسب القدرة والمرحلة التي تمر بها الجماعة المؤمنة؛ بحيث لا يتخلَّف عن ذلك فتنة أو ضرر أكبر، كذلك لو أن للقيام بالدعوة اشتراطَ علمِ الداعية بالمسألة المدعو إليها، فإنه يشترط للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلوغ المستوى الكافي من العلم بجميع المنكرات والأحكام التكليفية، حتى لا ينكر المحتسب معروفًا ولا يأمر بمنكر، وهو ما يتطلَّب تأهيل المحتسب قبل اشتغاله بهذه الوظيفة، والتحقق من تمكُّنه من العلم بالأحكام التكليفية وفقه الواقع وكيفية معالجتها بفقه تغيير المنكر، كذلك يظهر الفارق بينهما لو كان المختص بالدعوة في سبيل الله تعالى جميع المسلمين، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الدين النصيحة))، قلنا: لمن؟ قال: ((لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم))[[374]](#footnote-374)، فإن المختص بالقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل صاحب ولاية مسؤول في حدود ولايته.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبدُ الرجلِ راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته))[[375]](#footnote-375).

ومن ثَمَّ تبدأ هذه المسؤولية من راعي البيت في بيته، والمعلِّم في مدرسته، والإمام في المسجد، والشرطي في حدود ولايته المكانية والنوعية، والقاضي في إطار ولايته القانونية، والوزير في حدود مسؤولياته الوزارية، حتى الحاكم في إطار وحدود ولايته الجغرافية والزمنية إلى الخليفة، لتمتد ولايته إلى آخر حدود الدولة الإسلامية.

أما من حيث الوسائل، فإذا كانت وسيلة الدعوة إلى الخير الخطب، والمواعظ، والدعوة الفردية، والمدارسات، وحلقات الذِّكر والعلم، ومجالس التعليم...، إلخ، فإن وسيلة إنكار المنكر بدفع المنكر بالأخف ثم الأشد، فإذا اندفع بالأخف، فلا يجوز دفعه بالأشد، كما ذُكِر في الحديث من دفع المنكر باليد، ثم اللسان، ثم القلب، واعتبار ذلك أضعف الإيمان؛ فذلك لأننا كما ذكرنا أن ولاية الحسبة تقتضي السرعة والحسم عند القدرة، بخلاف الدعوة التي تقتضي النصح والإرشاد، فعن سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي، قال صلى الله عليه وسلم: ((ذكِّرْه بالله))، قال: فإن لم يذَّكَّر؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((فاستعِنْ عليه مَن حولك من المسلمين))، قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((فاستعن عليه بالسلطان))، قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: ((قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك))[[376]](#footnote-376)، فإذا كان هذا هو حكم الإسلام في حفظ الأموال التي جعل العلماء مرتبتها في الحفظ ضمن مقاصد الشرع الخامسة والأخيرة، ومن ثَمَّ فإن دفع المنكر عن الدين، والنفس، والعقل، والأعراض، والنسل، ولو باليد عند الحاجة، أولى من دفع الاعتداء على الأموال لأجل حفظها، ولا شك أن المحتسب إذا ما وجد منكرًا فله أن يبدأ دفعه بالأشد؛ لأنه مأمور بحفظ المجتمع من الجريمة ابتداءً، فإذا كان الغالب أن الجاني قادر على إنفاذ جرمه، أو أوشك على ذلك، فله أن يدفعه طالما توافرت القرائن المبرِّرة لذلك، وله أن يقبض عليه بتهمة الشروع في الجريمة.

من هنا أجاز العلماء ارتكاب أخف الضررين لاتقاء أشدهما متى تعذر اتقاؤهما، ومقتضى هذه القاعدة - كما قالوا - (أنه إذا لم يكن بد من ارتكاب أحد الضررين، فيجوز للإنسان أن يرتكب أخفهما لدفع الأشد، ولا يجوز له أن يرتكب أشد الضررين لدفع أخفهما، فتطبيق هاتين القاعدتين يوجب على المكرَه أن يأتي من الأمرين أمرًا واحدًا بعينه، فإذا أتاه فهو لا يختار في الواقع، وإنما يضطر إلى إتيانه اضطرارًا بحكم الإكراه أولاً، ونزولاً على حكم الشريعة ثانيًا، وإذًا فاختياره ينعدم تمامًا إذا نزل على حكم قاعدتَي الضرر سالفتَي الذكر، فتنعدم المسؤولية الجنائية لانعدام الاختيار وترتفع العقوبة.

أما إذا خالف حكم قاعدتَي الضرر ودفع الضرر بمثله، أو دفع الضرر الأخف بالأشد، فقد اختار، وهذا الاختيار لا يعدم المسؤولية الجنائية، ولا يرفع العقوبة، ولو كان مداه ضيقًا)[[377]](#footnote-377).

وإذا كان هذا هو حكم الإسلام فيمن يدفع صائلاً عن نفسه، فينكر منكره بالأخف ثم الأشد، فإن هذا الحكم يتعدى كذلك للكافة ليدفعوا الصائل على الغير، ولو لم يقع عدوانه على النفس، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: ((تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره))[[378]](#footnote-378).

وهذا الحكم استنبطه شرَّاح القانون الوضعي من الإسلام وطبَّقوه، حتى إنهم وضعوا في قوانينهم الجنائية حقَّ العامة في القبض على المتلبِّس بجريمة وتسليمه لأقرب رجل سلطة عامة، وذلك إذا ما شوهد بارتكابه جريمة يعاقب عليها القانون بالحبس أو أشد، ومن ثَمَّ يكتسب الكافة صفة الضبطية القضائية حال قبضهم على هذا المجرم حتى تسليمه لأقرب رجل سلطة عامة في أحوال التلبس بالجرائم، وهو عين ما أقره الإسلام، لو أضحى المنكر منكرًا في المجتمع والمعروف معروفًا، ولم تنقلب الأوضاع بعد.

يقول صاحب الظلال:

(فمنهج الله في الأرض ليس مجرَّد وعظٍ وإرشاد وبيان فحسب، فهذا شطر، أما الشطر الآخر، فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيِّرة من أن يعبثَ بها كلُّ ذي هوًى، وكل ذي شهوة، وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعمًا أن هذا هو الخير والمعروف والصواب!).

والسؤال إذا لم يتعدَّ صاحب المنكر حق الغير، وكان محصورًا على ضرر نفسه، كمَن يشرب الخمر، أو يزني، أو تزني أو لا ترتدي الحجاب، كيف يكون إنكار المنكر الذي أتى به؟

هنا لا بد وأن نُفرِّق بين المنكر الذي يتعدَّى أثره إلى غير المعيَّنين، كشارب الخمر، فإنه قد يضر غيرَه من الناس حال السكر، وكذا مَن تفتِنُ الناس بجسدها ولا تتورع أن تأتي بفعل فاضح في المكان العام، فهؤلاء إن كانوا يظنون أنهم لا يعتدون بحريَّتهم الشخصية على حريات الآخرين، فإنهم مخطئون؛ لأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة بفعلهم الفاضح في الأماكن العامة وَفْقًا لمعيار الإسلام، ويهجمون بفعلهم على السمت العام للمجتمع الذي يتمسك بأخلاق الإسلام، ليهدموا قيمه وأخلاقه بما يظهرونه من المعاصي والبدع، والله تعالى توعَّدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، فقال في كتابه: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور: 19]، وهو ما يستفاد منه أن ما يفعلونه يُوجِب أن تتوجَّه إليه جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنتدبة من الإمام، ليعاقبوا عليه متى ظهرت منهم مخالفة في ذلك؛ ذلك أن الإسلام حينما أوجب الحجاب، وحرم السفور والتبرج، فإنه يرسي قاعدة أخلاقية تُمثِّل إحدى ظواهر التحضُّر الإنساني، وتبتعدُ به كل البعد عن الجاهلية والتخلف، يقول سبحانه: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33].

يقول صاحب الظلال:

(يشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية، فيوحي بأن هذا التبرُّج من مخلفات الجاهلية التي يرتفع عنها مَن تجاوز عصر الجاهلية، وارتفعت تصوراته ومُثُله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومُثُلِها ومشاعرها).

والمرأة غير المؤمنة إذا استقلَّت بنفسها فلم يكن للمؤمن عليها سلطان، فإنها إما أن تكون ذمِّية أو مستأمنة، والمستأمنات هن ما يطلق عليهن في الاصطلاح المعاصر (السائحات)؛ فإنهن - أي السائحات - وإن كن غير ملتزمات بأن يرتدين الحجاب الشرعي طالما أنهن غير مؤمنات وكذا الذميات؛ لأن الخطاب في الحجاب لكل امرأة تخضع لولاية رجل مؤمن، فإنهن ملتزمات - بالرغم من ذلك - بمراعاة الآداب العامة التي تقرها أعراف المجتمعات التي تخضع لأحكامها، ولَمَّا كنَّ في ظل الإسلام يخضعن لحكم الإسلام، فإنهن ملتزمات بتغطية عوراتهن، لقول الله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 26].

قال القرطبي:

(قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة)، والخطاب الوارد بالآية يُفِيد بأن المخاطَبين بوجوب ستر العورة كلُّ بني آدم، بصرف النظر عن معتقداتهم وأشخاصهم، أو معتقداتهن وأشخاصهن، وإن كان لباس التقوى و الحجاب الذي ترتديه المرأة المسلمة هو خيرًا من ذلك اللباس الذي ترتديه المرأة الذمية أو المستأمنة لتستر به عورتها.

أما حد العورة من المرأة، فهو كلها عدا الوجه والكفين، والأدلة على ذلك كثيرة، وعلى هذا أكثر العلماء، أما مَن فرَّق منهم بين الأَمَة والحرة، فلم يأتِ بدليل على هذه التفرقة، وعليه فإن الأدلة الصحيحة التي وردت في المسألة تفيد بوجوب أن تستر المرأة عورتها أيًّا كانت ديانتها، ويقصد بها جميع جسدها عدا الوجه والكفين، وقِسْ على ذلك سائر الأمور التي ينبغي إنكارها ولو لم يتعد الضرر للغير مباشرة.

**خامسًا: محاربة أهل الفُرْقة والاختلاف:**

قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: 105 - 108].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن خلع يدًا من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة لا حجَّة له، ومَن مات وليس في عنقِه بيعة مات ميتة جاهلية))[[379]](#footnote-379).

والمقصود أنه لا بد من أن ينشغل المسلم بقضية الدين والحفاظ عليه، وأن يجاهد لأجلها، ولا يبخل بماله ونفسه لأجل دينه، وإلا عُدَّ من المنافقين؛ ولأنه لن يقدر على ذلك وحدَه، فكان لا بد له من بيعة لإمامٍ يحمل في عنقه هذه القضية، ويقوم بدوره وجماعة المؤمنين عليها، فإذا لم يرتبط المسلم بمن ينشغل بهم عن هذه القضية، فقد خلع عن رقبتِه البيعة لكل أحد من آحاد الناس، وهو ما يأباه الإسلام؛ إذ لا بد له من بيعة، وليس المعنى المقصود هو اتباع جماعة من المسلمين والتعصب لرأيهم دون غيرهم، وإنما المقصود يختلف بين أمرين:

فإذا كان للمسلمين إمام شرعي يجمع كلمتهم، فلا يجوز لآحاد الأمة إلا أن يبايعوه على السمع والطاعة في غير معصية الله، وعندئذٍ لا يجوز أن يخرج عليه أحد، وإلا فالحد واجب عليه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنه ستكون هَنَات وهَنَات فمَن أراد أن يُفرِّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا مَن كان))[[380]](#footnote-380).

وإن لم يكن لهم ذلك، فلا يعدم في المسلمين مَن يحمل همَّ قضية الدين والجهاد بالمال والنفس لأجله، وإن تعددت الأقطار، وإن تباينت الأعراف، ومن ثَمَّ فإنه يأخذ في إطار هذه البيعة من العمل ما يُسقط به عن نفسه مسؤوليةَ القيام بواجب حفظ الدين، والدعوة إليه، وبالجملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المسلم يعيش في إطارِ الجماعة دائمًا، سواء صغُرَت فتمثَّلت في جماعة بيتِه، أو كبرت شيئًا فشيئًا فتمثَّلت في جماعة مسجده، أو كبرت أكثر فأكثر، فتمثلت في جماعة المسلمين في حيِّه أو قريته حتى تصير الجماعة في دولتِه.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بالجماعة، وإياكم والفُرْقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، مَن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، مَن سرَّته حسنته وساءته سيئتُه فذلكم المؤمن))[[381]](#footnote-381).

قال الشيخ ابن عثيمين: (عوامُّ الناس تابعون لأهل الحل والعقد، فإذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد صار المبايَع إمامًا، وصار وليَّ أمر تجب طاعته في غير معصية الله، فلو مات الإنسان وهو يعتقد أنه ليس له ولي أمر، وأنه ليست له بيعة، فإنه يموت ميتة جاهلية))[[382]](#footnote-382).

بَيْدَ أن الإشكالية تثور حينما تتعدَّد الجماعات التي تدَّعي أنها على الحق، وعندئذٍ إما أن تتوحَّد أو تظهر الفُرْقة بينها، فعن أبي عامر الهَوْزني عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا، فقال: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا، فقال: ((ألا إن مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتينِ وسبعين ملةً، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة))[[383]](#footnote-383).

ومن هنا نشأ مصطلح أهل السنة والجماعة، فقد نشأ هذا المصطلح عندما ‏ظهرت البدع في أواخر عهد الصحابة؛ كبدعة التشيع، والقدرية، والخوارج، وأول مَن أُثِر ‏عنه هذا اللفظ الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، ففي تفسير قوله ‏تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: 106]، فقال: حين تبيض وجوه أهل السنة ‏والجماعة، وتَسْوَدُّ وجوه أهل البدعة والفُرْقة[[384]](#footnote-384).

قال ابن تيمية: (وهؤلاء الذين تفرَّقوا واختلفوا حتى صار عنهم من الكفر ما صار، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض))[[385]](#footnote-385)، فهذا من الكفر، وإن كان المسلم لا يكفر بالذنب)[[386]](#footnote-386)، فهو يقصد من ذلك أنهم وإن تفرقوا واختلفوا واستحقوا بذلك النار، إلا أنهم لا يزالون من المسلمين، بَيْدَ أنهم خرجوا عن الجماعة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159].

والخلاصة أن كل نبي جاء بمعجزة يؤمن بها مَن تجرَّد قلبه عن الكبر، ويكفر بها مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: 14]، ومعجزة الإسلام في منهجه وجماعته، فمَن أبصر هذه المعجزة وآمن بها فهو من الفئة الناجية، ومَن لم يبصرها أو كذب بها فليختَر لنفسه أي فرقة من الاثنتي وسبعين فِرقةً.

**سادسًا: التوسع في أمر الدعوة الإسلامية خارج أقطار الدولة الإسلامية:**

قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ \* كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 109، 110].

قال ابن عاشور:

(والمقصود بالخيرية الأولى في {كُنْتُمْ خَيْرَ} المسلمين كلهم في كل جيل ظهروا فيه، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمة أنه لا يخلو مسلمٌ من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة)[[387]](#footnote-387).

والمقصود من الخروج هو خروج هذه الأمة في سبيل الله تعالى، سواء أكانت هجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فيخسرون بسببها أموالهم وديارهم لينضموا إلى صفوف المرابطين في سبيل الله.

كما روي عن ابن عباس في قوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، قال: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، والذين هاجروا معه إلى المدينة [[388]](#footnote-388).

أو لأجل أن يفتحوا بلادًا غير بلاد المسلمين، فينقلب أهلها مسلمين عندما يعيشون بينهم حتى لو كانوا أسرى حربٍ.

كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قال: (خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام)[[389]](#footnote-389).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((عجِب الله من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل))[[390]](#footnote-390).

وعن عامر بن واثلة قال: ضحِك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استعرض، فقال: ((ألا تسألوني مما ضحكتُ؟))، قلنا: يا رسول الله، مما ضحكت؟ قال: ((رأيت ناسًا من أمتي يُساقون إلى الجنة في السلاسل، ما أكرهها إليهم))، قلنا: مَن هم؟ قال: ((قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم في الإسلام))[[391]](#footnote-391).

قال ابن الجوزي:

"معناه أنهم أُسِروا وقُيِّدوا، فلما عرَفوا صحة الإسلام دخلوا طوعًا، فدخلوا الجنة، فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول، وكأنه أطلق على الإكراه التسلسل، ولَمَّا كان هو السبب في دخول الجنة أقام المسبب مقام السبب"[[392]](#footnote-392).

إذًا لا عَلاقة للأسر بإكراهِهم على الإسلام، وإنما كان الأسر لأنهم أهل حرب، وصدُّوا عن سبيل الله، فلما عاشوا مع المسلمين في الأسر، وشاهدوا أخلاقهم حملهم ذلك على الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قِبَل نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أُثَال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((ما عندك يا ثُمامة؟))، فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسَلْ منه ما شئت، فتُرِك حتى كان الغد، ثم قال له: ((ما عندك يا ثمامة؟))، قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ((ما عندك يا ثمامة؟))، فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نجل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى، فبشَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوتَ؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حِنْطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم[[393]](#footnote-393).

قال تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 110].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة يُؤتَون أجرَهم مرتين، الرجل تكون له الأَمَة فيعلمها، فيحسن تعليمها ويُؤدِّبها، فيحسن أدبها، ثم يعتقها فيتزوجها، فله أجران، ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمنًا، ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران، والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده))[[394]](#footnote-394).

والخيرية هنا من وجهين:

يقول الزمخشري: ({وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}؛ لكان الإيمان خيرًا لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثَروا دينهم على دين الإسلام حبًّا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين)[[395]](#footnote-395).

ولا شك أن تمني دخول أهل الكتاب في الإسلام وحضهم على ذلك، تناسب مع ذكر خيرية هذه الأمة بخروجها في سبيل الله لأجل الدعوة الإسلامية، بإزالة أكبر منكر، والأمر بأكبر معروف، فتُزِيل الصادين عن سبيل الله الذين يبغونها عوجًا، وتدعو أهل الكتاب بأن يدخلوا في الإسلام أو يهادنوا المسلمين، ولذلك كان استخدام (لو) قاطع النفي لأن يكون الإسلام قد أجبرهم على الإيمان، وإنما هو محض اختيار حر لهم، ليتهم يختارونه، بَيْدَ أن أكثرهم فاسقون، فيمتنعون.

ولما كان (لو) حرف امتناع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود))[[396]](#footnote-396)، الأمر الذي ترتب عليه أن أكثرهم الفاسقون، وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: ((لو تابعني عشرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم))[[397]](#footnote-397).

والمعنى أنه لو تبِعه زعماؤهم وأحبارهم، قال المناوي: (والمراد عشرة مخصوصة ممن ذكر في سورة المائدة، وإلا فقد آمن به أكثر)[[398]](#footnote-398).

قال النووي: (قال صاحب التحرير: المراد عشرة من أحبارهم)[[399]](#footnote-399).

قال ابن حجر: (والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذٍ رؤساء في اليهود، ومن عداهم كان تبعًا لهم، فلم يسلم منهم إلا القليل كعبدالله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في اليهود عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم:

ومن بني النَّضير: أبو ياسر بن أخطب، وأخوه حُيَي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي الحقيق.

ومن بني قينقاع: عبدالله بن حنيف، وفِنْحَاص، ورفاعة بن زيد.

ومن بني قريظة الزبير بن باطيا، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت إسلام أحد منهم، وكان كل منهم رئيسًا في اليهود، ولو أسلم لاتبعه جماعة منهم، فيحتمل أن يكونوا المراد)[[400]](#footnote-400).

وهو الأمر الذي يُؤكِّد أن هؤلاء الأحبار والزعماء هم عقبةُ وصولِ دعوة الإسلام لقومهم، ومن ثَمَّ شرع جهادهم لأجل أن يصل الإسلام إلى قومهم لتعنُّتهم في وصول الدعوة وصدهم عن سبيل الله، ولولا ذلك لما دعت الحاجة لجهادهم ما داموا مسالِمين محافظين لعهودهم مع المسلمين.

**سابعًا: الصبر على أذى الفاسقين من أهل الكتاب والاستيقان النصر بمنهج الله:**

قال تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: 111]، وهو ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في (أُحد)، فلم يقدر المشركين أن يضرُّوا المسلمين في دعوتِهم بعد أُحد، وإن استطاعوا أن يقتلوا كثيرًا من المسلمين ويجرحوا أكثر وأكثر، إلا أن عزيمة المسلمين لم تهن ولم تضعف، امتثالاً لقول الله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]، فإذا كان هذا قد حدث بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد أقام دولة وجيشًا، أفلا يكون أولى بالضر مَن أسلم من أهل الكتاب وأضحى مؤمنًا.

يقول الشيخ الشعراوي:

(إذًا ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق؟ سيتربَّص الفاسقون - وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية - بالأقلية المؤمنة، ليوقعوا بهم الأذى والضرر، أي يا أيتها الأقلية التي آمنت من أهل الكتاب - مثل عبدالله بن سلام الذي أسلم وترك اليهودية - إيَّاكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذاب بكم، فالحق سبحانه يُعلِن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التي آمنت منهم لن يتجاوز الأذى، إن الأذى هو الحدث الذي يؤلِم ساعة وقوعه ثم ينتهي، أما الضرر، فهو أذًى يؤلم وقت وقوعه، وتكون له آثار من بعد ذلك، ولننظر إلى ما حدث لبني قَيْنُقَاع، ولِمَا حدث لبني قُرَيظة، ولما حدث لبني النَّضِير، ولما حدث ليهود خَيْبر، هل ضرُّوا المؤمنين إلا أذى؟

لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يَغُرَّنك يا محمد، أنك لقيت قومًا أغرارًا، لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم، فإذا أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال"، وكان ذلك مجرد كلام باللسان، إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعًا، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقي، فلم يمكنهم الله؛ لأن الحق يقول: {وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: 111]، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررًا حقيقيًّا، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين، فهزيمتهم أمر لا مناص منه...، {ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ}.

إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدًا، سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا، إنها قضية ثابتة منفصلة، وليست معطوفة على الشرط، فعلَّة عدم النصر ليست القتال، ولكنها الكفر...، والحق أورد حرف "ثم" وهو يفيد التراخي، وهذا يعني أنهم لا ينتصرون عليكم أيها المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يردُّون بها على توليهم الأدبار...، والإيضاح يُؤكِّد أنهم - كأهل الكفر - لا ينتصرون لا بذواتهم، ولا يُنصَرون بغيرهم أيضًا)[[401]](#footnote-401).

فإذا كان هذا هو كلام الشيخ الشعرواي، إذًا فماذا حدث للمسلمين في أُحُد؟!

يستطرد الشيخ قائلاً:

(إن رأيتم - أيها المسلمون - نصرًا للكافرين عليكم منهم، أو بتعصب قوم لهم، فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله...، والهزيمة تحدث عندما لا نكون جندًا لله؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده، فقال: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: 173]، فإذا لم نغلِب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله)، والمعنى ليس على إطلاقه؛ أي إن الهزيمة لحقت بجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل ما لحق بهم من المنافقين أمثال عبدالله بن أُبَي، وما لحق بهم من طالبي المَغْنَم والدنيا، فلم يكن النصرُ لهم هذا اليوم رغم ما معهم من جنود صادقين؛ أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وإن أصاب عثمانَ بن عفان في هذه الغزوة الوهنُ وفرَّ مع الفارِّين، بَيْدَ أن الله غفر لهم جميعًا، ولذلك لم يكن بعدُ قد آن الأوان لأن تكون هذه الفئة هي المنصورة إلا بعد أن تجتاز مرحلة التمحيص والابتلاء.

**ثامنًا: العلو على الكافرين:**

قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: 112].

فالمسلم دائمًا يعلو على الكافرين حتى لو وقع في أسرهم، لقوله تعالى: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]، والكافرون دائمًا مضروب عليهم المسكنة، أما الذلَّة، فهي مضروبة عليهم ما لم يرتكنوا إلى عهد ذمة أو استئمان من المسلمين، وذاك هو عهد الله، أو يرتكنوا لفئة من الناس لها عهد مع المسلمين، فيمسكوا أو يستمسكوا بعهدها ليخرجوا من الذلة.

قال الشعراوي:

(ولنا أن نلاحظ أن الذلة له استثناء، فهم يَنالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس، أما المسكنة، فلا استثناء فيها...؛ لأن المسكنة أمر ذاتي في النفس، إنهم مساكين بأمر من الله، أما الذلة، فقد يأتي لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم؛ فالذلة أمرٌ من خارج، أما المسكنة، فهي في ذاتيتهم، وعندما تكون المسكنة ذاتية، فلا إنقاذ لهم منها؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها)، ولنا أن نقول: إنهم إذا خرجوا من الذلة لم يرتقوا إلى مرتبة العزة؛ لأنها قاصرة على المؤمنين، لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8]، فتقديم الخبر - شبه الجملة - على المبتدأ أفاد الحصر والقصر، وإنما بهذا العهد يصلون إلى مرتبة الصغار فحسب، لقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: 29]، والصَّغار المقصود في السياق هو نزولُهم على حكم الإسلام واحتكامهم لشرعه ما لم يدخل في صميم عقيدتهم وشرائعهم؛ بحيث يكون النظام العام للبلاد هو الشريعة الإسلامية، وفي ذلك تضمين لحقوقهم بعهد الله ديانة، قبل أن تضمن وضعًا، فهذا من قبيل الاستسلام لأن يُحكموا بشرع الله تعالى فيما عدا ما يحتكمون إليه فيما بين بعضهم البعض.

والإسلام يدعو إلى العهد والسلام في إطار مبدأ المواطنة، لكن إذا كان لهذا المبدأ مزايا وضمانات، فإنه يمثل في شقه الثاني أعباءً وتكاليف، فلا يستفيد من مزاياه إلا مَن استعد لأعبائه وتكاليفه التي تُؤكِّد على مبدأ الولاء للدولة والخضوع لأحكامها وقوانينها، وعدم الخروج عليها، فهؤلاء الذين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا هم الذين خرجوا على نظامها الإسلامي ودستورها الرباني، فألزمهم الله تعالى الذلة والصغار أينما كانوا، فلا يأمنون إلا بحبل من الله؛ أي: بذمة من الله، ويتمثل ذلك في عقد الذمة وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة، والحبل من الناس؛ أي: أمانهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير، إذا أمنه واحد من المسلمين، ولو كان امرأة أو عبد، على أحد قولي العلماء، قال ابن عباس: (أي بعهد من الله وعهد من الناس)[[402]](#footnote-402).

ولذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((أقركم ما أقركم الله به)[[403]](#footnote-403).

يقول المفكر الدكتور/ سليم العوا:

(فكرة عقد الذمة ليست فكرة إسلامية مبتدأة، وإنما هي مما وجده الإسلام سائغا بين الناس عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فأكسبه مشروعيته، وأضاف إليه تحصينًا جديدًا بأن حوَّل الذمة من ذمة العاقد أو المُجِير إلى ذمة الله ورسوله والمؤمنين؛ أي ذمة الدولة الإسلامية نفسها، وبأن جعل العقد مؤبدًا لا يقبل الفسخ، حماية للداخلين فيه من غير المسلمين، ويترتب على ذلك - في أصح أقوال الفقهاء - حرمةُ مالِهم ولو لم يكن متقومًا في نظر الإسلام كالخمر والخنزير، وجواز إقامة دُور العبادة التي يتعبَّدون فيها، وقَبول شهادتهم إلا في الأمور الدينية للمسلمين[[404]](#footnote-404).

وقد نص الفقهاء بلسان ابن حزم الظاهري على أن (مَن كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونًا لمن هو في ذمة الله ورسوله، فإنه تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة)[[405]](#footnote-405).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد عرَف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم غازان وقطلوشاه وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، فقلت له: بل جميع مَن معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفتكهم ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة)[[406]](#footnote-406).

ومن هنا نشأ فرض الجزية، فكما أن الزكاة مفروضة على المسلمين، فإن الجزية مفروضة على الكافرين المعاهدين، فلا ينتقص من هذا حق ولا من ذاك، في إطار مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات المالية والرعوية، مع مراعاة عدم المساواة بينهما عند رب العالمين.

وما كفرهم بآيات الله - سواء بإنكارها، أو بعدم الاحتكام إليها، وإنزالها على واقع الناس وحياتهم - ولا قتلهم للأنبياء، ولا معصيتهم لله، واعتداؤهم على حرمات الإسلام، بمُعِزِّة لهم، ولا بمخرجة لهم مما هم فيه من الذلة والمسكنة، حتى ولو كانوا قد عاهدوا الله وعاهدوا المسلمين، فإنهم بغدرهم هذا أضحوا مستحقين اللعن ومستحقين لأن ينزل غضب الله تعالى عليهم، وما كان قتل الأنبياء إلا لحكمة قدَّرها الله تعالى وهي اصطفاء الله لعباده المصطَفين من بين قومِهم، الذين تخلوا عن نصرتهم ولم يتَّبِعوا منهجهم، فكان لا بد من أن يتحقَّق نصرُ النبي بالاستشهاد في سبيل الله، كذا الذين يأمرون الناس بالقسط، ولا بد ثانيًا أن تنزل لعنة الله تعالى على القوم المخالفين بعد أن يُخلِّص الله منهم الأنبياء والصالحين، يقول سبحانه: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} [الزخرف: 41]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33].

قال صاحب الظلال:

(فإذا قال أحد منهم: لماذا نغلب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ما هو الإسلام، ومن هم المسلمون؟!).

**المطلب الثاني**

**تميز المرابطين من أهل الكتاب والمسلمين عن الكافرين أصحاب الأهواء**

**الآيات من (113) - (120):**

لكي يتميز المرابطون من أهل الكتاب، والمسلمون عن الكافرين، فلا بد وأن يثبُت أولاً أهل الكتاب والمسلمون في مواقعهم وثغورهم حتى يفتح الله تعالى على بلادهم بالإسلام، ولا بد دائمًا أن يوقنوا بأن النصر صبر ساعة، فإذا ما تحقَّق النصر فأول مهامِّ المرابطين هي تطهير بلادهم من الخونة والمنافقين من جميع مؤسسات دولتهم الجديدة حتى لا ينقلب عليهم المنقلبون، ولا ينخدع المرابطون بهم حتى لو أظهروا لهم مودة أو مواطنة، فأهل الثقة هم الأجدر في تولي الأمانات، والخبرات تكتسب بالاستعانة بالخبراء والمستشارين دون أن يولوا ولاية تضيع بها الأمة حال خيانتهم لها.

**أولاً: الرباط على العبادة والدعوة في كل المواقع والثبات في الثغور:**

قال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ \* يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 113 - 115].

فبالرغم من العداوة التي يلقيها أهل الكتاب للمسلمين، والأذى الذي يُقدِّمونه، إلا أن الله تعالى شاءت إرادته أن يُخرِج من أصلابهم مؤمنين، وهذه الصورة كثيرًا ما نشاهدها، وتحكي لنا عنها السيرة الكثير والكثير، بل إن منهم بالفعل من المرابطين الذين كتموا إسلامهم لأجل قومِهم، فلم يجهروا به مخافةَ الفتنة، ولعل منهم هرقل ملك الروم - والله أعلم - بل كاد يُعلِن إيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم، رغم أنه كان نصرانيًّا، لما دعا عظماء الروم عنده بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم اطلع، فقال: (يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل)[[407]](#footnote-407).

وكان للبعض منهم عدة مواقف يُحمَدون عليها في نصرة الإسلام؛ منهم النجاشي ملك الحبشة، لما آوى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إليه وحماهم من عمرو بن العاص - ولم يكن عندئذٍ على الإسلام - ورفض أن يسلمهم له.

قال الطبري:

(أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظلَم أحدٌ بأرضه، وكان يثني عليه، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتَّجِرون فيها، فأمرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة وخاف عليهم الفتن)[[408]](#footnote-408).

وكان أمرُهم بالمعروف، ونهيُهم عن المنكر، ومسارعتُهم للخيرات، هو ضرب من ضروب التوحيد لله تعالى، بالرغم من عدم إعلان ذلك، فهم يعملون لله، ويرابطون على ثغور الإسلام، بل وقد يحتمي بهم المسلمون، وينكرون على مضطهديهم محاولاتهم لاستردادهم، ولا يقبلون أي رشوة لتسليمهم إليهم، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم عبدالله بن مسعود، وجعفر، وعبدالله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمِّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلَّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً، ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسَّها بشر، ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عودًا من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيتُه حتى أكون أنا الذي أحمل نعلَيْه وأوضِّئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجَّل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم استغفر له حين بلغه موته[[409]](#footnote-409).

وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي لما مات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه خرج إلى المصلى فصف بهم وكبر أربعا[[410]](#footnote-410)، فالآيات تؤكد أن صفة المرابطة لا تقتصر على من سلف ذكرهم ممن هم موصوفون بالصفات التي ذكرناها ممن هم معروفون من الأمة الإسلامية، بل إن من أهل الكتاب من احتذى حذوهم واقتدى بهم وتأسى بسنة نبيهم، وماتوا على ذلك، فأخذوا أجرهم دون أن يُكفَرُوه، فالله سبحانه هو أعلم بمن اتقى حتى لو لم يكونوا معروفين عند الناس.

**ثانيًا: وجوب الفقه بأن النصر صبر ساعة:**

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [آل عمران: 116، 117].

يؤكِّد المولى سبحانه حقيقة لا بد وأن يوقن بها المرابطون في سبيل الله، وعليهم أن يثقوا بأن الله معهم وهو وليُّهم على الكافرين، وأنه مهما جمع الكفَّارُ من الأموال وحشدوا من الجند والأولاد، فإن ذلك كله سوف يؤول إلى بوار، ولن يغني عنهم شيء من عذاب الله، ولن ينفعهم في الصد عن سبيل الله، وقد ضرب الله بهم مثلاً بالزرع الذي تهلكه ريح فيها برد شديد، قال عطاء: برد وجليد[[411]](#footnote-411)، فهو لم يهلك من النار كما هلكت جنة المرائين تلك الصورة التي صورتها سورة البقرة من قبل، وإنما هلك بريح فيها برد شديد، فنظير ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الأنفال: 36]، فالصِّرُّ الذي يهلك الحرث من البرد الشديد، بخلاف النار التي تهلك الحرث بالحرق؛ ذلك أن المرائي يصلح العمل بالإخلاص، من ثَمَّ لديه فرصة لأن يعيد زرع الحرث مرة أخرى في تلك الأرض المحروقة، والتي لا تزال خصوبتها فيها، بينما مَن يهلك زرعه بالصر، فإن حسرته عليه شديدة؛ إذ لا يمكن أن يعيد زرعه مرة أخرى إلا بعد أن ينتهي هذا الصرُّ، وتمضي مدة زمنية كافية تستعيد فيها الأرض خصوبتها، إذًا عليهم لكي يصلحوا زرعهم أن ينفقوا أموالهم في بيئة صالحة للزراعة، وهو ما يعني أن تتغير ظروف الطقس والبيئة أولاً حتى يجنوا ثمار ما ينفقوه، وكأن الكفر هو ذلك الطقس السيئ الذي أفسد زرعهم، فإن أرادوا أن يُصلِحوه فعليهم أن يدخلوا في الإسلام حيث يكون الإسلام هو البيئة المواتية والملائمة لما ينفقوه لأجل الزرع.

فإذا أيقن المسلمون هذه الحقيقة دفعهم ذلك إلى استمرار رباطهم في سبيل الله تعالى، لعلمهم أن النصر صبر ساعة، وهذا هو سر تميزهم معنويًّا في معركتهم مع الكافرين، والكفار وإن حاولوا إنفاق أموالِهم في أعمال الخير ليحسنوا صورتهم أمام الناس، فإن صورتهم لن تتحسَّن مهما فعلوا، فإنفاقهم إلى بوار، والصورة التي يُصوِّرها القرآن لإحباط عملِهم تدخل فيها الريح، وهي لا يُحرِّكها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الله بلا سبب من البشر، ولا يقدر أحد من البشر أن يدفعها، فتكون وظيفتها إهلاك كلِّ ما أنفقوه على هذا الحرث، وهي لا تأتي وهم ما يزالون يحرثون، وإنما بعدما انتهى عملهم وينتظرون أن يجنوا ثمار جهدهم، في هذه اللحظة ينزل الأمر من الله تعالى بإهلاكها، فكما أنهم يستعجلون ثمرة إنفاقهم في هذه الحياة الدنيا، فإنهم سوف يتحسرون عليها كذلك في هذه الحياة الدنيا، وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: 18].

حشد الكفارُ حشدًا منتقمًا أعلنوا الحرب وجهزوا الرحال

بلغ الأمر النبي، عندها عبأ الجيش وهيأ الرجال

أمر الرماة ألا يبرحوا جبلاً يحضن ساحة القتال

التقى الجيشان والنصر بدا مثل بدر الليل ساعة اكتمال

خالف الرماة أمر المصطفى جلهم خالف والحرب امتثال

بُدل الحال وخير الخلق في ذلك الموقف يرمي بالنبال

هُجم الحبيب، شُجَّ رأسه، دمه الطاهر فوق الوجه سال

والبطولات تجلَّت حوله فغدا كالطَّود ما بين الجبال

بعدها أسند في الشِّعب وقد أُغمِدت حينئذٍ كل النِّصال

فهذا من قبيل التمهيد للخوض في تفاصيل غزوة أُحُدٍ التي تدور معظم الآيات حولها، لتؤكِّد أن الكفار لا يملكون من الأمر شيئًا، وأنهم مهزومون بإذن الله في الدنيا، ومعذَّبون بأموالهم وأولادهم يوم القيامة، {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 196، 197]، والمسلمون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعلمون هذه الحقيقة، ولذلك انتدبهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد هزيمتهم في أحد مباشرة للخروج إلى حمراء الأسد، ليردوا أي هجوم متوقَّع على المسلمين، من المشركين الذين لا يزالون يعيشون زهو النصر في أُحُدٍ لسويعات.

قال ابن عباس: لَمَّا انصرف المشركون عن أحد وبلغوا الروحاء قالوا: لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد وبئر أبي عتيبة، فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [آل عمران: 172]، وكان أبو سفيان قد قال للنبي صلى الله عليه وسلم: موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع، فأخذ أهبة القتال والتجارة، فلم يجدوا به أحدًا وتسوقوا، فأنزل الله تعالى: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [آل عمران: 174][[412]](#footnote-412).

عن عائشة رضي الله عنها: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 172]، قالت: لَمَّا أصاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: مَن يذهب في إثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً[[413]](#footnote-413).

**ثالثًا: تطهير الدولة المسلمة من بطانة السوء:**

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ \* هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: 118 - 120].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله)) [[414]](#footnote-414).

قال العلماء: (للسلطان بطانتان؛ بطانة السوء وبطانة الخير:

بطانة السوء تنظر ماذا يريد السلطان ثم تزينه له، وتقول هذا هو الحق، هذا هو الطيب، وأحسنت وأوفدت، ولو كان والعياذ بالله من أجور ما يكون، تفعل ذلك مداهنة للسلاطين وطلبًا للدنيا.

أما بطانة الحق، فإنها تنظر ما يرضي الله ورسوله، وتدل الحاكم عليه، هذه هي البطانة الحسنة، كلمة الباطل عند سلطان جائر هذه والعياذ بالله ضد الجهاد، وكلمة الباطل عند سلطان جائر تكون بأن ينظر المتكلم ماذا يريد السلطان فيتكلم به عنده ويزينه له، وقول كلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم الجهاد، وقال عند سلطان جائر؛ لأن السلطان العادل كلمة الحق عنده لا تضر قائلها؛ لأنه يقبل، أما الجائر، فقد ينتقم من صاحبها ويؤذيه، فالآن عندنا أربع أحوال:

كلمة حق عند سلطان عادل، وهذه سهلة.

كلمة باطل عند سلطان عادل، وهذه خطيرة؛ لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك بما تزينه له من الزخارف.

كلمة الحق عند سلطان جائر وهذه أفضل الجهاد.

كلمة باطل عند سلطان جائر، وهذه أقبح ما يكون.

فهذه أقسام أربعة، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان)[[415]](#footnote-415).

ولنا أن نضيف إلى ذلك قسمًا خامسًا، وهو أخطر من ذلك كله، وهم الذين يُزيِّنون للحاكم العادل الباطل، أو يضلونه عن الحق، وهذا ما يفعله أهل الكتاب وأتباعهم، ولا يشترط أن يفعلوه بأنفسهم، وإنما يستخدمون أتباعهم في الغالب ليفعلوا لهم ذلك؛ حيث يلبسون الحق بالباطل، فيقع الحاكم العادل في شر فتواهم واستشارته لهم دون أن يدري، وإذا أراد أن يصحح الأمر لم يتمكن من ذلك بعد أن غرق فيه؛ لأنه حينئذٍ يكون قد اكتوى بنار المشركين، بالرغم من أنه كان ينتوي الاستضاءة بها [[416]](#footnote-416).

قال السيوطي: (أراد بالنار هنا الرأي؛ أي: لا تشاوروهم، فجعل الرأي مثل الضوء عند الحيرة) [[417]](#footnote-417).

قال القرطبي: نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار، واليهود، وأهل الأهواء، دُخَلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم.

وقال إلكيا الهراسي:

في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين.

وذكر ابن كثير في تفسيره: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هاهنا غلامًا من أهل الحيرة نصرانيًّا كاتبًا، فلو اتخذته كاتبًا، فقال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين.

عقب ابن كثير على هذا الأثر بقوله: ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليلٌ على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يُخشَى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، ولهذا قال تعالى: {لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا}، واستدلوا لذلك أيضًا بالقول المأثور: (لا تستضيئوا بنار المشركين)؛ أي: لا تستنصحوهم، ولا تستضيئوا برأيهم.

وروي عن معاوية رضي الله عنه أنه أرسل إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه خطابًا جاء فيه: يا أمير المؤمنين، فإن في عملي كاتبًا نصرانيًّا لا يتم أمر الخراج إلا به، فكرِهت أن أقلده دون أمرك، فكتب إليه: عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد، فإن النصراني قد مات والسلام.

وقد سار الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة على نهج عمر رضي الله عنه في استبعاد أهل الذمة عن الوظائف التي فيها اطلاع على دواخل المسلمين، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد عماله: أما بعد، فإنه بلغني أن في عملك كاتبًا نصرانيًّا يتصرَّف في مصالح المسلمين والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: 57]، فإذا أتاك كتابي هذا فادعُ حسانًا - يعني ذلك الكاتب - إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعِنْ به، ولا تتخذ أحدًا على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين، فأسلم حسان وحسن إسلامه، ولأن من شروط متولِّي هذا العمل الأمانة والنصح للمسلمين، والحرص على مصالحهم، وهذه الشروط غير متحققة في المشركين، وقد نبه الله المسلمين على صفاتهم فهم لا يحبون الخير للمسلمين، ويغشون، ولا ينصحون، قال تعالى فيهم: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة: 105]، وقال تعالى: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [الممتحنة: 2]، ولهذا ولغيره منع الفقهاء أن يستعمل الذمي في عمل يختص بوضع[[418]](#footnote-418).

1. رواه ابن ماجه في سننه ج12 ص393 رقم 4323، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ج7 ص371 رقم 3359: "وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعًا مختصرًا بلفظ: ((ألا مشمر لها - يعني الجنة - ورب الكعبة، ريحانة تهتز، ونور يتلألأ، ونهر مطرد، وزوجة لا تموت، في خلود ونعيم في مقام آبدٍ"؛ أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة 5/1 عن عبدالرزاق: حدثنا إبراهيم بن ميمون حدثني عبدالله بن طاوس عن أبيه، وهذا سند جيد إذا كان السند إلى عبدالرزاق صحيحًا، فليراجع؛ فإن الأصل لا تطوله يدي الآن، ثم راجعناه، فإذا في سنده إليه أحمد بن محمد بن عبيدالله، وهو راوٍ غير ثقة، بل اتهمه بعض أهل العلم؛ كما في "الميزان"، 1/142، والحديث من هذا الطريق في "تاريخ بغداد" 4/252. [↑](#footnote-ref-1)
2. رواه مسلم ج9 ص466 رقم 3496. [↑](#footnote-ref-2)
3. مصنف عبدالرزاق ج5 ص363 رقم 9735. [↑](#footnote-ref-3)
4. رواه البخاري ج12 ص493 رقم 4781. [↑](#footnote-ref-4)
5. رواه البخاري ج12 ص491 رقم 3779. [↑](#footnote-ref-5)
6. البداية والنهاية لابن كثير ج4 ص74. [↑](#footnote-ref-6)
7. رواه البخاري ج 12 ص489 رقم 3777. [↑](#footnote-ref-7)
8. رواه البخاري ج 12 ص489 رقم 3777. [↑](#footnote-ref-8)
9. رواه مسلم ج4 ص231 رقم 1337. [↑](#footnote-ref-9)
10. البداية والنهاية لابن كثير ج 2 ص66. [↑](#footnote-ref-10)
11. د/راغب السرجاني، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: حكاية الإسلام، بعنوان بعث الرجيع ومأساة بئر معونة. [www.islamstory.com](http://www.islamstory.com). [↑](#footnote-ref-11)
12. <http://www.wata.cc/forums/showthread.php>. [↑](#footnote-ref-12)
13. الدكتور/ إبراهيم الحقيل، عَلاقة المسلمين بالنصارى:

    <http://www.en.alukah.net/Spotlight/0/216/#ixzz2zUPJENI> [↑](#footnote-ref-13)
14. رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص649 رقم 4157. [↑](#footnote-ref-14)
15. رواه البخاري ج13 ص284 رقم 4029. [↑](#footnote-ref-15)
16. البداية والنهاية لابن كثير ج5 ص67. [↑](#footnote-ref-16)
17. أكرم بن ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، محاولة لنقد الرواية التاريخية وَفْق منهج المحدثين ج1 ص387. [↑](#footnote-ref-17)
18. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر ج1 ص454، الإصابة في تمييز الصحابة ج6 ص214.

    قدم وفد عبدالقيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم الجارود بن عمرو، وكان نصرانيًّا فأسلم، وأسلم مَن معه، وكان الجارود حسنَ الإسلام، نهى قومه عن الردة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، لَمَّا ارتدوا مع الغرور، وهو المنذر بن النعمان، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي قبل الفتح إلى المنذر بن ساوى العبدي، فأسلم وحسن إسلامه، ثم هلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل ردة أهل البحرين، والعلاء أمير لرسول الله على البحرين. [↑](#footnote-ref-18)
19. رواه الطبراني في المعجم الكبير ج20 ص355 رقم 17595، وهو مرسل؛ انظر: فتح الباري لابن رجب ج2 ص287، والحديث رواه البخاري في صحيحه ج2 ص150 رقم 378 من قوله صلى الله عليه وسلم، وليس من كتبه. [↑](#footnote-ref-19)
20. الكامل في التاريخ لابن الأثير ج1 ص316، البدء والتاريخ لابن المطهر ج1 ص254. [↑](#footnote-ref-20)
21. رواه البخاري ج13 ص285 رقم 4030. [↑](#footnote-ref-21)
22. رواه أحمد ج32 ص188 رقم 19442 وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة ج8 ص134 رقم 3127. [↑](#footnote-ref-22)
23. السلسلة الصحيحة ج3 ص124 رقم 1132. [↑](#footnote-ref-23)
24. رواه أحمد ج4 ص112 رقم 1599، السلسلة الصحيحة ج3 ص124 رقم 1132. [↑](#footnote-ref-24)
25. عون المعبود ج 8 ص201. [↑](#footnote-ref-25)
26. رواه أحمد في مسنده ج30 ص173 رقم 14623 وحسنه الألباني: إراواء الغليل ج6 ص34 رقم 1589، وقال: الحديث قوي له شواهد كثيرة، مختصر إرواء الغليل ج1 ص314 رقم 1589. [↑](#footnote-ref-26)
27. تفسير الطبري ج7 ص118. [↑](#footnote-ref-27)
28. رواه النسائي في سننه الكبرى: ج3 ص319 رقم 11088، انظر تعليق الألباني: السلسلة الصحيحة 7/97، وصححه في السلسلة الصحيحة ج8 ص51 رقم 3044. [↑](#footnote-ref-28)
29. رواه البخاري ج11 ص452 رقم 3351. [↑](#footnote-ref-29)
30. رواه البخاري ج7 ص462 رقم 2070. [↑](#footnote-ref-30)
31. رواه البخاري ج8 ص371 رقم 2296. [↑](#footnote-ref-31)
32. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج1 ص461. [↑](#footnote-ref-32)
33. رواه أبو داود والحاكم في المستدرك ج1 ص686 رقم 1866، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج2 ص371 رقم 746. [↑](#footnote-ref-33)
34. رواه الترمذي ج11 ص382 رقم 3400، وحسنه الألباني: الجامع الصغير، ج1 ص99 رقم 982. [↑](#footnote-ref-34)
35. رواه مسلم ج4 ص239 رقم 1343. [↑](#footnote-ref-35)
36. المستدرك على مجموع الفتاوى ج1 ص177. [↑](#footnote-ref-36)
37. ابن تيمية: قاعدة في المحبة ج1 ص197. [↑](#footnote-ref-37)
38. رواه البخاري ج 13 ص410 رقم 4125. [↑](#footnote-ref-38)
39. كتب ورسائل ابن تيمية في الفقه، ج27 رقم 277. [↑](#footnote-ref-39)
40. رواه البخاري، ج10 ص243 رقم 2812. [↑](#footnote-ref-40)
41. التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج 1 ص159. [↑](#footnote-ref-41)
42. الزمخشري؛ ج1 ص254. [↑](#footnote-ref-42)
43. رواه البخاري ج14 ص14 رقم 4183. [↑](#footnote-ref-43)
44. فتح الباري - لابن حجر العسقلاني ج8 ص210. [↑](#footnote-ref-44)
45. إعلام الموقعين ج4 ص245. [↑](#footnote-ref-45)
46. عون المعبود ج12 ص228. [↑](#footnote-ref-46)
47. مفتاح دار السعادة 1 ص140. [↑](#footnote-ref-47)
48. د/ علي محمد الصلابي: فقه النصر والتمكين ص240. [↑](#footnote-ref-48)
49. جامع بيان العلم لابن عبدالبر ج2 ص96. [↑](#footnote-ref-49)
50. تفسير ابن كثير، ج2 ص10. [↑](#footnote-ref-50)
51. رواه مسلم ج5 ص296 رقم 1762. [↑](#footnote-ref-51)
52. شفاء العليل لابن القيم الجوزية ج1 ص100. [↑](#footnote-ref-52)
53. فتح الباري لابن حجر، ج 8 ص211. [↑](#footnote-ref-53)
54. رواه الترمذي، ج11 ص428 رقم 3444، وصححه الألباني: صحيح الترمذي، ج3 ص171 رقم 2792 [↑](#footnote-ref-54)
55. رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص237 رقم 683، وصححه الألباني: صحيح الترمذي ج3 ص171رقم 2792. [↑](#footnote-ref-55)
56. رواه مسلم 13 ص246 رقم 4894. [↑](#footnote-ref-56)
57. التفسير الكبير مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج4 ص121. [↑](#footnote-ref-57)
58. الفخر الرازي ج4 ص123. [↑](#footnote-ref-58)
59. رواه البخاري ج10 ص19 رقم 2678. [↑](#footnote-ref-59)
60. التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج2 ص53. [↑](#footnote-ref-60)
61. الديباج على مسلم ج4 ص506. [↑](#footnote-ref-61)
62. رواه مسلم ج10 ص19 رقم 3533. [↑](#footnote-ref-62)
63. شرح السيوطي على مسلم ج4 ص503 [↑](#footnote-ref-63)
64. تفسير الشعراوي ج1 ص836 [↑](#footnote-ref-64)
65. نظم الدرر للإمام البقاعي ج1 ص500، والاحتباك: أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول؛ كتاب الكليات ج1 ص57 لمؤلفه أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. [↑](#footnote-ref-65)
66. تفسير الطبري الآية 13 آل عمران. [↑](#footnote-ref-66)
67. رواه أحمد في مسنده ج1 ص117 رقم 948، قال محقق المسند شعيب: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غيرَ حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة، وسماع إسرائيل من جده أبي إسحاق في غاية الإتقان، للزومه إياه، وكان خصيصى به، فيما قاله الحافظ في "الفتح" 1/351، حجاج: هو ابن محمد المصيصي الأعور. [↑](#footnote-ref-67)
68. تفسير الشعراوي ج1 ص845. [↑](#footnote-ref-68)
69. رواه مسلم في صحيحه ج5 ص177 رقم 1674، ورواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص89 رقم 227، وصححه الألباني. [↑](#footnote-ref-69)
70. [http://www.eajaz.org/index.php/Encyclopedias/Research-Scientific-Miracles-Encyclopedia/Medicine-and-Life-Sciences/](http://www.eajaz.org/index.php/Encyclopedias/Research-Scientific-Miracles-Encyclopedia/Medicine-and-Life-Sciences/113-%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%83%D8%B1-%D9%83%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AB%D9%89)

    <http://www.kaheel7.com/modules.php?name=news&file=article&sid=660> [↑](#footnote-ref-70)
71. سواء في ظل النظام المعدني، أو نظام قاعدة الذهب، أو قاعدة المعدنين الذهب والفضة، أو الأوراق النقدية القابلة للتحويل إلى ذهب وفضة، والتي تتضمَّن ثلاث صور: المسكوكات الذهبية، قاعدة السبائك الذهبية، نظام الصرف بالذهب، أو قاعدة الأوراق النقدية غير القابلة للتحويل حتى في هذه الصورة الأخيرة نجد الدولة تحتفظ بالذهب كعامل أمان لعملتها النقدية. [↑](#footnote-ref-71)
72. د.أيمن محمد إبراهيم، نظم الصرف الأجنبي وآليته، الأسبوع التاسع 4، 8/11/1427، التوازن التلقائي - العلاقات النقدية والتمويل الدولي 322 قصد، جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية:

    <http://docs.ksu.edu.sa/DOC/Articles31/Article310862.doc> [↑](#footnote-ref-72)
73. مجلة البحوث، العدد/31، قرار هيئة كبار العلماء رقم 10 بشأن الأوراق النقدية - <http://islameiat.com/main/?c=225&a=1630>

    تحت إشراف الدكتور/ علي عمر أحمد بادحدح - جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين. [↑](#footnote-ref-73)
74. يرجع تاريخ الذهب كعملة في مصر إلى عصر الخليفة عمر بن الخطاب الذي صك الدينار الذهبي منذ الفتح الإسلامي لمصر، د/أسامة محمد الفولي، د/ مجدي محمود شهاب مبادئ النقود والبنوك 1997، ص116 وما بعدها- دار الجامعة الحديثة للنشر، ص116 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-74)
75. سنن ابن ماجه، وصححه الألباني ج 2ص 1304 رقم 3952. [↑](#footnote-ref-75)
76. رواه البخاري ج 6 ص2605 رقم 6702. [↑](#footnote-ref-76)
77. صحيح مسلم ج 4 ص2219 رقم 2894. [↑](#footnote-ref-77)
78. د/ السيد عطية عبدالواحد: أزمة النقد الدولي ومستقبله، مجلة العلوم الاقتصادية والقانون ص247 لسنة 44 عام 2002؛ حيث تحدث عن ضرورة إنشاء محور التثبيت بالعودة لقاعدة الذهب أو تثبيت وحدة الحساب الدولية، ويساعد على ذلك كذلك استقرار أسعار المواد الأولية. [↑](#footnote-ref-78)
79. د. يوسف بن أحمد القاسم أستاذ الفقه المساعد بالمعهد العالي للقضاء، لحماية الريال من التضخم، الذهب مستودع أمين للثروة النقدية، 25/06/2007:

    <http://www.islamtoday.net/questions/show_articles_content.cfm?id=71&catid=73&artid=9560>

    Freedom by Alan Greensban Gold and Economic [↑](#footnote-ref-79)
80. رواه البخاري ج7 ص198 رقم 1907. [↑](#footnote-ref-80)
81. شرح النووي على مسلم ج9 ص216. [↑](#footnote-ref-81)
82. عبدالمحسن العباد: شرح سنن أبي داود ج12 ص.46 [↑](#footnote-ref-82)
83. رواه النسائي 11 ص4 رقم 3298، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن النسائي، ج7 ص422 رقم 3350. [↑](#footnote-ref-83)
84. عبدالمحسن العباد: شرح سنن أبي داود ج12 ص46. [↑](#footnote-ref-84)
85. رواه ابن حبان في صحيحه 1232، والحاكم في مستدركه ج4 ص184 رقم 7306، وصححه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة - المجلدات - ج1 ص281 رقم 282. [↑](#footnote-ref-85)
86. د. محمد عمر الحاجي- مجلة المستثمرين - العدد 42 - بتاريخ 27/9/2005 الناشر: http://www.mosgcc.com/topics/current/article.php?sdd=1558&issue=42 [↑](#footnote-ref-86)
87. د/أحمد جمال الدين موسى مبادئ الاقتصاد السياسي ص345 وما بعدها [↑](#footnote-ref-87)
88. أ/ عبدالحافظ الصاوي، باحث اقتصادي بمنتدى البحوث الاقتصادية - ثقافتنا.. استثمارية أم ريعية؟ - 21/6/2005 إسلام أون لاين: [↑](#footnote-ref-88)
89. peoi.net/courses/coursesen/mac/mac2.htm1

    وهو ما أكده كينز في نظرية بشأن العلاقة بين الادخار والاستثمار.

    كما يعتبر سميث عملية تراكم رأس المال شرطًا ضروريًّا للتنمية الاقتصادية.

    بينما يرى ستيوارتميل بشأن التنمية الاقتصادية؛ حيث يمثل العمل والأرض عنصرين أصيلين للإنتاج، في حين أن رأس المال يَعُدُّ المال تراكمات سابقة لناتج عمل سابق، ويتوقف معدل التراكم الرأس مالي على مدى توظيف قوة العمل بشكل منتج، فالأرباح التي تكتسب من خلال توظيف العمالة غير المنتجة مجرد تحويل للدخل.

    المرجع: نظريات التنمية الاقتصادية - الموسوعة الحرة - ويكيبيديا. [↑](#footnote-ref-89)
90. رواه النسائي ج10 ص193 رقم 3083، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة ج7 ص180 رقم 2979. [↑](#footnote-ref-90)
91. رواه البخاري، ج10 ص366، رقم 2891. [↑](#footnote-ref-91)
92. رواه مسلم ج2 ص57 رقم 369. [↑](#footnote-ref-92)
93. رواه مسلم ج10 ص19 رقم 3533. [↑](#footnote-ref-93)
94. اللباب في علوم القرآن ج3 ص398، لمؤلفه: أبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني. [↑](#footnote-ref-94)
95. القرطبي ج4 ص41. [↑](#footnote-ref-95)
96. التفسير القيم لابن القيم ج1 ص309. [↑](#footnote-ref-96)
97. شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي ج4 ص124، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. [↑](#footnote-ref-97)
98. تفسير القرآن للعثيمين ج4 ص82. [↑](#footnote-ref-98)
99. تفسير الشعراوي ج1 ص874. [↑](#footnote-ref-99)
100. التفسير القيم لابن القيم ج1 ص312. [↑](#footnote-ref-100)
101. دقائق التفسير لابن تيمية ج1 ص339. [↑](#footnote-ref-101)
102. رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص145 رقم 401، وصححه الألباني، صحيح الأدب المفرد ج1 ص167 رقم 401/310. [↑](#footnote-ref-102)
103. رواه ابن ماجه ج1 ص55 رقم 47، وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه، ج1 ص55 رقم 47. [↑](#footnote-ref-103)
104. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ج2 ص41. [↑](#footnote-ref-104)
105. الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص571، والشعراوي ج1 ص889. [↑](#footnote-ref-105)
106. البحر المديد لابن عجيبة ج1 ص261 - البحر المحيط لأبي حيان النحوي الأندلسي ج3 ص186 - الوجيز للواحدي ج1 ص82 - تفسير العز بن عبدالسلام ج1 ص147. [↑](#footnote-ref-106)
107. التحرير والتنوير ج3 ص57. [↑](#footnote-ref-107)
108. عبدالله بن إبراهيم اللحيان - التيسير في دعوة المسلمين الجدد. [↑](#footnote-ref-108)
109. رواه البخاري ج10 ص242 رقم 2811. [↑](#footnote-ref-109)
110. عبدالله بن إبراهيم اللحيان - التدرج في دعوة المسلم الجديد. [↑](#footnote-ref-110)
111. كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج20 ص61. [↑](#footnote-ref-111)
112. رواه مسلم ج1 ص365 رقم 218. [↑](#footnote-ref-112)
113. رواه البخاري ج1 ص166 رقم 92. [↑](#footnote-ref-113)
114. رواه البخاري ج1 ص167 رقم 93. [↑](#footnote-ref-114)
115. رواه البخاري ج16 ص114 رقم 4749. [↑](#footnote-ref-115)
116. فتح الباري لابن حجر ج1 ص130. [↑](#footnote-ref-116)
117. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج1 ص441، مجموعة علماء الشارقة، بإشراف الدكتور مصطفى مسلم - نقلاً عن البحر المحيط ج2 ص429، والتحرير والتنوير لابن عاشور ج3 ص62. [↑](#footnote-ref-117)
118. رواه البخاري ج11 ص271 رقم 3196 [↑](#footnote-ref-118)
119. رواه أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير، ج10 ص211 رقم 10519، وحسنه الألباني ج1 ص101 رقم 1002. [↑](#footnote-ref-119)
120. رواه البخاري ج10 ص428 رقم 2933. [↑](#footnote-ref-120)
121. بدر الدين العيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج1 ص287. [↑](#footnote-ref-121)
122. الدكتور راغب السرجاني حكاية التتار، وكذلك وفاة الملك التتاري بركة خان <http://www.islammemo.cc/zakera/methl-haza-elyawm/2012/03/08/145519.html#2> [↑](#footnote-ref-122)
123. البداية والنهاية لابن كثير ج13 ص.289 [↑](#footnote-ref-123)
124. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج1 ص19 -20. [↑](#footnote-ref-124)
125. تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج4 ص166. [↑](#footnote-ref-125)
126. رواه البخاري ج13 ص110 رقم 3888. [↑](#footnote-ref-126)
127. رواه النسائي ج10 ص258 رقم 3125، وفي سننه الكبرى ج 3 ص28 رقم 4385، وحسنه الألباني، صحيح وضعيف سنن النسائي ج7 ص248 رقم 3176. [↑](#footnote-ref-127)
128. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، الآية 29 آل عمران، ج 1 ص336. [↑](#footnote-ref-128)
129. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - للرازي ج4 ص174. [↑](#footnote-ref-129)
130. رواه أحمد في مسنده ج6 ص163 رقم 25341، وصححه الألباني: الجامع الصغير ج1 ص895 رقم 8942. [↑](#footnote-ref-130)
131. احترازًا من الفهم المغلوط بأن القرآن مخلوق، وإنما هو كلام الله تعالى وليس بمخلوق. [↑](#footnote-ref-131)
132. تفسير الشعراوي ج1 ص4910. [↑](#footnote-ref-132)
133. رواه البخاري ج1 ص26 رقم 15. [↑](#footnote-ref-133)
134. رواه البخاري ج15 ص394 رقم 4609. [↑](#footnote-ref-134)
135. رواه البخاري ج13 ص17 رقم 3804. [↑](#footnote-ref-135)
136. رواه البخاري ج11 ص213 رقم 3157. [↑](#footnote-ref-136)
137. رواه البخاري ج10 ص25 رقم 2681. [↑](#footnote-ref-137)
138. التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج2 ص927. [↑](#footnote-ref-138)
139. البيهقي في سننه الكبرى ج3 ص345 رقم 6183 - الطبراني في المعجم الأوسط ج7 ص134 رقم 7085. [↑](#footnote-ref-139)
140. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج1 ص348. [↑](#footnote-ref-140)
141. تفسير الطبري ج6 ص386 - تفسير السعدي ج1 ص129. [↑](#footnote-ref-141)
142. تفسير السعدي ج1 ص129. [↑](#footnote-ref-142)
143. تفسير حقي ج2 ص175. [↑](#footnote-ref-143)
144. الدر المنثور في التأويل بالمأثور ج6 ص445.

     البداية والنهاية لابن كثير ج2 ص412. [↑](#footnote-ref-144)
145. رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج3 ص640 رقم 6348. وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. [↑](#footnote-ref-145)
146. رواه ابن أبي شيبة ج11 ص561. [↑](#footnote-ref-146)
147. رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص318 رقم 3146، وقال: الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم. [↑](#footnote-ref-147)
148. http://www.muslm.org/vb/showthread.php?151278- [↑](#footnote-ref-148)
149. رواه البخاري ج8 ص371 رقم 3396. [↑](#footnote-ref-149)
150. رواه البخاري ج11 ص250 رقم 3179. [↑](#footnote-ref-150)
151. تحفة الأحوذي ج10 ص265. [↑](#footnote-ref-151)
152. تفسير السعدي ج1 ص130. [↑](#footnote-ref-152)
153. تفسير ابن عجيبة ج1 ص277. [↑](#footnote-ref-153)
154. الزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري ج1 ص337 - لسان العرب ج2 ص593. [↑](#footnote-ref-154)
155. مجموع الفتاوى ج34 ص129. [↑](#footnote-ref-155)
156. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص201. [↑](#footnote-ref-156)
157. رواه البخاري ج12 ص457 رقم 3756. [↑](#footnote-ref-157)
158. الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج1 ص131. [↑](#footnote-ref-158)
159. رواه مسلم في صحيحه ج1 ص34. [↑](#footnote-ref-159)
160. الرازي ج4 ص238. [↑](#footnote-ref-160)
161. انظر: الحوار بين الأديان حقيقته وضوابطه ص13 لمؤلفه د/ عبدالرحين بن صمايل السلمي - مع بعض التصرف. [↑](#footnote-ref-161)
162. أحمد بن إبراهيم بن عيسى - شرح قصيدة ابن القيم ج1 ص37 - الناشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة. [↑](#footnote-ref-162)
163. زاد المعاد في هدي خير العباد ج3 ص643. [↑](#footnote-ref-163)
164. رواه مسلم ج12 ص129 رقم 4420. [↑](#footnote-ref-164)
165. رواه البخاري ج5 ص141 رقم 1268. [↑](#footnote-ref-165)
166. زاد المعاد في هدي خير العباد ج3 ص642. [↑](#footnote-ref-166)
167. فتح القدير 1 ص477 [↑](#footnote-ref-167)
168. رواه البخاري ج1 ص8 رقم 6. [↑](#footnote-ref-168)
169. أبو بكر: الإسلام وخرافة السيف ج1 ص9. [↑](#footnote-ref-169)
170. عبدالرحيم بن صمايل السلمي - الحوار بين الأديان ج1 ص19. [↑](#footnote-ref-170)
171. القاضي منصور حسين عبدالعزيز: دعوة الحق بين المسيحية والإسلام ج2 ص70. [↑](#footnote-ref-171)
172. تفسير ابن كثير ج2 ص56 [↑](#footnote-ref-172)
173. رواه البيهقي في سننه الكبرى ج10 ص116 رقم 20847، ورواه الترمذي ج 10 ص361 رقم 3020 وحسنه الألباني: صحيح وضعيف الترمذي ج7 ص95 رقم 3095. [↑](#footnote-ref-173)
174. تفسير الطبري ج6 ص483. [↑](#footnote-ref-174)
175. مفاتيح الغيب ج4 ص247. [↑](#footnote-ref-175)
176. ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد ج3 ص692 - معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ج 5 ص415 رقم 1757، [كنز العمال 30308]، ذكره الحافظ في الإصابة 1/520، وعزاه للبيهقي في الدلائل، جامع الأحاديث للسيوطي ج34 رقم 232. [↑](#footnote-ref-176)
177. البداية النهاية لابن كثير ج4 ص269. [↑](#footnote-ref-177)
178. دوافع فتح مصر للدكتور راغب السرجاني:

     http://islamstory.com/ar [↑](#footnote-ref-178)
179. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص4. [↑](#footnote-ref-179)
180. رواه ابن ماجه ج1 ص55 رقم 47، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص55 رقم 47. [↑](#footnote-ref-180)
181. رواه البخاري ج14 ص74 رقم 4215. [↑](#footnote-ref-181)
182. رواه البخاري ج11 ص449 رقم 3348. [↑](#footnote-ref-182)
183. بيان مشكل الآثار للطحاوي ج8 ص67 - المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص50، تحقيق ومراجعة مجموعة من علماء الدولة العثمانية الإسلامية: الشيخ محمد طه الندوي، والسيد أحمد الله الندوي، والشيخ محمد عادل القدوسي، والسيد حسن جمال الليل المدني، والشيخ أحمد بن محمد اليماني، وأمعن النظر فيه الشيخ عبدالرحمن بن يحيى اليماني مصحح دائرة المعارف. [↑](#footnote-ref-183)
184. عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني: عقوبتا الزاني والمرتد ودفع الشبهات ج1 ص120. [↑](#footnote-ref-184)
185. الصارم المسلول لابن تيمية ج1 ص462. الناشر: دار ابن حزم - بيروت. [↑](#footnote-ref-185)
186. الصارم المسلول لابن تيمية ص368، مطبعة السعادة، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، وص 362 الناشر دار ابن حزم بيروت. [↑](#footnote-ref-186)
187. الصارم المسلول لابن تيمية ص392 دار ابن حزم بيروت. [↑](#footnote-ref-187)
188. مجموع الفتاوى ج18 ص274. [↑](#footnote-ref-188)
189. رواه البخاري ج11 ص343 رقم 3257. [↑](#footnote-ref-189)
190. رواه البخاري ج22 ص151 رقم 6669. [↑](#footnote-ref-190)
191. عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ج35 ص313: لبدر الدين العيني، تحفة الأحوذي ج10 ص288 لأبي العلاء المباركفوري. [↑](#footnote-ref-191)
192. شرح النووي على مسلم ج9 ص156. [↑](#footnote-ref-192)
193. رواه البخاري ج6 ص449 رقم 1756. [↑](#footnote-ref-193)
194. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج13 ص200. [↑](#footnote-ref-194)
195. تفسير المنار ج3 ص333 لمحمد رشيد رضا. [↑](#footnote-ref-195)
196. رواه البخاري 1 ص8 رقم 6. [↑](#footnote-ref-196)
197. رواه البخاري ج21 ص242 رقم 6412. [↑](#footnote-ref-197)
198. رواه أبو داود في سننه ج11 ص432 رقم 3791 وصححه الألباني: صحيح وضعيف أبي داود 9 ص355 رقم 4355 [↑](#footnote-ref-198)
199. سبل السلام لمحمد بن إسماعيل الصنعاني ج3 ص264. [↑](#footnote-ref-199)
200. شرح النووي على مسلم ج12 ص208. [↑](#footnote-ref-200)
201. رواه أبو داود ج11 ص434 رقم 3793، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص359، رقم 4359- السلسلة الصحيحة ج4 ص300 رقم 1723. [↑](#footnote-ref-201)
202. شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج14 ص253. [↑](#footnote-ref-202)
203. أسد الغابة في معرفة الصحابة ج1 ص617. [↑](#footnote-ref-203)
204. أسد الغابة في معرفة الصحابة ج1 ص617. [↑](#footnote-ref-204)
205. الصارم المسلول ج1 ص124. [↑](#footnote-ref-205)
206. محمد بن جرير الطبري: المنتخب في ذيل المذيل ج1 ص97، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان. [↑](#footnote-ref-206)
207. الشيخ/ محمد أبو زهرة، في رسالة عن نظرية الحرب في الإسلام، ص38، استظهر رأيين للفقهاء في دار الإسلام ودار الحرب، ثم اختار رأى أبي حنيفة، وهو: أن مدار الحكم هو أمن المسلم. [↑](#footnote-ref-207)
208. الطبري: اختلاف الفقهاء ص81 وما بعدها - بدائع الصنائع ج 7 ص35، وص 130. [↑](#footnote-ref-208)
209. رواه أبو داود في سننه ج11 ص437 رقم 3795 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن ابي داود ج9 ص361 رقم 4361. [↑](#footnote-ref-209)
210. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج12 ص281 - المجموع شرح المهذب للنووي ج 19 ص427 - نيل الأوطار للشوكاني ج7 ص209. [↑](#footnote-ref-210)
211. رواه البخاري ج11 ص442 رقم 3341. [↑](#footnote-ref-211)
212. تيسير العلام في شرح عمدة الحكام للبسام ج1 ص368. [↑](#footnote-ref-212)
213. تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج1 ص886. [↑](#footnote-ref-213)
214. رواه البخاري ج10 ص253 رقم 2817 صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص193 رقم 1693. [↑](#footnote-ref-214)
215. رواه الدارقطني في سننه ج2 ص301 رقم 292. [↑](#footnote-ref-215)
216. رواه البخاري ج21 ص241 رقم 6411. [↑](#footnote-ref-216)
217. فتح الباري ج1 ص340. [↑](#footnote-ref-217)
218. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ج5 ص317 لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي [↑](#footnote-ref-218)
219. فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر ج12 ص270. [↑](#footnote-ref-219)
220. رواه البخاري ج1 ص390 رقم 226. [↑](#footnote-ref-220)
221. رواه البخاري ج13 ص91 رقم 3871. [↑](#footnote-ref-221)
222. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج12 ص109. [↑](#footnote-ref-222)
223. رواه مسلم 9 ص25 رقم 3175. [↑](#footnote-ref-223)
224. انظر الصارم المسلول لابن تيمية. [↑](#footnote-ref-224)
225. رواه أبو داود ج11 ص430 رقم 3789 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص353 رقم 4353 وصحيح ابن ماجه 2534. [↑](#footnote-ref-225)
226. النظام العقابي في الإسلام د/محمد سليم العوا. [↑](#footnote-ref-226)
227. رواه البخاري ج5 ص205 رقم 1312. [↑](#footnote-ref-227)
228. رواه أبي داود ج7 ص249 رقم 2281 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج 7 ص405 رقم 2383. [↑](#footnote-ref-228)
229. د/عبد الرحيم صدقي - الغرض المعاصر للعقوبة ص160. [↑](#footnote-ref-229)
230. قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 34]. [↑](#footnote-ref-230)
231. فشدد عقوبة الزنا للمحصن لتصل إلى الرجم، وخفَّفها لغير المحصن لتصل إلى مائة جلدة، وخففها للأَمَة فجعلها النصف. [↑](#footnote-ref-231)
232. رواه أبو داود ج7 ص247 رقم 2280، وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج 7 ص404 رقم 2382. [↑](#footnote-ref-232)
233. رواه البخاري ج 10 ص194 رقم 2785. [↑](#footnote-ref-233)
234. رواه البيهقي في سننه ج9 ص120 رقم 18743. [↑](#footnote-ref-234)
235. رواه البخاري ج8 ص25 رقم 2104. [↑](#footnote-ref-235)
236. النهاية في غريب الأثر ج 2 ص54. [↑](#footnote-ref-236)
237. د. مرعي بن عبدالله بن مرعي الشهري، أحكام المجاهد بالنفس في الفقه الإسلامي ج2 ص127، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - لنيل درجة العالمية العالية "الدكتوراه" من المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. [↑](#footnote-ref-237)
238. علي بن نايف الشحوذ - الخلاصة في فقه الأقليات ج1 ص251. [↑](#footnote-ref-238)
239. رواه أبو داود ج7 ص367 رقم 2356 وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود ج6 ص232 رقم 2732. [↑](#footnote-ref-239)
240. دورة الجهاد ج1 ص55، الدورة المفتوحة الثالثة في شرح كتاب الجهاد من صحيح البخاري - رحمه الله - الشيخ محمد طرهوني حفظه الله جمعها ورتبها أبو عمر القلموني. [↑](#footnote-ref-240)
241. <http://www.mof.gov.eg/MOFGallerySource/Arabic/debt/Government_Debt/20.pdf> [↑](#footnote-ref-241)
242. فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق رحمه الله، [الفتوى رقم 1248 - لسنة 1979 - بتاريخ 14 /03 /1979]. [↑](#footnote-ref-242)
243. وهي اتفاقيات تهدف إلى مبادلة الآثار الناجمة عن تدفقات نقدية فترة زمنية معينة بحيث تكون أحد هذه الآثار غير مؤكد، مثل سعر الفائدة أو أسعار الصرف، وتجري المعاملات بشأنها في أسواق النقد. [↑](#footnote-ref-243)
244. 151k -en.wikipedia.org/wiki/Bretton\_Woods\_system

     Money , Banking and finincial markets - Frederic S. Mishkin p 466 [↑](#footnote-ref-244)
245. <http://www.inciraq.com/Al-Mutamar/Archive/909/050903_909_14.htm>

     الذهب.. هل ما زال احتياطيًّا إستراتيجيَّا - أحمد العثيم - مجلة المؤتمر العدد 909. [↑](#footnote-ref-245)
246. قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي الدولي، القرار رقم 63 ورقم 65 العدد 7 ج1 ص711. [↑](#footnote-ref-246)
247. مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي العدد 11 ج1 ص613. [↑](#footnote-ref-247)
248. قرارات المجمع الفقهي ص281. [↑](#footnote-ref-248)
249. الباحث الاقتصادي /عبدالله صالح محمد سليمان أبو مسامح: المعايير الشرعية ص4 المشتقات المالية الإسلامية بين التنظير والتطبيق - مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية.

     global islamic economic magazine - <http://www.giem.info/article/details/ID/244#.U1HzrYEVyig> [↑](#footnote-ref-249)
250. تحقيق أخبار المال والاقتصاد المنشور بجريدة أخبار اليوم بتاريخ 23/6/2001. [↑](#footnote-ref-250)
251. المستشار محمد حلمي عبدالتواب البورصة المصرية والبورصات العالمية ص126. [↑](#footnote-ref-251)
252. حكم محكمة القضاء الإداري في الدعوى رقم 8521 لسنة 45 ق جلسة 30/1/2002. [↑](#footnote-ref-252)
253. حيث قضت محكمة القضاء الإداري أن البين من الأوراق أن شركة... طرحت للاكتتاب العام بتاريخ 21/3/1999 سندات ذات عائد ثابت بقيمة إجمالية 200 مليون جنيه، وتضمنت شروط الإصدار والتي حوتها نشرة الاكتتاب تحت البند 20 من نشرة الاكتتاب العام بيان الرهونات والامتيازات الحالية المترتبة على أصول الشركة، وقد رخصت الهيئة العامة لسوق المال للشركة بإجراء الاكتتاب العام؛ حيث اعتمدت نشرة الاكتتاب تحت رقم 282 بتاريخ 11/2/1999، وكان البين من الأوراق أن شركة... مصدرة السندات كانت قد رهنت لصالح البنك المدعي عدد 40630 سهمًا من الأسهم المملوكة لها رهنًا حيازيًّا ضمانًا لتسهيلات ائتمانية حصلت عليها من البنك المذكور، وكانت هذه الأسهم تمثل أصلاً من أصول الشركة والتي صدر على أساس منها الاكتتاب العام في سندات قيمتها 200 مليون جنيه، وذلك في تاريخ سابق على طرح السندات في الاكتتاب المشار إليه، وعلى خلاف ما ورد بنشرة الاكتتاب من أنه لا توجد أي رهونات أو امتيازات على أصول الشركة، وإذ قامت الشركة بالتنازل عن هذه الأسهم إلى البنك المدعي نظرًا لحلول أجل الدين المضمون بهذه الأسهم، وجرت عملية بيع الأسهم إلى البنك تحت رقم 3122 بتاريخ 13/12/1999، الأمر الذي يكون معه هذا الإجراء قد تم على خلاف نشرة الاكتتاب وقرار الهيئة العامة لسوق المال بالترخيص للشركة بإجراء هذا الاكتتاب، فضلاً عما أدخله من الغش على مشتري السندات؛ حيث أوردت النشرة - على خلاف الحقيقة - أن أصول الشركة غير محملة بأية رهون أو امتيازات، وإذ تدخَّلت الهيئة العامة لسوق المال، فأصدر رئيسها قراره الطعن بإلغاء العملية رقم 3122، والتي تضمنت بيع الأسهم المملوكة للشركة والمرهونة للبنك المشتري المدعي، فإن هذا الإجراء يتوافق مع صحيح حكم القانون، وتحتمه ضرورة حماية السندات المشار إليها، ويكون الطعن عليه قائمًا على غير سند صحيح من القانون. [↑](#footnote-ref-253)
254. حكم محكمة القضاء الإداري بالقاهرة في الدعوى 22937 لسنة 56 قضائية بجلسة 20/11/2002. [↑](#footnote-ref-254)
255. د/رشاد عبده المؤسسات والأسواق المالية ص230. [↑](#footnote-ref-255)
256. د. سامي السويلم - المشتقات المالية أدوات للتحوط أم للمجازفة - المصدر الموقع الإلكتروني للدكتور - ‏04‏/07‏/2006م - [sami@suwailem.net](mailto:sami@suwailem.net) [↑](#footnote-ref-256)
257. د/رشاد عبده - المرجع السابق ص169. [↑](#footnote-ref-257)
258. د. حسين حسين شحاتة: " الالتزام بالضوابط الشرعية فى المعاملات المالية، " دار التوزيع والنشر الإسلامية.

     د. على السالوس: " المعاملات المالية المعاصرة فى ميزان الفقه الإسلامى "، مكتبة وهبة. [↑](#footnote-ref-258)
259. مجموعة الفتاوى للشيخ ابن تيمية ج 30 ص264 - ج 29 ص472. [↑](#footnote-ref-259)
260. د/فياض عطية - سوق الأوراق المالية في ميزان الفقه الإسلامي - ص311. [↑](#footnote-ref-260)
261. وفيما يلي مثال يوضح عقد الخيار في السوق المالية:

     نفرض أن سعر سهم شركة ما هو 70 دولارًا، وحق الخيار لشراء مائة سهم بالسعر الحالي خلال 90 يومًا هو 4 دولارات للسهم، فإذا ارتفع سعر السهم خلال هذه المدة إلى 76 دولارًا، فإن ربح المشتري يكون كما يلي: قيمة شراء الأسهم بالسعر السابق هو 70 × 100 = 7000 دولار، يضاف إليها قيمة شراء حق الخيار وهو 4 × 100 = 400 دولار، فيكون المجموع هو 7400 دولار، قيمة الأسهم الحالية إذا باعها بسعر السوق الجديد هو 76 × 100 = 7600 دولار، صافي الربح: 7600 -7400 = 200 دولار.

     ويتضح من المثل، أن المضارب استثمر مبلغ 400 دولار، هي ما دفعه قيمةً لحق الخيار في الشراء، وحقَّق ربحًا قدره 200 دولار.

     وأما في حالة انخفاض أسعار الأسهم، فلا ينفذ عملية الشراء، ويتحمل خسارة مقدارها 400 دولار هي قيمة الخيار فقط، كما يستطيع المضارب بيع حق الخيار بستة دولارات مثلاً وعدم شراء الأسهم؛ د/ رشاد عبده - سياسات الاستثمار - مرجع سبق ذكره. [↑](#footnote-ref-261)
262. أسواق البورصة، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، ص121. [↑](#footnote-ref-262)
263. http://www.islamecon.com/publish/printer\_50.shtml [↑](#footnote-ref-263)
264. د. سعيد عبدالخالق - التوريق - بوابة التشريعات المصرية:

     http://www.investment.gov.eg/MOI\_Portal/ar-EG/FAQs/NBFS/Capital\_Market/ [↑](#footnote-ref-264)
265. فعلى سبيل المثال تلقت الهيئة العامة لسوق المال طلبينِ من شركتين لتوريق ما لديهما من محافظ مالية آجلة، وتلك الجهات تمثل أحد البنوك المتخصصة في المجال العقاري، والذي يرغب في توريق محفظة قيمتها 500 مليون جنيه مصري، عبارة عن قروض سكنية، تضمن سدادها الحكومة المصرية، في حين أن الجهة الأخرى تمثل إحدى شركات تمويل قروض لشراء السيارات الجديدة، والتي ترغب في توريق محفظة تبلغ حوالي 120 مليون جنيه. [↑](#footnote-ref-265)
266. في دورته السابعة عشرة المنعقدة في مكة من التاسع عشر إلى الثالث والعشرين من شهر شوال. [↑](#footnote-ref-266)
267. الشيخ/ سعد بن تركي الخثلان - جامع ابن تيمية:

     http://www.taimiah.org/Display.asp?ID=9&t=book91&pid=2&f=12fqh- [↑](#footnote-ref-267)
268. مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل ج1 ص473، لعبدالله بن أحمد بن علي الزيد - تفسير البغوي ج2 ص59. [↑](#footnote-ref-268)
269. محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص405. [↑](#footnote-ref-269)
270. الصارم المسلول ج1 ص245. [↑](#footnote-ref-270)
271. المعجم الكبير للطبراني ج22 ص70 رقم 1821، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج15 ص2 رقم 3426. [↑](#footnote-ref-271)
272. شرح النووي على مسلم ج7ص 164 - جلال الدين السيوطي: الديباج على مسلم ج3 ص147. [↑](#footnote-ref-272)
273. تفسير الشعراوي ج1 ص1038. [↑](#footnote-ref-273)
274. <http://alkalema.net/ibnalah.htm>. [↑](#footnote-ref-274)
275. رواه البزار في مسنده ج2 ص347 رقم 7294، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج13 ص18 رقم 3215. [↑](#footnote-ref-275)
276. د سيد القمني[وهل يستدل بالقمني؟!]: إسرائيل التوراة، التاريخ، التضليل، ص67: [↑](#footnote-ref-276)
277. <http://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/01-Genesis/Sefr-Al-Takween_Chapter-19.html> [↑](#footnote-ref-277)
278. د/ عبدالعظيم الديب - التضليل التاريخي والمعلوماتي:

     <http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=121852> [↑](#footnote-ref-278)
279. سر الكهنوت: سلطة مطلقة وإشراك للبشر مع الله ج:2

     <http://islamegy.wordpress.com/articles/priesthood-2/> [↑](#footnote-ref-279)
280. التنظيم الكهنوتي - موسوعة الملل والأديان -

     <http://www.dorar.net/enc/adyan/522>

     الدرر السنية: إشراف عام: علوي بن عبدالقادر بن محمد بن هادي السقََّاف. [↑](#footnote-ref-280)
281. [محمد بن إبراهيم السعيدي](http://islamselect.net/author/881) - الفتوى والكهنوت:

     <http://islamselect.net/mat/85407> [↑](#footnote-ref-281)
282. رواه مسلم ج1 ص403 رقم 251. [↑](#footnote-ref-282)
283. جامع الأحاديث ج18ص 452 رقم 19878 لجلال الدين السيوطي رواية الطبراني، وهو عند أحمد في مسنده ج2 ص411 رقم 9312، وصححه شعيب الأرنؤوط وقال: على شرط الشيخين، وصححه الألباني: قصة المسيح الدجال ج1 ص51.

     رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر كما قال في مجمع الزوائد 7 /336: رواه أحمد 3 /115 و201، بسند صحيح. [↑](#footnote-ref-283)
284. رواه مسلم ج1 ص373 رقم 225، رواه أحمد ج36 ص326 رقم 17226، وصححه الألباني في قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ج1 ص95. [↑](#footnote-ref-284)
285. الملا علي القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج16 ص61. [↑](#footnote-ref-285)
286. الرد على المنطقيين ج1 ص451. [↑](#footnote-ref-286)
287. التحرير والتنوير ج3 ص143. [↑](#footnote-ref-287)
288. الدكتور عبدالله صالح الفوزان: حصول المأمول في شرح ثلاثة الأصول ج1 ص84. [↑](#footnote-ref-288)
289. الدكتور/ عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف: مقرر التوحيد ج1 ص17. [↑](#footnote-ref-289)
290. الماوردي: النكت والعيون ج1 ص243. [↑](#footnote-ref-290)
291. تفسير ابن أبي حاتم ج3 ص72 . [↑](#footnote-ref-291)
292. رواه أحمد في مسنده ج30 ص173 رقم 14623، وحسنه الألباني: إرواء الغليل ج 6ص34 رقم 1589. [↑](#footnote-ref-292)
293. رواه البخاري ج366 رقم 3271. [↑](#footnote-ref-293)
294. رواه البزار في مسنده ج2 ص347 رقم 7294 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج 13 ص18 رقم 3215، وهو آخر ما أثبته، انظر تراجعات الألباني ج1 ص11. [↑](#footnote-ref-294)
295. رواه أحمد في مسنده ج40 ص58 رقم 18741، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج9 ص21 رقم 3093. [↑](#footnote-ref-295)
296. رواه النسائي ج12 ص429 رقم 4000 السلسلة الصحيحة ج8 ص73 رقم 3066. [↑](#footnote-ref-296)
297. مصنف ابن أبي شيبة ج14 ص400 رقم 37933، وصححه الألباني، فيما ساقه عن ابن جرير من رواية عبدالرزاق: السلسلة الصحيحة المجلدات ج8 ص22 رقم 3066. [↑](#footnote-ref-297)
298. رواه ابن ماجه ج12 ص304 رقم 4243 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص418 رقم 3430. [↑](#footnote-ref-298)
299. فتح القدير ج1 ص491 . [↑](#footnote-ref-299)
300. تفسير الشعراوي ج1 ص1075 . [↑](#footnote-ref-300)
301. رواه البخاري ج20 ص204 رقم 6057. [↑](#footnote-ref-301)
302. رواه النسائي في سننه الكبرى ج4 ص94 رقم 6431، وصححه الألباني: صحيح سنن النسائي ج8 ص176 رقم3604 - صحيح، ابن ماجه 3397. [↑](#footnote-ref-302)
303. الزمخشري: الفائق في غريب الحديث والأثر ج1 ص254. [↑](#footnote-ref-303)
304. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج5 ص402 . [↑](#footnote-ref-304)
305. رواه البخاري ج5 ص304 رقم 1368. [↑](#footnote-ref-305)
306. رواه مسلم ج7 ص42 رقم 2380. [↑](#footnote-ref-306)
307. رواه الدارقطني ج4 ص297 رقم 104، ج4 ص183 رقم 42، وحسنه الألباني: شرح العقيدة الطحاوية ج1 ص338، وحسنه بشاهده في الإيمان لابن تيمية ج1 ص44، انظر تراجعات العلامة الألباني في التصحيح والتضعيف ج1 ص26. [↑](#footnote-ref-307)
308. رواه أحمد في مسنده ج14 ص240 رقم 6702، وصححه الألباني: الجامع الصغير ج1ص774 رقم7740 - صحيح الجامع4291. [↑](#footnote-ref-308)
309. هذا ما انتهى إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية؛ تفسير الشعراوي ج1 ص1093 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-309)
310. رواه البخاري ج11 ص152 رقم 3115 . [↑](#footnote-ref-310)
311. رواه البخاري ج11 ص152 رقم 3115 . [↑](#footnote-ref-311)
312. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ج2 ص468 رقم 759. [↑](#footnote-ref-312)
313. الشيخ عطية محمد سالم: شرح بلوغ المرام ج52 ص7 [↑](#footnote-ref-313)
314. دكتور مهندس/ يحيى حسن وزيري، أستاذ العمارة بكلية الآثار جامعة القاهرة - بحث بعنوان الكعبة المشرفة دراسة تحليلية للخصائص التصميمية، موقع قبيلة آل بو عينين الإلكتروني الرسمي<http://www.al-buainain.com/>

     بحثه: إعجاز القرآن الكريم في وصف حركة الظلال 2006، كتاب بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجلد علوم الفلك والفضاء، الكويت. [↑](#footnote-ref-314)
315. <http://www.youtube.com/watch?v=u4_zeHqQdDQ> [↑](#footnote-ref-315)
316. الفائق في غريب الحديث والأثر ج1 ص286. [↑](#footnote-ref-316)
317. النهاية في غريب الأثر ج2 ص91. [↑](#footnote-ref-317)
318. شرح صحيح البخاري لابن البطال ج4 ص392. [↑](#footnote-ref-318)
319. رواه البخاري ج2 ص218 رقم 419. [↑](#footnote-ref-319)
320. رواه أحمد في مسنده ج14 ص309 رقم 6771، وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج3ص237 رقم 3634، إرواء الغليل ج ص317 رقم 6، صفة الصلاة ج1 ص154. [↑](#footnote-ref-320)
321. رواه البخاري ج2 ص218 رقم 419. [↑](#footnote-ref-321)
322. لسان العرب ج10 ص402. [↑](#footnote-ref-322)
323. أساس البلاغة ج1 ص30 . [↑](#footnote-ref-323)
324. ألفاظ القرآن عند السامرائي: ملتقى أهل التفسر:

     <http://vb.tafsir.net/tafsir18553/#post94680> [↑](#footnote-ref-324)
325. ملتقى أهل التفسير:

     <http://vb.tafsir.net/tafsir18585/#.U2JcOoEVyig> [↑](#footnote-ref-325)
326. <http://www.youtube.com/watch?v=1mi6YVFgDvs>

     <http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=14607&eid=1041> [↑](#footnote-ref-326)
327. رواه أحمد في مسنده ج 9 ص124 رقم 4089. [↑](#footnote-ref-327)
328. محمد بن أحمد الرشيد - تأملات في الحج وحكمته - مجلة الرياض العدد 14771 بتاريخ 4 ذي الحجة 1429 هـ.

     <http://www.alriyadh.com/391899> [↑](#footnote-ref-328)
329. رواه البيهقي في السنن ج4ص 334 رقم 8443، وقال الألباني: حسن الإسناد، وثابت عن عمر بن الخطاب موقوفًا. [↑](#footnote-ref-329)
330. كلمات للدكتور عبدالرحمن عبدالبر، عميد كلية أصول الدين بالمنصورة جامعة الأزهر، بعنوان: "لا للذين يبغونها عوجًا، بل نريدها أمة من الذهب". [↑](#footnote-ref-330)
331. هم جماعة من اليهود أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية للكيد للمسلمين، سكنوا منطقة الغرب من آسيا الصغرى، وأسهموا في تقويض الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة، عن طريق انقلاب جماعة الاتحاد والترقي، ولا يزالون إلى الآن يكيدون للإسلام، ولهم براعة في مجالات الاقتصاد والثقافة والإعلام؛ لأنها هي وسائل السيطرة على المجتمعات؛ المراجع:

     محمد علي قطب: يهود الدونمة، مكتبة المصطفى الإلكترونية.

     جعفر هادي حسن: الدونمة بين اليهودية والإسلام.

     عبدالله التل: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام. [↑](#footnote-ref-331)
332. جمع الجوامع، أو الجامع الكبير للسيوطي ج1 ص9859، أخرجه الطبراني عن ابن عباس 11ص215 رقم 11537، وصححه الألباني: الجامع الصغير ج1 ص431 رقم 4304 - السلسلة الصحيحة ج3 ص72 رقم 998. [↑](#footnote-ref-332)
333. ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ج1 ص34. [↑](#footnote-ref-333)
334. رواه النسائي مرفوعا ج5 ص454 رقم 9535. [↑](#footnote-ref-334)
335. : <http://majles.alukah.net/t67470/#ixzz2xWSXhGRQ> [↑](#footnote-ref-335)
336. الشاعر الفلسطيني:إبراهيم طوقان - الصورة البلاغية من كتاب رب البرية العدد 33 - المتوفَّى سنة 1941 م: منتديات استار تيمز. [↑](#footnote-ref-336)
337. رواه مسلم ج12 ص134 رقم 4425. [↑](#footnote-ref-337)
338. مدارك السالكين ج3 ص323 [↑](#footnote-ref-338)
339. رواه ابن ماجه، وأحمد في مسنده ج 13 ص391 رقم 6453، وحسنه الألباني: مشكاة المصابيح ج1 ص51 رقم 237. [↑](#footnote-ref-339)
340. رواه النسائي في سننه الكبرى ج5 ص388 رقم 9225، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج1 ص792 رقم 430 - قال الألباني في إرواء الغليل ج6 ص215: أخرجه الترمذي 2 /25، والحاكم 1 /114، والبيهقي 1 /91، من طريق محمد بن سوقة عن عبدالله بن دينار عنه، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب"، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. [↑](#footnote-ref-340)
341. رواه البخاري ج22 ص172 رقم 6683. [↑](#footnote-ref-341)
342. رواه أبو داود ج2 ص151 رقم 460 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج 2ص58 رقم 556. [↑](#footnote-ref-342)
343. رواه مسلم ج2 ص57 رقم 369. [↑](#footnote-ref-343)
344. <http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&ContentID=3821#Ayat6000395> [↑](#footnote-ref-344)
345. <http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&ContentID=2938#Ayat6000395> [↑](#footnote-ref-345)
346. رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج4 ص477 رقم 8325. [↑](#footnote-ref-346)
347. رواه البيهقي ج10 ص208 رقم 21429. [↑](#footnote-ref-347)
348. شرح سنن أبي داود عبدالمحسن العباد ج26 رقم 226. [↑](#footnote-ref-348)
349. رواه ابن ماجه ج11 ص445 رقم 3942، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص352 رقم 3192. [↑](#footnote-ref-349)
350. أهل الحديث هم الطائفة المنصورة الناجية حوار مع سلمان العودة الشيخ/ ربيع بن هادي عمير المدخلي.

     <http://islamancient.com/ressources/docs/224.pdf> [↑](#footnote-ref-350)
351. رواه البخاري ج2 ص150 رقم 378. [↑](#footnote-ref-351)
352. رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص265 رقم 2954، وصححه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني: ظلال الجنة ج2 ص100 رقم 843. [↑](#footnote-ref-352)
353. رواه ابن ماجه ج11 ص494 رقم 3983 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص364 رقم 3227. [↑](#footnote-ref-353)
354. رواه مسلم ج10 ص36 رقم 3544. [↑](#footnote-ref-354)
355. رواه ابن ماجه ج1 ص8 رقم 6، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه ج1 ص78 رقم 6 [↑](#footnote-ref-355)
356. رواه أحمد في مسنده ج1 ص401 رقم 3801، السلسلة الصحيحة ج3 ص371 رقم 1383. [↑](#footnote-ref-356)
357. أحمد في مسنده ج31 ص192 رقم 15044، وصححه الألباني السلسلة الصحيحة المختصرة ج1 ص760 رقم 403 - وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص192 رقم 2192.

     ولعله يقصد برواية الترمذي ما روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مولاةً له أتته فقالت: اشتد علي الزمان، وإني أريد أن أخرج إلى العراق، قال: فهلا إلى الشام أرض المنشر، اصبري لَكَاعِ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن صبر على شدتها ولأوائها كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة))؛ سنن الترمذي ج12 ص426 رقم 3853، وصححه في صحيح الترمذي ج3 ص249 رقم 3077. [↑](#footnote-ref-357)
358. رواه مسلم ج1 ص167 رقم 70. [↑](#footnote-ref-358)
359. رواه الترمذي في سننه ج9 ص235 رقم 2565، وحسنه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص141 رقم 2641. [↑](#footnote-ref-359)
360. الشيخ أبو بصير الطرطوسي:

     <http://www.altartosi.com/book/book35/sec16.html> [↑](#footnote-ref-360)
361. النهاية في غريب الأثر ج2 ص919.

     وقتلت سَرواتهم؛ أي: ساداتهم، واحدها سَرِيٌّ، مشتق من السرو؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج 1 ص131. [↑](#footnote-ref-361)
362. رواه البخاري ج12 ص127 رقم 3493. [↑](#footnote-ref-362)
363. فتح الباري لابن حجر ج2 ص442. [↑](#footnote-ref-363)
364. عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج24 رقم 414. [↑](#footnote-ref-364)
365. رواه مسلم ج9 ص400 رقم 3445 . [↑](#footnote-ref-365)
366. رواه البخاري ج21 ص444 رقم 6532. [↑](#footnote-ref-366)
367. رواه البخاري ج1 ص205 رقم 118. [↑](#footnote-ref-367)
368. رواه البخاري ج21 رقم 443 رقم 6531. [↑](#footnote-ref-368)
369. عبدالرحمن بن حسن البيتي - أهمية الحسبة في النظام الإسلامي ج1 ص47 - 1428هـ - إشراف الشيخ/عدنان بخاري، المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة،د/ عبدالله قادري الأهدل - الحدود والسلطان ج1 ص68. [↑](#footnote-ref-369)
370. فتح الباري لابن حجر ج13 ص7. [↑](#footnote-ref-370)
371. شرح النووي على مسلم ج12 ص229. [↑](#footnote-ref-371)
372. رواه مسلم ج1 ص168 رقم 71. [↑](#footnote-ref-372)
373. رواه البخاري ج11 ص277 رقم 3202. [↑](#footnote-ref-373)
374. رواه مسلم ج1 ص182 رقم 82. [↑](#footnote-ref-374)
375. رواه البخاري ج22 ص43 رقم 6605 [↑](#footnote-ref-375)
376. رواه النسائي في سننه ج12 ص448 رقم 4013، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن النسائي ج9 ص153 رقم 4081، وقال حسن صحيح، وجعله شاهدًا لحديث ((ذكِّره بالله ثلات مرات، فإن أبَى فقاتِله، فإن قتلك فأنت في الجنة، وإن قتلته فإنه في النار))؛ السلسلة الصحيحة المجلدات ج13 ص50 رقم 3247.

     أخرجه البخاري في التاريخ 4/ 1/ 198 - 199، والبيهقي في السنن 8/336، وأحمد 3/422، والبزار 2/365/1864، والطبراني في المعجم الكبير". [↑](#footnote-ref-376)
377. الدكتور المستشار/ عبدالقادر عودة، التشريع الجنائي الإسلام ج2 ص132. [↑](#footnote-ref-377)
378. رواه البخاري ج21 ص283 رقم 6428. [↑](#footnote-ref-378)
379. رواه مسلم في صحيحه ج9 ص393 رقم 3441. [↑](#footnote-ref-379)
380. رواه مسلم ج9 ص395 رقم 3442. [↑](#footnote-ref-380)
381. رواه الترمذي 8 ص69 رقم 2091، وصححه الألباني الجامع الصغير وزيادته ج1 ص432 رقم 4311. [↑](#footnote-ref-381)
382. شرح رياض الصالحين ج1 ص712. [↑](#footnote-ref-382)
383. رواه أبو داود ج12 ص196 رقم 3981، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج1 ص404 رقم 204. [↑](#footnote-ref-383)
384. تفسير ابن كثير ج2 ص92. [↑](#footnote-ref-384)
385. رواه البخاري ج1 ص205 رقم 118. [↑](#footnote-ref-385)
386. الفتاوي الكبرى لابن تيمية ج3 ص460. [↑](#footnote-ref-386)
387. التحرير والتنوير ج3 ص188. [↑](#footnote-ref-387)
388. رواه أحمد في مسنده ج1 ص324 رقم 2989. [↑](#footnote-ref-388)
389. رواه البخاري ج 14 ص28 رقم 4191. [↑](#footnote-ref-389)
390. رواه البخاري ج10 ص200 رقم 2788. [↑](#footnote-ref-390)
391. رواه البزار في مسنده ج1 ص426، السلسلة الصحيحة ج 7 ص75 رقم 2874. [↑](#footnote-ref-391)
392. فتح الباري لابن حجر ج6 ص145. [↑](#footnote-ref-392)
393. رواه البخاري ج13 ص277 رقم 4024. [↑](#footnote-ref-393)
394. رواه البخاري ج10 ص202 رقم 2789. [↑](#footnote-ref-394)
395. الكشاف ج1 ص311. [↑](#footnote-ref-395)
396. رواه البخاري ج12 ص331 رقم 3647. [↑](#footnote-ref-396)
397. رواه مسلم ج13 ص382 رقم 5001. [↑](#footnote-ref-397)
398. التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص594. [↑](#footnote-ref-398)
399. شرح النووي على مسلم ج17 ص136. [↑](#footnote-ref-399)
400. فتح الباري - لابن حجر ج7 ص275. [↑](#footnote-ref-400)
401. تفسير الشعراوي ج1 ص1129 - 1132. [↑](#footnote-ref-401)
402. راجع في ذلك تفسير ابن كثير للآية رقم 112 سورة آل عمران. [↑](#footnote-ref-402)
403. رواه البخاري ج3 ص1155 رقم 2996، تحت باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. [↑](#footnote-ref-403)
404. د/محمد سليم العوا: الأقباط والإسلام، حوار 1987، ص27 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-404)
405. أنوار البروق في أنواع الفروق للقرافي، الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم /الناشر عالم الكتب. [↑](#footnote-ref-405)
406. كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في الفقه ج28 ص617. [↑](#footnote-ref-406)
407. رواه البخاري ج1 ص8 رقم 6. [↑](#footnote-ref-407)
408. تاريخ الطبري ج1 ص546، وانظر صحيح السيرة النبوية للألباني ج 1 ص176. [↑](#footnote-ref-408)
409. رواه أحمد في مسنده ج1 ص461 رقم 4400، صحيح السيرة النبوية للألباني ج1 ص164: وقال رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد جيد وهو حديث حسن. [↑](#footnote-ref-409)
410. رواه البخاري ج4 ص467 رقم 1168. [↑](#footnote-ref-410)
411. تفسير ابن كثير. [↑](#footnote-ref-411)
412. رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص317 رقم 11083. [↑](#footnote-ref-412)
413. رواه البخاري ج12 ص478 رقم 3769. [↑](#footnote-ref-413)
414. رواه البخاري ج20 ص281 رقم 6121. [↑](#footnote-ref-414)
415. الشيخ /محمد بن صالح بن محمد العثيمين - شرح رياض الصالحين ج1 ص227. [↑](#footnote-ref-415)
416. شرح السير الكبير للسرخسي ج4 ص101 - حسن السلوك الحافظ دولة الملوك ج1 ص168 لمؤلفه محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي. [↑](#footnote-ref-416)
417. شرح السيوطي لسنن النسائي ج8 ص174 [↑](#footnote-ref-417)
418. الشيخ علي بن نايف الشحود: المفصَّل في شرح الشروط العمرية ج1 ص279. [↑](#footnote-ref-418)